التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

دراسة تحليلية شاملة للتاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
فى جميع العصور وجميع الأنحاء

تأليف

الدكتور أحمد شلبي

دكتوراه فى الفلسفة من جامعة كمبردج

أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية بالجامعات الإسلامية باندونيسيا

الطبعة الثانية

١٩٥٩

ملتزمة النشر والطبع
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى باشا ، بالقاهرة

التاريخ الإسلامي
والحضارة الإسلامية

دراسة تحليلية شاملة للتاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
فى جميع العصور وجميع الأنحاء

تأليف

الدكتور أحمد شلبي
دكتوراه فى الفلسفة من جامعة كمبردج
أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية بالجامعات الإسلامية باندونيسيا

الطبعـــة الثانية

١٩٥٩

ملتزمة النشر والطبع
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلي باشا : بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٥٩

التاريخ الإســـلامى

والحضارة الإسلامية

الجزء الأول :

العرب قبل الإسلام

الرسول : سيرته وأعماله

الخلفاء الراشدون

فلسفة الدعوة الإسلامية

كتب المؤلف

باللغة العربية :

١ — كيف تكتب بحثاً أو رسالة — مكتبة النهضة المصرية

٢ — تاريخ التربية الإسلامية — مكتبة الأنجلو المصرية

٣ — فى قصور الخلفاء العباسيين

(دراسة المؤامرات والدسائس التى كانت تجرى فى قصور هؤلاء الخلفاء)

مكتبة الأنجلو المصرية

٤ — التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية (٧ أجزاء)

مكتبة النهضة المصرية

٥ — المجتمع الإسلامى :

أسس تكوينه — أسباب تدهوره — الطريق إلى إصلاحه

مكتبة النهضة المصرية

٦ — الحكومة والدولة فى الإسلام — مكتبة النهضة المصرية

٧ — مقارنة الأديان — تحت الطبع

٨ — اندونيسيا كما رأيتها — تحت الطبع

باللغة الانجليزية :

٩ — History of Muslim Education دار الكشاف ببيروت والقاهرة

باللغة الاندونيسية :

١٠ — Masjarakat Islam — Nabhan:

١١ — Negara Dan Pemerintahan Dalam Islam — Nabhan:

١٢ — Hukum Islam — Widjaja

١٣ — Sedjarah dan Kebudajaan Islam. — Widjaja

١٤ — Perbandingan Agama. — Widjaja

محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

نهاية كفاح ١٨٨ — ١٩٤

الخلفاء الراشدون ١٩٤ — ٢٦٢

أبو بكر الصديق :

عمر بن الخطاب :

مقدمة

ظهر فى كتابة التاريخ الإسلامى طريقان ، أحدهما سرد الأحداث فى نظام الحوليات أو بدونه ، من غير تعليق عليها ، وبدون تحليلها ، والبحث عن دوافعها ، أما الطريق الآخر فاتجه إلى الاهتمام بالتعليق والتحليل لحدث من أحداث التاريخ دون الاهتمام بسرد الأحداث التاريخية المتتابعة . وقد عنى المؤرخون القدامى بالطريق الأول فألفوا الكتب الضخمة لسرد الأحداث التاريخية ، وعنى المؤرخون المحدثون بالطريق الثانى فامتازت كتاباتهم بأنها تحليل لحدث واحد من أحداث التاريخ أو شخصية واحدة من الشخصيات التاريخية .

ومن الواضح أن الطريقين يكمل أحدهما الآخر ولا يستقيم أحدهما وحده ، فالأحداث التاريخية دون فهم وتحليل عمل يُعتَبَرُ الآن ساذجا محدود الغَناء ، وتحليل حدث واحد دون فهم سلسلة الأحداث التاريخية غير كاف ، فهو ترف علمى يحتاج إلى أساس ينبنى عليه .

والمؤرخون القدامى بالإضافة إلى عدم اهتمامهم بالتحليل والنقد كانوا يدوِّنون التاريخ على نسق تدوين حديث الرسول ﷺ فيذكرون الروايات المختلفة للحادث الواحد ، ويذكرون الرواة متسلسلين الواحد بعد الآخر . ولا يهتمون بالأسلوب الذى يكتبون به ، وكل هذا جعل دراسة التاريخ صعبة المنال .

وفى سنة ٦٥٦ هـ حدث حادث خطير فى العالم الإسلامى هو سقوط بغداد على أيدى التتار ، وقَتْلُ الخليفة العباسى ، وإنهاء الخلافة العباسية بالعراق ، والذى يعنينا من هذا الحادث هنا هو خطورته على كتابة التاريخ الإسلامى ، فقد كانت الخلافة العباسية مع ضعفها رباطا يربط بين أكثر أجزاء العالم الإسلامى ، وكان من المؤرخين من يكتب تاريخ العالم الإسلامى

كله جملة واحدة ، فلما سقطت بغداد وانقطع الخيط الذى كان يربط بين أجزاء هذا العالم انفرطت البلاد الإسلامية وأصبح لكل منها تاريخ ومؤرخون ، وكثر أن نجد عراقياً مثقفا يجهل تاريخ اليمن ، ومصريا يجهل تاريخ إيران وهكذا .

وعلى هذا يعانى الباحثون المحدثون فى التاريخ الإسلامى مصاعب تشمل تاريخ العصور الإسلامية قبل سقوط بغداد وبعده ، فقبل سقوط بغداد كُتِب التاريخ الإسلامى ولكن بأسلوب ونسق بعيدين عن أسلوب العصر الحديث ونسقه ، وبعد سقوط بغداد اتجه الاهتمام إلى التاريخ المحلى للبلدان الإسلامية وقلّ الاهتمام بالتاريخ العام للعالم الإسلامى ، كما اتجه أكثر اهتمام الجامعيين فى العهد الحاضر إلى التحليل والنقد لحدث واحد من أحداث التاريخ كما سبق القول .

أما الحضارة الإسلامية فيمكن القول دون تردد أنها لم تجد بعد ما تستحقه من عناية ، ولم يظهر عنها من الأبحاث حتى الآن ما يشفى الغلة .

وقد قامت محاولات من أساتذتنا وزملائنا ، ولكنها لم تصل بعد إلى الغاية ، وقد أدركت وأنا أقوم بتدريس التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية بجامعة القاهرة وجامعات إندونيسيا ذلك النقص فعزمت على أن أقوم بجهد أضمه إلى جهود الأساتذة والزملاء ، وإنى أتجه إلى الله أن يرعى هذه المحاولة ويكللها بالنجاح .

وترمى هذه المحاولة إلى تحقيق الأهداف التالية :

١ — كتابة التاريخ الإسلامى بأسلوب معاصر ونسق علمى مع الإنصاف الكامل على أن يشمل هذا المؤلَّف عصور التاريخ الإسلامى كلها مبتدئا بتاريخ العرب قبل الإسلام ومستمرا حتى العهد الحاضر ، وستتجه العناية إلى التاريخ الإسلامى أى أن تاريخ العرب قبل الإسلام مثلا لن يأخذ حظا من الدراسة أوفر من الحظ الذى سنوجّهه لدراسة تاريخ الرسول

صلوات الله عليه ، ومع أن تاريخ العرب قبل الإسلام ضرورى ولكنى لا أرضى ما ارتضاه الدكتور فيليب حتى مثـــلا الذى خصص مائة وخمسين صفحة للعرب قبل الإسلام ثم اكتفى بعشر صفحات للكلام عن سيرة الرسول ، وأرى أن الكتاب الذى نحن بصدده هو كتاب فى التاريخ الإسلامى فكل ما سوى التاريخ الإسلامى تقديم له أو تعليق عليه ، ولا ينبغى أن تعطى المقدمة عناية أوفر من صلب الموضوع ، ومع أن الدكتور حتى أسمى كتابه « تاريخ العرب » ولكنه فى الحقيقة كان يؤرخ للإسلام لا للعرب ، وما فعله حتى فعل مثله بركلمان مع أن كتابه صريح فى أنه « تاريخ الشعوب الإسلامية » .

٢ ـ دراسة الأحداث ذات الشأن فى التاريخ الإسلامى دراسة تحليلية دون أن نضن عليها بجهد أو فراغ ، وذلك مثل علاقة الحروب بانتشار الإسلام ، ودراسة الفتنة التى أدّت إلى قتل عثمان ، ومسئولية حرب الجمل ، والصراع على الخلافة بين بنى هاشم وبنى أمية والشيعة وتاريخهم السياسى والدينى وغير ذلك من الموضوعات .

٣ ـ عدم ذكر تفاصيل الأحداث التى لا غناء فى ذكرها ، ففى الحديث عن منصب أمير الأمراء نذكر تاريخ ذلك المنصب بإيجاز دون ذكر تفاصيل الخلافات بين أولئك الذين سعوا ليشغلوه ، إذ من الواضح أنه لم يكن لهؤلاء أى أثر يذكر فى توجيه الحياة الإسلامية ، ولم يكن صراعهم إلا صراعا فرديا لا قيمة له ، وهناك دول لم يكن لها فى التاريخ دور كبير ، وهذه سنمر بها مرورا سريعاً فنذكر كيف نشأت وكيف انهارت ونعدد ملوكها ، ثم نتعداها إلى سواها .

٤ ـ الأحداث الهامة ذات الأثر فى الحياة الإسلامية كالصراع بين اليهود والمسلمين ، وكالحروب الصليبية ، سنذكرها مجتمعة فى مكان واحد ليكون ذلك أقرب إلى تناولها وفهمها .

٥ ـ هناك أجزاء هامة من العالم دخلها الإسلام منذ مئات السنين

وقامت بها ممالك إسلامية ، ولكن المؤرخين المسلمين أهملوها إهمالا يكاد يكون تاما ، وسنولى هـــذه البقاع ما تستحقه من عناية ، وذلك مثل إندونيسيا والملايا .

٦ – وسأولى الحضارة الإسلامية العناية الجديرة بها ، وعندى أن الحضارة الإسلامية نوعان : نوع إسلامى النبع أتى به الإسلام ونظمه وذلك كالتفكير الإسلامى فى السياسة والاقتصاد والحياة الاجتماعية وما شابهها ، فللإسلام فى هذه الأشياء تفكير استحدثه وابتكره ، أما النوع الثانى فلم يبتكره الإسلام وإنما هو من الحضارة العالمية العامة ولكن المسلمين لعبوا فيه دورا هاما ، وذلك كالدور الذى لعبوه فى إحياء الثقافة فى العهد العباسى الأول ، وكالأبنية الشاهقة الرائعة التى تبين رقىّ الفنون عند المسلمين ، وكعنايتهم بالموسيقى والغناء ، ومن الواضح أن النوع الأول عام للمسلمين جميعا ، أما النوع الثانى فحضارة تقوم بها دولة أو يقوم بها خليفة أو حتى وزير أو أمير ، وستكون سياستنا فى دراسة الحضارة الإسلامية تابعة لهذين القسمين ، فالقسم الأول سيدرس مستقلا بعد الفراغ من العرض التاريخى حيث سنتكلم عن الحكومة والدولة فى الإسلام ، وعن النظم الاقتصادية فى الإسلام ، وعن الحياة الاجتماعية فى التفكير الإسلامى وهكذا ، أما القسم الثانى فسنتكلم عنه تالياً وتابعاً للعهد الذى خدمه أو للخليفة الذى نمّاه .

٧ – وفيما يتعلق بالمراجع سأتبع فى ذلك القانون العام الذى وضّحته فى كتابى « كيف تكتب بحثاً أو رسالة » وخلاصة هذا القانون أن تذكر المراجع بدقة فى الأحداث الهامة والأفكار المقتبسة للتثبت من أحداث التاريخ ولنعطى كل ذى حق حقه ، على أن هذا الكتاب ليس سرداً لأحداث التاريخ فقط وليس جمعاً لعبارات الآخرين ، وإنما هذا الكتاب هو جزء من مؤلفه ، فكثير من أحداث التاريخ أصبح من الشهرة بحيث لا نريد مصدراً نرجعه إليه بقدر حاجتنا إلى التفكير فى ذلك الحدث ودواعيه ونتائجه تفكيراً يجعل

مصدره الكاتب نفسه ، وقد كتب أستاذنا الدكتور طه حسين كتابه « الفتنة الكبرى » بجزأيه : « عثمان » و « على وبنوه » وفى هذا الكتاب كثير من الحقائق التاريخية ولكن أهم ما فيه هو تفكير مؤلفه وفهمه للأحداث ، ولهذا لم تكثر فيه المراجع المباشرة وإن كانت مراجعه غير المباشرة كثيرة جداً .

وقد دعانى إلى الإسهاب فى ذلك الموضوع نوعاً ما ، ما لاحظته من اتجاه بعض المؤلفين إلى الإكثار من ذكر المراجع بحيث نجد فى السطر الواحد ثلاثة مراجع أو أربعة ، وبحيث يشار فى صفحة واحدة عشر مرات إلى مرجع واحد لم يتغير أو قل إلى صفحة فى ذلك المرجع الواحد ، ولست أنقد هؤلاء المؤلفين ، ولكنى أقول إن هذه لن تكون طريقتى لأنى سأتدخل دراسة الأحداث بأفكارى ، ولن أدع القارئ طويلا دون أن يجدنى محاولا أن أبحث أكثر مما أحاول أن أجمع .

* * *

وعلى ذكر المراجع يجدر بى أن أتحدث بإيجاز عن المصادر التى غذَّتْ هذا الكتاب بما فيه من مادة ، وذكر المصادر يلزمنى أن أشير إلى حقيقتين هامتين :

أولا — التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية جزء من الدراسات الإسلامية ، ولا يمكن إطلاقاً اعتبار التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية شيئاً مستقلا عن الدراسات الإسلامية ، وقد ظلت هذه الحقيقة مهملة قصداً أو سهواً مما أتاح لقليلى البضاعة فى الدراسات الإسلامية أن يكتبوا فى التاريخ الإسلامى ، وعلى هــذا جاءت كتابتهم ضحلة قليلة الغور ، وقد كان المستشرقون أكثر وعياً لهذه الحقيقة ، فلم يكتبوا فى التاريخ الإسلامى ، أو قل لم يتجهوا للتاريخ إلا بعد أن اتجهوا بعنايتهم اتجاهاً كاملا للدراسات الإسلامية فى أكثر شعبها أو فى جميعها ، فحصلوا منها على قدر قليل أو كثير ، ونريد لهذا أن نقول بصراحة إن الذى يكتب فى التاريخ الإسلامى

والحضارة الإسلامية لابد له من الإلمام بدراسة القرآن ولهجاته ، وأسباب نزوله ، وأخذ الأحكام منه ، وبلاغته وصلته بالإحداث الإسلامية والعربية ، وتفسيره ، وكذلك معرفة الحديث والفقه وأصول الفقه والتوحيد وتاريخ التشريع الإسلامى وغيرها من العلوم الإسلامية ، فتلك من أهم مصادر التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية . وبدونها يقع الكاتب فى أخطاء قد يكون بعضها خطيراً .

ثانياً – قلنا إن المستشرقين أخذوا من الدراسات الإسلامية قدراً قليلا أو كثيراً قبل أن يقدموا على كتابة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ، وهذه ناحية تستحق الثناء فى ثقافة المستشرقين ، ولكن هناك ناحية أخرى مؤسفة تتعلق بما كتبه المستشرقون عن الإسلام ، وتلك هى عدم الإنصاف الذى وضح فى أكثر ما كتبه هؤلاء ، صحيح أن فيهم من هم منصفون أو أميل إلى الإنصاف ، ولكن هؤلاء قليلون جداً إذا قيسوا بالجمهرة العظمى منهم ، وقد كان نتاجهم يهاجم الإسلام والمسلمين قصداً أو لقلة فهم لهذا الدين ، وجميع الكُتَّاب المسلمين يدركون ذلك ، استمع إلى الدكتور عبد الحليم النجار وهو يقدم الترجمة التى قام بها لكتاب « مذاهب التفسير الإسلامى » لجولدزيهر حيث يقول : « . . . ويشتمل الكتاب على قليل من النزغات الدينيـــة ، وهى نزغات لا يكاد يخلو منها كتاب من كتب المستشرقين لا سيما فيما يتصل من الدين بسبب أو نسب ، يمليها عليهم إلف لازم ، أو هوى متبع ، أو قصد جائر » .

وهذه المسألة ترتب عليها مسألة أخرى أكثر خطورة ، ذلك أن هؤلاء المستشرقين سبقوا المسلمين فى دراساتهم ، وكانوا أساتذة لكثيرين من المسلمين الذين أوفدوا إلى أوربا للتعمق فى الدراسات الإسلامية وطرق البحث فيها ، وقد تأثر بعض هؤلاء المسلمين بأساتذتهم المستشرقين ، وعادوا فكتبوا ، وتقرأ ما كتبوه فتلمس أن كتابتهم تجافى روح الإسلام فى كثير من الأحيان ،

والذى سبب ذلك هو أن هؤلاء الموفدين لم يكونوا قبل إيفادهم على علم واسع بالدراسات الإسلامية .

وقد قلت آنفاً إن كتابة هؤلاء المسلمين أكثر خطورة من كتابة المستشرقين أنفسهم ، ومرجع ذلك أن القراء يقرءون للمستشرقين بحذر ، ولكنهم قد يستسلمون للكاتب المسلم ولا يحذرون منه .

وقد أشرت إلى هذه النقطة إشارة مجملة متعمداً عدم التفصيل لظروف آمل أن يدركها القارئ ، ولو أردت الإسهاب لعرضت اقتباسات عجيبة دونتها أقلام مسلمين .

ونعود للحديث عن مصادر هذا الكتاب فنقرر أنها كثيرة ومتلونة ، وأنها طبعاً تختلف باختلاف الزمان واختلاف المكان ، وتختلف فى دراسة الحضارة عنها فى دراسة التاريخ .

وقبل أن نذكر المصادر الرئيسية التى اعتمدنا عليها نقرر أن الآثار والنقوش والعملة تعتبر عادة من أهم المصادر التى تساعد على دراسة التاريخ ، وقد كانت الآثار الفرعونية أهم المصادر التى حفظت لنا تاريخ الفراعنة وحضارتهم ، ولكن – للأسف – يعتبر تاريخ العرب قبل الإسلام والتاريخ الإسلامى فى مرحلته الأولى (عصر صدر الإسلام) قليلى البضاعة من هذه المصادر لعدة اعتبارات أهمها :

١ – البداوة التى كانت طابع العرب والتى لم تحفزهم للنقش ، إذ كانوا رحلا والنقوش والآثار تحتاج إلى استقرار وإقامة .

٢ – كثرة الحروب بين العرب قبل الإسلام وكثرة الحروب بعد الإسلام ، كأيام العرب فى الجاهلية ، والغزوات وحروب الردة وغيرها بعد الإسلام ، وهذه وتلك أفنت ما قد يكون ظهر من هذه النقوش أو تلك الآثار .

٣ – كان المسلمون الأُوَل قريبى صلة بعبادة الأوثان ، ولذلك لم يهتموا بالآثار والأحجار خوفاً من أن تصبح فى يوم مقدسة عند ضعاف القلوب .

٤ — وجد المسلمون فى القرآن المصدر الذى لا يعدله مصدر ، ويجىء بعده الحديث والرواية فلم يهتموا بتسجيل أحداثهم عن طريق النقوش والآثار :

وعلى هذا لم يبق لنا إلا بعض النقوش والآثار والعملة وبخاصة فى الأماكن المتحضرة كاليمن والأنباط وتدمر ، وستمدنا هذه المصادر ببعض المعلومات المفيدة نستمدها مما كتبه الرحالة والعلماء الذين زاروا هذه الآثار ووصفوها .

ونعود بعد ذلك إلى المصادر الرئيسية للتاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية فنقرر أن فى قمتها القرآن الكريم ذلك الكتاب المقدس الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وذلك المصدر الذى لم تعبث به السنون ولم يلحقه تحريف ولا تشكيك ، فإذا حدثنا القرآن الكريم حديثاً واضحاً عن بعض الأحداث التاريخية فإنا لا نحتاج معه إلى مصدر آخر ، وأى مصدر يبلغ فى الدقة والعمق مبلغ القرآن ؟

فالقرآن يحدثنا عن اجتماع قريش قبيل الهجرة حيث تناقش المجتمعون ليجدوا طريقاً يسلكونه ضد محمد بقوله « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين »[١] فهذا المصدر هو أدق مصدر يحكى خبر هذه المؤامرة وما جرى فيها .

والقرآن يصور لنا حال المسلمين فى غزوة الخندق أجمل تصوير بقوله : « إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر »[٢] وهو بهذا يغنينا عن أى مرجع آخر . وهكذا دواليك .

ويجىء بعد القرآن حديث الرسول ، والمصدران بالغا الأهمية بشكل أخص فى دراسة الحضارة الإسلامية ، فإنها قد اتخذت أسسها منهما .

وبعد القرآن والحديث تجىء الوثائق ، والوثائق بالغة الأهمية فى

(١) الأنفال ٣٠ .

(٢) الأحزاب ١٠ .

دراسة التاريخ الإسلامى ، ولكن للأسف فقدت أغلب الوثائق فى الحروب الداخلية التى كثيراً ما التهمت نيرانها هذا المصدر الهام من مصادر التاريخ ، ومع هذا فلا تزال لدنيا مجموعة ذات بال ، وقد جمع السيد حميد الله الحيدر آبادى فى كتاب خاص « مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة » كما جمع الأستاذ أحمد زكى صفوت أكبر مجموعة من هذا النوع فى كتاب أسماه « جمهرة رسائل العرب فى عصور العربية الزاهرة » وهو فى أربعة أجزاء كبيرة .

وبعد الوثائق تجىء كتب المؤرخين ، والحديث عن كتب المؤرخين يقتضينا أن نتحدث قليلا عن رأى المسلمين الأول فى التدوين[١] .

أول كتاب دوَّنه المسلمون هو كتاب الله ، ويروى المؤرخون أن المسلمين ترددوا طويلا قبل أن يقدموا على تدوين القرآن ، وربما جاز لنا أن نعود قليلا إلى الوراء لنذكر أن الرسول كان بعد أن يتلقى الوحى يملى ما تلقاه على كُتَّاب الوحى ، وكان هؤلاء يكتبون ما يسمعون من الرسول على عسيب النخل أو الجلد أو العظام أو الحجارة الرقيقة ، ولكنَّ جُل الاعتماد على صيانة القرآن كان الحفظ ، فقد كانت ذاكرة العرب قوية وحافظتهم مشهودا بها . بيد أن كثيرين من الحفاظ ماتوا فى حروب الردة وحروب المتنبئين ، فأشار عمر على أبى بكر أن يجمع القرآن ويدوِّنه ، وقد تردد أبو بكر حينا ثم وافق عمر وانتدبا لذلك زيد بن ثابت ، ولكنه تردد أيضاً حينا ثم وافق[٢] .

فإذا جئنا إلى تدوين الحديث وجدنا التردد أكثر ، فقد كان القرآن يدوَّن عقب نزوله كما قلنا ، ولكن الحديث لم يكن يدون خوفا من أن يختلط بالقرآن ، وبعـــد وفاة الرسول وظهور الأحاديث الموضوعة أمر

---

(١) انظر كتاب تقييد العلم للخطيب البغدادى .

(٢) اقرأ كتاب تاريخ التشريع الإسلامى للمؤلف « تدوين القرآن » .

أبو بكر الناس ألا يحدثوا عن الرسول ، وسار عمر على هذا النهج بل بالغ فيه فحبس ابن مسعود وأبا الدرداء وأبا مسعود الأنصارى لأنهم أكثروا التحديث عن الرسول ، ولم ينشط تدوين الأحاديث إلا فى منتصف القرن الثانى الهجرى حيث شغل به مالك بالمدينة ، وابن جريج بمكة ، وسفيان الثورى بالكوفة وحماد بالبصرة . . .[1] .

وإذا كان المسلمون ترددوا كذلك فى تدوين الحديث فإن ترددهم فى تدوين سواه من العلوم كان أكثر ، ومن هنا وجب علينا الحذر فى تلقى الأخبار التى دونها المؤرخون ، فإن الأحداث الأولى لم تصل للمؤرخين مدوّنة وإنما وصلتهم من الرواة ، وعلى هذا يصادف المؤرخ أحياناً بعض التناقض ، وإن كان ليس من العسير على المؤرخ المدرب أن يصل إلى الحقيقة حتما أو تقريبا من بين طيات ذلك التناقض .

ومن الكتب الهامة التى ستمدنا بمادة غزيرة كتب التراجم وعلى رأسها سيرة سيدنا رسول الله : سيرة ابن هشام (٢١٣ هـ) .

وكتب الحوليات وفى قمتها تاريخ الطبرى (٣١٠) والكامل فى التاريخ لابن الأثير (٦٣٠ هـ) .

وكتب المغازى والفتوح وأهمها فتوح البلدان للبلاذرى (٢٧٩ هـ) وفتوح مصر والمغرب والأندلس لابن عبد الحكم (٢٥٧ هـ) .

وكتب الجغرافية وأهمها مروج الذهب للمسعودى (٣٤٥ هـ) . وكتاب صورة الأرض لابن حوقل (٣٦٧ هـ) ومعجم البلدان لياقوت (٦٢٦ هـ) .

وهذه المراجع — كما هو واضح — عامة تفيدنا بمادة هامة عن القرون الأولى للتاريخ الإسلامى فى مختلف بقاعه ، ولكننا نحتاج بعد ذلك إلى الكتب التى اتجهت لدراسة كل قطر على حدة عندما انفرط عقد العالم الإسلامى .

---

(١) اقرأ كتاب تاريخ التشريع الإسلامى للمؤلف « دراسة الحديث وتدوينه » .

فإذا جئنا للحضارة الإسلامية وجدنا لوناً من الصعوبة ، فإن المؤرخين والكُتَّاب الأول لم يُفرِدوا كتباً وأبحاثاً لإعطاء دراسة كافية للحضارة الإسلامية ، ولذلك كان علينا أن نصبر وأن نثابر حتى نجد الحضارة الإسلامية متناثرة فيما كتبوه ، وعلى كل حال فبين ما كتبه الأولون كتب تميل إلى جانب الدراسات الحضارية أكثر من ميلها إلى الدراسات التاريخية ، ونستطيع أن نجمع المادة من هذه الكتب ونرتبها ، فتخرج لنا فكرة عن حضارة الإسلام كاملة أو قريبة من الكمال ومن هذه الكتب ما يلى :

أبو يوسف (١٩٢ هـ) فى كتابه الخراج .

الكلبى (٢٠٤ هـ) فى كتابه الأصنام .

الجاحظ (٢٥٥ هـ) فى كتبه الحيوان — البيان والتبيين — التاج فى أخلاق الملوك .

ابن قتيبة (٢٧٦ هـ) فى كتبه المعارف — الإمامة والسياسة — عيون الإخبار

ابن عبد ربه (٣٢٨ هـ) فى كتابه العقد الفريد .

الجهشيارى (٣٣١ هـ) فى كتابه الوزراء والكتاب .

قدامة بن جعفر (٣٣٧ هـ) فى كتابه الخراج .

الإصفهانى (٣٥٦ هـ) فى كتابه الأغانى .

الماوردى (٤٥٠ هـ) فى كتابه الأحكام السلطانية .

ابن حزم (٤٥٦ هـ) فى كتابه الفصل فى الملل والأهواء والنحل

الغزالى (٥٠٥ هـ) فى كتبه الإحيام — إلجام العوام — الرسائل .

الشهرستانى (٥٤٨ هـ) فى كتابه الملل والنحل .

ابن الجوزى (٥٩٧ هـ) فى كتابيه مناقب عمر بن الخطاب — مناقب عمر بن عبد العزيز .

ابن الطقطقى (٧٠٩ هـ) فى كتابه الفخرى فى الآداب للسلطانية .

ابن خلدون (٨٠٨ هـ) فى كتابه المقدمة .

القلقشندى (٨٢١ هـ) فى كتابه صبح الأعشى . ١

ابن حجر (٨٥٣ هـ) فى كتابه رفع الأصر عن قضاة مصر.

السيوطى (٩١١ هـ) فى كتبه الإتقان فى علوم القرآن — نزهة الجلساء — تاريخ الخلفاء .

ويجىء بعد ذلك مجموعة كبيرة من كتب المحدثين ، وذلك مثل مؤلفات :

محمد عبده : الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية .

أحمد أمين : فجر الإسلام — ضحى الإسلام — ظهر الإسلام — يوم الإسلام

طه حسين : على هامش السيرة — الفتنة الكبرى : عثمان — على وبنوه

محمد كرد على : الإسلام والحضارة العربية .

محمد الخضرى : أصول الفقه — تاريخ التشريع الإسلامى — محاضرات فى التاريخ الإسلامى .

جورجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى .

فريد رفاعى : عصر المأمون .

على عبد الرازق : الإسلام وأصول الحكم .

حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام .

عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية (حتى سقوط الدولة الأموية) .

أحمد شلبى : تاريخ التربية الإسلامية — تاريخ الحضارة الإسلامية — المجتمع الإسلامى — الحكومة والدولة فى الإسلام — فى قصور الخلفاء العباسيين .

ومجموعات كثيرة أخرى من الكتب غير هذه .

وقد أدت كتب المستشرقين دوراً كبيراً فى هذه الدراسة التاريخية

والحضارية ، ومن أهم الكتب التى قدمت فائدة تذكر كتب Stanley lane Poale

History of Egypt in the Middle Ages
Thé Moars in Spain
Muhammadan Dynasties

وقد أمدنا الكتاب الأخير بمعلومات موجزة كافية عن الدول التى لم نجد حاجة لدراسة واسعة حولها فى العرض التاريخى الذى نقوم به .

ومن كتب المستشرفين أيضاً ذات الفائدة :

Nicholson	:	A Literary HIstory of the Arabs.
Browne	:	A Literary History of Persia
Gihb	:	Muhammadanism
Thomas Arnold	:	The Caliphate
	:	The Preaehing of Islam
Margoliouth	:	Muhammad and the Rise of Islam
H. Wells	:	A Short History of the World
G. Kirk	:	A Short Hislory of the Middle East

ومن الكتب ذات الفائدة العظيمة التى كتبها شرقيون مسلمون أو غير مسلمين :

Sayid Ameer Ali	:	A Short History of the Saracens
	:	The Spirit of Islam .
Khnda Bukhsh	:	Islamic Civilization
P. Hitti	:	The History of the Arabs.

وقد قدمت دوائر المعارف العربية والأوربية مادة وفيرة ومساعدات جمة لهذا الكتاب ستجدها متناثرة فى طياته .

* * *

وفى هذا الجزء (الجزء الأول) تحدثت عن العرب قبل الإسلام ، وعن سيرة الرسول ، وعن الخلفاء الراشدين . وأريد هنا أن أثبت حقيقة بالغة الأهمية وهى أننى حينما كنت أكتب سيرة الرسول صلوات الله عليه

كنت أنعم بلذة لا تعدلها لذة وسرور لا يدانيه سرور ، وكنت أحس بدافع قوى يدفعنى لمواصلة العمل ، وكنت أدخل حجرة مكتبى وكأننى مقبل على حفل رائع ولقاء بهيج ، فإذا جلست لمكتبى وتفرغت للعمل غمرتنى سعادة ليس لى عهد بمثلها ولم أدرك مبعث هذا الإحساس حتى انتهيت من كتابة سيرة الرسول وبدأت فيما تلاها من أبحاث فرأيتُنى أعود إلى طبيعتى أحب العمل حيناً وأنفر منه حيناً ، فأدركت أن صحبة الرسول كانت هى مبعث اللذة ، وكانت مصدر الغبطة ، وجدير بهذه الصحبة الكريمة أن تكون كذلك .

وبعد إننى أدرك أن الغاية التى أسعى لها شاقة ، ولكنى أرجو من الله العون ، وأسأله أن ينفع بهذا العمل إنه سميع مجيب .

المعادى فى الثالث من يوليو سنة ١٩٥٩

أحمد شلبى

تاريخ العرب قبل الإسلام

لا بد من معرفة فكرة ولو موجزة عن العرب قبل الإسلام ، ذلك لأن العرب هم الجنس الأول الذى تلقى هذا الدين ، وكانت لهم قبله دياناتُهم وعاداتُهم وأخلاقُهم ونظمُ حياتهم ، وجاء دين الإســلام وله نظمه وأخلاقه . فالدين الجديد نزل على قوم ليسوا جددا ، فالتقى الدين الإسلامى بأديان الجاهلية ، والتقت نظم الإسلام بنظم العرب قبله ، وهكذا ، وحدث صراع طويل لا يمكن أن نحيط به إلا إذا عرفنا شيئاً عن حياة العرب قبل الإسلام ، ومثل ذلك يجب أن يتبع إذا تحدثنا عن دخول الإسلام مصر أو الشام أو إندونيسيا فلا بد أن نعرف شيئاً عن هذه البلاد قبل الإسلام ، فذلك الذى سنعرفه سيوضح لنا الطريقة التى استقبل بها الإسلام فى أى من هذه البلاد .

وينقسم سكان الجزيرة العربية قسمين : بدو وحضر ، أما البدو فإن تاريخهم يكاد يكون مجهولا ، وأقدم ما نعرفه هو ما امتد قبل الإسلام بحوالى ١٥٠ سنة فقط ، وسبب ذلك أنهم كانوا قبائل متعادية متحاربة ، وكانت الحرب عندهم فى الأصل ضرورية للمحافظة على الحياة ، فالقوى هو الذى يستطيع أن يمتلك منازل الماء ويرعى العشب ، أما الضعيف فليس له للحياة الكريمة سبيل ، واشتغال البدو بالحروب استنفد جهدهم فلم يتجهوا للحضارة ، فإذا حدث واتجه بعضهم للحضارة أفنى أعداؤه حضارته التى بناها ومجده الذى شيده ، ثم إنهم كانوا يجهلون الكتابة فلم يدونوا لنا تاريخهم وحياتهم ، وعلى هذا لم تقم أبنية تحدثنا عن تاريخهم ولم توجد كتابة تعلمنا ذلك التاريخ ، ولم يصل لنا عن الأقدمين إلا ما أوردته الكتب المقدسة ، أما المائة والخمسون سنة التى سبقت الإسلام فقد جاءتنا المعلومات عنها مما أثبته الشعر أو تحدث به الرواة .

أما الحضر ويشمل جنوب الجزيرة العربية ودول الشمال (الأنباط وتدمر والغساسنة واللخميين) كما يشمل إلى حد ما بعض مدن الحجاز فله تاريخ أكثر وضوحا ، وسنتحدث فيما بعد بشيء من التفصيل لهذا الإجمال .

الجنس العربى :

الجنس العربى هو أحد الأجناس السامية ولعله أكثرها محافظة على خصائص الساميين ، واللغة العربية هى إحدى اللغات السامية ولكنها أيضاً أكثرها محافظة على خصائص اللسان السامى(١) ، وترجع هذه المحافظة إلى طبيعة الحياة فى الجزيرة العربية فلقد حرست هذه الحياة الجنس العربى واللغة العربية من الهجمات التى تعرض لها غير العرب من الساميين وغير اللغة العربية من فروع اللسان السامى .

وقد جرى المؤرخون على وضع حد فاصل بين قسمين من العرب هما : العرب البائدة والعرب الباقية ، وكلام المؤرخين يوحى إلى أنه لا علاقة بين الاثنين وكلمة البائدة تفيد الاندثار والفناء وفى هذا القسم توضع عاد وثمود وطسم وجديس ، ويرون أن الكتب المقدسة هى التى روت لنا شيئاً من أخبار بعض هذه الجماعات ، وأن ذكرها ورد فى بعض المراجع القديمة .

أما العرب الباقية فهم الذين لا يزالون حتى اليوم ، ويبدو لى أن وضع حد فاصل بين القسمين غير مفهوم ، وأن ارتباطاً ما ينبغى أن يلاحظ بين السابقين واللاحقين ، والعرب الباقية تنقسم بالتالى إلى قسمين قحطانية وعدنانية والقحطانيون موطنهم الأصلى جنوب الجزيرة ومنهم ملوك اليمن وقبائل سبأ وحمير وقد خرجت منهم جماعات وقبائل فى ظروف متعددة ونزلت بأجزاء مختلفة من الجزيرة العربية ومن هؤلاء اللخميون الذين نزلوا الحيرة وكونوا ملكاً بها ومنهم كذلك أولاد جفنة ملوك الغساسنة ومنهم ملوك كندة ،

---

(١) Hitti : History of the Arabs p. 8

كما أن منهم الأزد الذين تفرع منهم الأوس والخزرج ، أما العدنانية فيسمَّوْن العرب المستعربة أى الذين دخل عليهم دم ليس عربياً ثم تمَّ اندماج بين هذا الدم الدخيل وبين العرب وأصبحت اللغة العربية لسان المزيج الجديد ، وهؤلاء هم عرب الشمال وموطنهم الأصلى مكة المكرمة والدم الجديد الذى نزل بهم هو إسماعيل الذى جئ به إلى مكة وهو صغير ونشأ بين سكانها من قبيلة جرهم كما سيأتى ثم صاهرهم وترك أولاده بينهم بعد أن استعربوا . ومن أهم أولاد إسماعيل عدنان الذى تنسب له هذه الطائفة ، ويجىء بعد عدنان ابنه معد ثم نزار بن معد ، ولنزار هذا فرعان هامان يتبعان ولديه ربيعة ومضر ، ومن أشهر قبائل ربيعة عبد القيس وبكر وتغلب وحنيفة ، ومن أشهر قبائل مضر بنو هوازن وبنو غطفان وتميم وقريش .

ولم تتسع مكة لعرب الشمال فبدءوا يهاجرون يبحثون عن مساقط الماء ومنابت العشب فنزل عبد القيس البحرين ونزل بنو حنيفة اليمامة ونزل بنو هوازن بنواحى أوطاس شرقى مكة .

وكان لعرب الجنوب مدنية أعمق ومعرفة بشئون السياسة أكثر من عرب الشمال ، ولذلك لما هاجر عرب الجنوب أقاموا لهم مدنيات وممالك فى الشمال ومنهم يتكون حضر الجزيرة فى الغالب ، أما عرب الشمال فلم يظهر لهم مجد ذو بال إلا فى ظل الإسلام ، وكانوا يكوِّنون بدو الجزيرة . وسنرى أن الإسلام قد نادى بزوال الفوارق وعمل محمد وعمل خلفاؤه من بعده على تكوين أمة إسلامية لا عصبية فيها ، ولكن الخلاف بين عرب الجنوب وعرب الشمال لم يفن وكان يبدو قوياً مدمراً من حين إلى آخر وبخاصة عند ما يكون الخليفة ضعيفاً أو عندما ينسى المثل الإسلامية وينتصر لأحد هذين القسمين .

لغة الشمال ولغة الجنوب :

ستدلنا الأبحاث التالية على أن اليمن كانت سيدة الحضارة فى الجزيرة العربية وكانت فى يدها تجارة الشرق كله ، وكانت لها مستعمرات على طول

الطريق من اليمن للشام بالإضافة إلى خطوطها البحرية ، وهذه المستعمرات لم تَدَعْ حاجة لاستخدام البدو الذين يسكنون فى شمال الجزيرة ، وعلى هذا قل الاختلاط بين عرب الجنوب وعرب الشمال ، ثم إن اليمن جذبت لها طوائف من المهاجرين بسبب صلاتها التجارية وأهم هؤلاء مهاجرو أفريقيّة والحبشة عبر باب المندب ولهذه الأسباب وجدت فى الجنوب لغة غير لغة الشمال ، ويبدو أن لغة الجنوب كانت أقوى بسبب حضارة المتكلمين بها وآدابهم ، ولغة الجنوب هذه لها صلة وثيقة بلغة الحبشة ، وهى إحدى اللغات السامية ، وتسمى اللغة الحميرية نسبة إلى حمير وسنتكلم عنها فيما بعد ، وبهذه اللغة نقشت بعض أخبار الحمريين التى لا تزال موجودة .

أما لغة الشمال فهى لغة القرآن وتختلف عن لغة الجنوب فى تصاريف الأفعال والضمائر ولكنها تتفق معها فى بعض المفردات وفى الجموع المكسرة(١)

ودالت دولة الجنوب ، وانتقلت التجارة فى الجزيرة العربية إلى عرب الشمال كما سيأتى إيضاحه ، وكثر الاهتمام بمكة كمركز دينى للعرب جميعاً تنمو مكانته يوماً بعد يوم ، وهذا جعل لغة الشمال تسود ولغة الجنوب تتقهقر ، وجاء الإسلام ونزل القرآن بلغة قريش لغة الشمال وتم لهذه اللغة بذلك السلطان فى الجزيرة العربية كلها ولم يبق للغة الجنوب إلا آثار لا قيمة لها ، ومع هذا فلم تدع لغةُ الشمال هذه البقية دون أن تدخل عليها كثيراً من خصائصها ومفرداتها حتى ضاقت الهوة وأصبحت لا تعدو لهجة من لهجات لغة الشمال كما هو الحال فى لهجة بهرة .

جغرافية الجزيرة العربية :

يطلق العرب على بلادهم « جزيرة » مع أن الماء يحيط بها من الشرق والغرب والجنوب فقط ، أما فى الشمال فتوجد المساحة المعروفة ببادية الشام

(١) انظر فيليب حتى : تاريخ العرب ١ : ٣٨ و ٦٨ .

وأرض الجزيرة . ولعل إطلاق كلمة الجزيرة على بلاد العرب هو من باب التجوز أو لأن العرب فى رحلاتهم التجارية بين الشمال والجنوب وبين الشرق والغرب كانوا يصلون إلى شواطئ البحار فظنوا أو فاعتبروا أرضهم محاطة بالبحار من جميع النواحى وأطلقوا عليها كلمة « جزيرة » وكثيرون من المؤلفين المعاصرين يقولون « شبه الجزيرة » وضعاً للأمور فى نصابها .

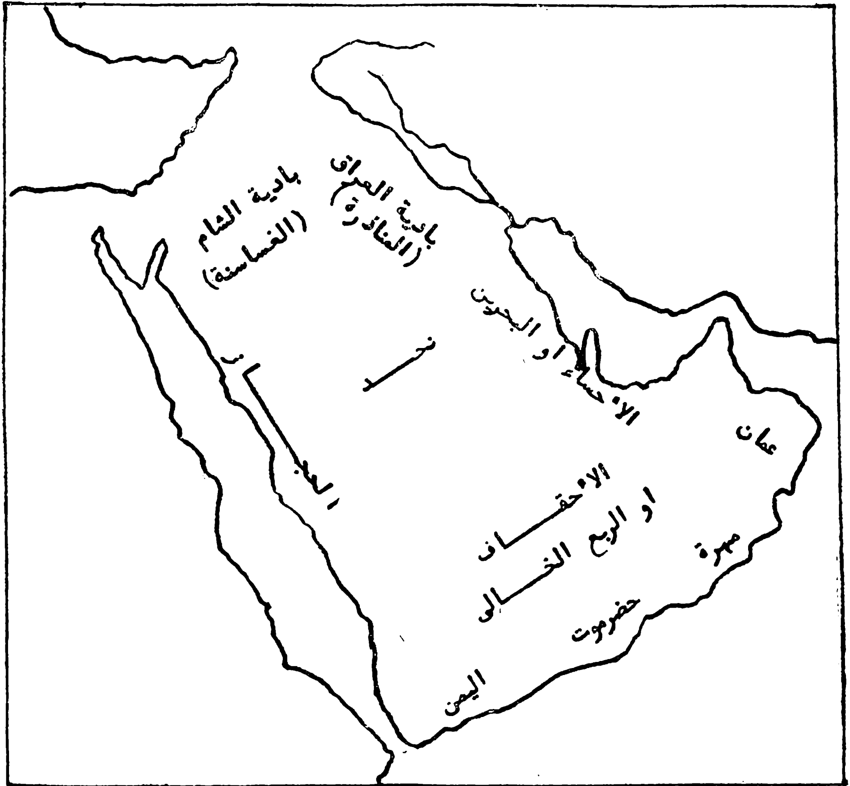
والذى ينظر إلى « الخريطة رقم ١ » يجد الجزيرة العربية على شكل مستطيل غير متوازى الأضلاع مع انبعاج فى قاعدة المستطيل الجنوبية ، ويحدّ الجزيرة بحر القلزم (البحر الأحمر) من الغرب والمحيط الهندى من الجنوب والخليج العربى (الخليج الفارسى) من الشرق ، أما فى الشمال فتحدها بادية الشام ولا تصل الجزيرة العربية إلى البحر الأبيض المتوسط إلا تجوزا كما سبق القول ، وطول الجزيرة العربية يزيد عن ألف كيلو متر وعرضها يبلغ نحو ألف من الكيلومترات .

وهذه المساحة الشاسعة يمكن أن نقسمها قسمين هما :

١ ــ قلب الجزيرة .

٢ ــ دائرها .

ويختلف كل من هذين القسمين عن الآخر من الناحية الجغرافية اختلافاً كبيراً فقلب الجزيرة يتكوّن من سلاسل من الجبال المرتفعة بينها بعض الوديان ، ولا تسقط عليها الأمطار إلا قليلا ، ومن ثمّ كان قليل السكان ، وكان سكانه رحّلاً يبحثون عن مساقط الأمطار أو منابع الماء ، ويبقون حولها يرعون العشب ويشربون الماء حتى ينفد العشب ويجف الماء ، وحينئذ يبحثون عن مكان آخر وهكذا ، وطبيعى أن قوماً كهؤلاء لم تكن لهم مساكن يأوون إليها ، وإنما كانوا يستعملون الخيام ، وكان الجمل عونهم الكبير فى تنقلاتهم ولذلك يسمى « سفينة الصحراء » أما الغنم فهى مادة حياتهم يشربون لبنها ويأكلون لحمها ويستعملون جلودها ملابس فى البرد ، ويصنعون من أصوافها خيامهم



(الخريطة رقم ١)

جغرافيــة جزيرة العرب

وملابسهم ، ويُسمَّى هؤلاء القوم « البدو » كما يُسمى قلب الجزيرة العربية « البادية » ولم تهيئ حياة البادية تلك للبدو أن يعملوا فى الزراعة أو الصناعة فهاتان من حرف الاستقرار الذى لم ينعم به سكان البادية .

وينقسم قلب الجزيرة العربية قسمين ، أحدهما فى الشمال ويطلق عليه « نجد » والآخر فى الجنوب ويطلق عليه « الأحقاف » أو « الربع الخالى » ، ومع قلة السكان فى نجد فإنهم أكثر نسبياً من سكان الأحقاف ، ولذلك يطلق على الأحقاف « الربع الخالى » لخلوه تقريباً من السكان ، وتختلف طبيعة الأرض فى نجد عنها فى الأحقاف ، ففى الأحقاف رمال تغوص تحت أقدام المسافرين وتبتلع مياه الأمطار إن نزلت عليها ، ولهذا كان هذا القسم قليل السكان . أما نجد فأرض صخرية ، ومن عوامل التحات والتعرية تكونت فى بعض الأنحاء بنجد طبقة زراعية من قشور الصخر الظاهرية وبقيت صخرية فى الداخل فلا تبتلع المياه التى تهبط عليها ، ومن ثم كانت نجد أكثر عمراناً من الأحقاف .

أما دائر الجزيرة العربية فهو عبارة عن شريط ضيق فى الغالب يمتد مع الشواطئ المحيطة بالجزيرة العربية ، وينفسح هذا الشريط قليلا عند التقاء البحر الأحمر بالمحيط الهندى فتتكون اليمن ، ودائر الجزيرة العربية يختلف عن قلبها اختلافاً ظاهراً ، فالأمطار تسقط على قلب الجزيرة بشكل منتظم تقريباً ضَمِنَ للناس نوعاً من الزراعة ومن ثم نوعاً من الاستقرار ، فقامت ممالك ومدن وقرى على الشاطئ ، وهى كما يتضح من الخريطة السابقة : الاحساء أو البحرين ـ عُمَان ـ مَهْرَة ـ حضرموت ـ اليمن ـ الحجاز ، وأهمها من ناحية الدراسة التاريخية المتصلة بنا اليمن والحجاز كما سبق القول .

وفى شمال الجزيرة العربية تكونت مملكتان سبق أن أشرنا إليهما وهما مملكتا الحيرة وغسان ، وكانت هاتان المملكتان حداً فاصلا بين الجزيرة العربية وبين دولتى الفرس والروم ، وقد تأثرت حياة المملكتين العربيتين

بالفرس والروم اعمق الصلة بين الحيرة وبين الفرس ، وعمقها كذلك بين الغساسنة وبين الروم كما سيأتى ، وهناك قبل الغساسنة قامت مملكتان ببادية الشام هما مملكة تدمر وعاصمتها تدمر ومملكة الأنباط وعاصمتها البتراء ، وعلاقة هاتين المملكتين بالدراسات الإسلامية أقل بكثير من علاقة الغساسنة بطبيعة الحال لأن ملك الغساسنة استمر حتى ظهور الإسلام ، ولكنا مع هذا لن نهمل هاتين المملكتين عند ذكر التفاصيل عن ممالك الجزيرة العربية .

نجد والأحقاف :

تحدثنا عن قلب الجزيرة العربية أو عن نجد والأحقاف من الناحية الجغرافية ، وعما ترتب على جغرافيتها من قلة الماء وقلة الزرع وقلة الاستقرار أو عدم الاستقرار ، وقلنا إنها يطلق عليها البادية ويطلق على سكانها البدو ، ولحياة البدو والبادية مظاهر خاصة نريد أن نسجل هنا أهمها :

وأهم ما يمتاز به البدوى أن نسبه صريح لم يدخله اختلاط ، وذلك لتعمقه فى الصحراء فى حياة لا تغرى أحداً بها ولا تجذب الأنظار إليها ، بل إنها مخيفة لا يستطيع الرواد أن يأملوا فى السلامة فيها إن اقتحموها ، ومن هنا بقى العنصر البدوى سليم النسب كما حدث فى مُضَر وكنانة وثقيف وغيرها(١) .

وكما ضمنت البادية سلامة النسب للبدو فقد ضمنت لهم أيضاً سلامة اللغة العربية عندما فسدت هذه اللغة فى مواطن الحضر بسبب الاختلاط الذى تمّ بين العرب وغير العرب ، وأصبحت البادية لذلك مدرسة يدخلها من أراد أن يتلقى اللغة الصحيحة (٢) .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٢٩ .

(٢) اقرأ ما كتبه المؤلف عن « البادية » فى كتابه « تاريخ التربية الإسلامية » ص ٧٨ وما بعدها واقرأ نماذج لفساد لغة الحضر فى عيون الأخبار لابن قتيبة والعقد الفريد وغيرهما .

وحياة البادية استلزمت العصبية ، إذ كانت هى وحدها وسيلة لحماية القبيلة من اعتداء الآخرين ، ولا يمكن أن يعيش فى البادية شخص أو أشخاص دون أن يكونوا أفراداً فى قبيلة يحمونها وتحميهم ، فإذا وُجِدَ شخص أو أشخاص قليلون فى البادية تخطفتهم القوى البدوية التى ترى من حقها أن تمتلك الضعيف وتأسره إلا أن يلجأ هذا الشخص إلى جوار قبيلة ، وحينئذ تحميه عصبية هذه القبيلة التى دخل فى جوارها[1] وقد ترتب على ذلك أن فقد البدوى شخصيته فأصبح فرداً فى قبيلة يثور معها عندما تثور دون أن يسأل : لماذا تثور[2] .

وإذا كانت القوة هى سلاح البدوى يعتدى بها على الضعيف دون سبب فإن الثأر هو أقرب ما يكون للعدالة فى البادية ، وقانون الثأر هو أنه إذا قتل رجل من قبيلة فرداً من قبيلة أخرى ، فإن الأخذ بالثأر يصبح لزاماً على أفراد المقتول ، فيحق لكل منهم أن يقتل من يصادفه من أفراد قبيلة القاتل ، ومن الواضح تبعاً لذلك أن قتل شخص من قبيلة كان يستدعى حروباً طويلة قد تمتد عدة سنوات لتعدد الأخذ بالثأر ، ولهذا ظهرت أيام العرب التى تصف حروبهم ومعاركهم التى كانت تشترك فيها أحياناً عدة أجيال ، مع أنها لم تقم فى بادئ أمرها إلا للأخذ بثأر شخص واحد[3]. وإنما قلنا آنفاً إن الثأر أقرب ما يكون للعدالة لأنه ناجم عن اعتداء سابق فهو قصاص غير منظم ، والثأر بالنسبة لحياة البادية أعدل من الاعتداء دون سبب الذى كان كثيراً ما يقع فى البادية كما ذكرنا آنفاً .

واحتراماً لحرمة الكعبة التى كان يفد إليها العرب حاجين أو معتمرين ، اتفق العرب على تحريم القتال والغارات فى شهور أربعة من السنة سميت

---

(١) اقرأ الفصل السابع من الباب الثانى من مقدمة ابن خلدون ص ١٢٧ .

(٢) اقرأ المجتمع الإسلامى للمؤلف ص ١٨ .

(٣) اقرأ أيام العرب فى الجاهلية للأستاذ جاد المولى وزميليه .

الأشهر الحرم ، وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرمُ وتلك شهور الحج ثم رجب وهو شهر تكثر العمرة فيه ، غير أن البدو كان يثقل عليهم أن يوقفوا الغارة ثلاثة شهور متتالية ، ولذلك كانوا كثيراً مايستبدلون بالمحرم صفراً فيحلون المحرم ويحرمون صفراً بدله ، وذلك مايسمى بالنسىء وكانوا يفخرون بذلك ، وفيه يقول شاعرهم :

ألسنا الناسئين إلى معد شهور الحل نجعلها حراما

وقد عاب القرآن عليهم ذلك قال تعالى : « إنما النسىء زيادة فى الكفر .... [1] » .

ويرى بعض الكتاب[2] أن تحريم القتال فى هذه الأشهر كان بسبب رغبة العرب فى الحد من سفك الدماء ، ورأيى أن التجاءهم للنسىء وشوقهم للغارة يعارض هذا القول ، ولذلك أميل إلى ما ذكرته آنفاً أن تحريم هذه الأشهر كان ذا علاقة بالحج ، واتخذ التحريم وسيلة لأمان التجارة والتنقل ، أما شهر رجب فقد حرموه لأنهم استطالوا الشهور التسعة فى الحرب والصراع وكساد التجارة ، ثم انتهزوا فرصة تحريمه فاعتمروا فيه .

والشجاعة من مستلزمات البادية فإذا كان الحضر قد ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة كما يقول ابن خلدون ووكلوا أمرهم فى المدافعة عن أموالهم وأنفسهم للحاكم . . . فإن أهل البدو قائمون بالمدافعة عن أنفسهم ، فهم دائماً يحملون السلاح ويتفردون فى القفر ، ولهذا صار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية[3] .

وإذا قارنا أخلاق البدو التى ذكرناها آنفاً بما يقابلها من أخلاق الحضر وأضفنا لها شظف الحياة فى البادية ولين العيش فى الحضر اتضح لنا ما يقوله

---

(١) سورة التوبة الآية ٣٧ .

(٢) انظر التاريخ السياسى للدولة العربية للدكتور ماجد ص ٥٠

(٣) المقدمة ص ١٢٥ .

ابن خلدون من أن البدو للحضر كالوحش غير المقدور عليه وكالمفترس من الحيوان[١] . ويبدو لى أن ابن خلدون وصف جانباً وترك جانباً آخر أكثر شيوعا فى العلاقات بين البدوى والحضر ، فالبدوى مع ميله للسلب أدرك أن السلب سينتج حرمانه لأن الحضر سيعملون على حماية أنفسهم منه ، ولذلك لجأ البدوى إلى أسلوب آخر للكسب من الحضر وذلك عن طريق العمل لهم والمقايضة معهم وغير ذلك من الأساليب السلمية وإن كان ذلك لم يضع حداً لأسلوب العنف الذى وصفه ابن خلدون .

وكان من نتيجة صفات البادية وصفات البدو التى أشرنا لها فيما سبق أن أصبح قلب الجزيرة مجهولا ، إذ أنه لم يجذب الرحالة إليه ، ولم يستطع أهل الحضر أن يجازفوا بدخول هذا المجهول ، ولم تزل كذلك إلى أن أتاحت لها الأقدار ، بعد ظهور محمد عليه الصلاة والسلام ، أن يقص أخبارها من نزح عنها من أهلها وأن يقف العالم على كثير مما كان العالم من قبل ذلك فى أتم الجهل به[٢]. وعلى هذا فمعرفتنا بالبادية لا تتعدى قرناً ونصف قرن قبل الإسلام كما سبق القول .

وكان من نتيجة صفات البادية أيضاً أن نجت الجزيرة العربية من الاستعمار فليس فى الصحراء القاحلة ما يجذب أنظار المستعمرين من الفرس أو الروم الذين كانوا يبحثون عن الصيد السمين كما يبحث البدوى عن مواطن العشب ، واكتفت إنجلترا أم الاستعمار فى العصر الحديث بالساحل تحرس به مصالحها البحرية حتى إذا ظهر الذهب الأسود فى جوف البادية بدأ الاستعمار يتطلع لها ويناوئ المملكة السعودية فى واحة البريمى ، ويتخذ له بعض الحقوق فى مطار الظهران نظير مال يغرى به .

على أن هؤلاء البدو استطاعوا أن يلعبوا دوراً هاماً فى تجارة العالم فى تلك

---

(١) المرجع السابق ص ١٢١ .

(٢) دكتور هيكل : حياة محمد ص ٧٤ .

الأزمان السحيقة ، فكما أن الطريق المائى عبر قناة السويس يلعب الآن دوراً هاماً فى تجارة العالم ويربط الشرق بالغرب ، فقد كان طريق القوافل فى العهد الجاهلى يلعب نفس الدور فى عهد لم تكن قناة السويس قد شُقَّت ، ولم تكن سفن ذلك العهد تستطيع استعمال البحر الأحمر المملوء بالجزر التى تجعل الملاحة خطرا عليها ، ومن عيوب الملاحة فى البحر الأحمر أيضاً أن شواطئه قليلة الموانئ وأن به كثيراً من الشطوط الضحلة التى كان اقتراب السفن منها أمراً محفوفاً بالخطر (١) . ولم تكن السفن كذلك تستطيع استعمال الخليج الفارسى لإشراف الفرس عليه وهم أعداء لسكان حوض البحر الأبيض المتوسط ، وعلى هذا أصبحت المواصلات البرية هى الطريق الهام للتجارة عبر البادية بين الشمال وبين الجنوب ، ثم بين الشرق وبين الغرب ، وقد حدد البدو أماكن للراحة والاستجمام على طول الطريق كانت بمثابة محطات يتزودون منها بالماء والزاد ، وكانت كذلك بمثابة مخازن يودعون بها بعض المتاجر لتلحق بقافلة أخرى عبر طريق آخر(٢) ، وسيأتى مزيد من الكلام عن هذا الموضوع عند الحديث عن تجارة قريش .

بقى أن نذكر كلمة عن نظام الحكم عند البدو ، فالبدو يعيشون فى الصحراء فى نظام قبلى ، والوحدة فى البادية هى القبيلة ، وهى وحدة كما ترى يربط بينها الدم والعصبية التى سبق أن تكلمنا عنها ، ويعتبر من أفراد القبيلة هؤلاء الضعاف أو العبيد الذين يلجئون للقبيلة ويعيشون فى جوارها وحمايتها ولو لم تكن بينهم وبين القبيلة صلة دم .

وأهم ما يمتاز به البدو هو عدم الخضوع ، فالحرية عند البدوى هى كل شىء ولا يستطيع أن يتنازل عن أى جزء منها لقاء أى شىء ، فما نعرفه فى العصر

---

(١) عصور الازدهار فى الجزيرة العربية : مقال للدكتور نقولا زيادة بمجلة القافلة (رمضان ١٣٧٨ هـ) ص ٢ .

(٢) انظر حياة محمد للدكتور هيكل ص ٧٢ .

الحديث من أن كل فرد يجب أن يتنازل عن جزء من حريته للحاكم ليدبر هذا الأمر لمصلحة الجميع ، كان البدوى يعتبره خدعة ولا يقبله ، والموت أو الهجرة عن الوطن أيسر على البدوى من فقدان حريته ، ولكن هناك بجانب ذلك أخلاق يجلُّها البدوى ويبدى لها إعجابه وهى الشجاعة والكرم والحلم ، فإذا وجد من يتمتع بنصيب أوفر من هذه الصفات قدمه البدو لمكان الرياسة فيهم واستجابوا لأوامره ونزلوا عند حكمه وقضائه ، بيد أن دوافع الحرية المطلقة والأنانية المفرطة والأثرة كانت كثيراً ما تتحرك فى نفوس البدو فلا يخضعون لحكم يصدره رئيس القبيلة ، إذ لم يكن لرئيس القبيلة سلطان يرغم به أفرادها على الخضوع لحكمه وكان للبدوى أن يتمرد على هذا الحكم ويهجر هذه القبيلة كلها .

وبينما نجد حقوق رئيس القبيلة محدودة هكذا نجد مسئولياته ضخمة ، فهو فى السلم جواد كريم مسئول عن إكرام الضيوف الوافدين وإغاثة المحتاج من أبناء القبيلة وإجارة المستجير ، وهو فى الحرب يتقدم الصفوف ويساعد من لا عتاد له .

وقد تطغى قبيلة على أخرى وتغلبها على أمرها فيخضع المغلوب للغالب لمدة قصيرة أو طويلة حتى يتاح للقبيلة المغلوبة من أبنائها من يشهر السيف فى وجه الغالبين ويكسب لقبيلته استقلالها . وقد يكون لرئيس القبيلة ابن يعدله فى الشرف والسؤدد وحينئذ يستطيع أن يرث مكانة أبيه ، وإذا تكررت رئاسة القبيلة فى بيت من بيوت القبيلة عرف هذا البيت بالمجد والجاه .

الحـــواضر

اليمن :

قلنا فيما سبق أن دائر الجزيرة العربية عبارة عن شريط ضيق يمتد مع الشواطئ المحيطة بالجزيرة العربية ، وينفسح هذا الشريط قليلا عند التقاء البحر الأحمر بالمحيط الهندى فتتكون اليمن ، ونضيف هنا أنه فى هذا الملتقى تكونت حضارة تعتبر أرقى حضارات الجزيرة العربية ، كما أنها ذات قيمة كبيرة بين الحضارات العالمية .

وقد اشتُقّ اسم اليمن من اليُمْن لأنها بلاد يمن وبركة وخير[1] إذا قيست بالصحارى القريبة منها ، وقد جاء اليُمْن إلى اليمن من خصوبة أرضها وهبوط الأمطار عليها هبوطاً منتظما ، وكذلك من مهارة أهلها بحيث استطاعوا أن يحفظوا هذه المياه من الضياع ، فأقاموا السدود وخزنوا بها المياه بين الجبال وخلف هذه السدود ، ثم من عوامل اليُمْن أيضاً لليمن موقع هذه البلاد بحيث أصبحت ملتقى الرحلات البحرية التى تأتى من الهند ومن إندونيسيا والصين بالرحلات البرية على ظهور الجمال التى تبدأ من اليمن فى أقصى جنوب الجزيرة وتسير إلى الشام فى شمال الجزيرة ، وعلى هذا أصبحت اليمن سوقا هامة تعرض بها البضائع التى ترد من الرحلات البحرية والبضائع التى تعود بها قوافل الجمال من الشمال . وسيأتى مزيد من الكلام عن الحركة التجارية بالجزيرة فيما بعد .

وموقع اليمن هذا حرمها مما سبق أن ذكرناه كميزة للبادية وهو نقاء العنصر وسلامة النسب ، فقد استقبلت اليمن عناصر مختلفة من الناس ، وجذبت أسواقها تجارا من بقاع مختلفة من الجزيرة ومن خارج الجزيرة وكان بعض هؤلاء التجار يقيمون بها مددا قصيرة أو طويلة فاختلطت

---

(١) انظر ياقوت : معجم البلدان كلمة « يمن » وانظر كذلك مادة «Yaman» فى Ency of Islam

الأنساب باليمن كما اختلطت اللغة ، وكثيرون من هؤلاء جاءوا عبر باب المندب من أفريقية وبعضهم جاء من الهند أو من جزر الهند الشرقية (إندونيسيا الآن) وبعضهم جاء كذلك من سوريا مع التجارة الهابطة من الشمال وتم بين هؤلاء وبين القحطانيين سكان البلاد الأصليين روابط مصاهرة ، كما عاد بعض التجار اليمنيين والحضارمة الذين كانوا يرافقون تجارتهم إلى الهند وإندونيسيا ومعهم زوجات من هذه البقاع ، وعلى هذا لا يبعد أن نتصور سوق اليمن وبها خليط من الأجناس وخليط من الحضارات وخليط من اللغات .

وغنى اليمن جلب إليها نوعا من نظم الحكم لم يعرفه سكان البادية وسبب ذلك أن الناس ، كما يقول Kirk[1] ، كانوا قبل الاهتداء إلى الزراعة يعيشون على حالة البدو المزعزعة فى جماعات صغيرة متناثرة ، وكانوا لا يجدون وسيلة لسد حاجات معيشتهم إلا عن طريق الشيوع ، فلما نمت الحضارة الزراعية ووجد فائض عن الحاجة أعطى هذا الفائض إلى قوم امتازوا عن الباقين بميزة كرجال الدين أو قادة الحروب . . . وهذا ما حدث فى اليمن فقـــد كان الإنتاج أكثر مما يستهلك ، وبذلك وجدت طبقة من الحكام ذوى الغنى واليسار والقوة وظهرت فى اليمن ألقاب الملك والسلطان ، وكانت هذه الألقاب تتناسب مع رقعة الملك ، فهناك من يسمى « ذو » وهناك من يسمى « قَيْل » وهناك أيضاً « الملك » وهى متدرجة إلى أعلى فى معانيها ، وفى عهود الضعف كان يكثر الانحلال والتفكك ويظهر ما يسمى بالمخاليف ، فلكلِّ رئيسٍ مخلافٌ يضيق أو يتسع بحسب قوته ، أما فى عهود القوة فكانت تظهر الممالك التى كانت تذوب فيها المخاليف أو كانت تندمج فيها إذا لم تذب هذه المخاليف نهائياً[2] ، كما كانت هذه الممالك تمتد أحياناً فتشمل حضرموت ، وأهم الممالك الكبيرة

(١) A Short History of the Middle East p. 7 ترجمة عمر الإسكندرى .

(٢) يروى الطبرى (١ : ٣٤٧) أن بلقيس عندما سارت إلى سليمان أخذت معها مئات من الأقيال ، فالمخاليف هنا اندمجت فى مملكة سبأ ولم تذب نهائيا فيها .

التى قامت باليمن مملكة معين ومملكة قتبان ومملكة سبأ ومملكة حمير ، والمعلومات التى لدينا عن المملكتين الأوليين قليلة ، وكانت المملكتان متعاصرتين وكانت معين فى الشمال وقتبان فى الجنوب منها ، وقد نشأت معين فى أواخر الألف الثانى ق م (حوالى ١٢٠٠ ق م) وقد ظلت حتى قامت سبأ فاستنقصت أرضها ولم يبق منها فى القرن السابع ق م إلا جزء يسير . أما قتبان فقد بدأت حوالى أوائل الألف الأول قبل الميـلاد (١٠٠٠ ق م) وكان لها الإشراف على باب المندب ، وقد ورثتها سبأ أيضا كما ورثت دولة معين .

مملكة سبأ :

لمملكة سبأ شهرة واسعة سنتحدث عنها فيما بعد ، ولكن هذه الشهرة تتصل بالدولة عند نهضتها ، أما المعلومات التى بين أيدينا عن نشأتها فقليلة ، ويبدو منها أن مملكة سبأ بدأت على إثر ما انتاب دولة معين من ضعف ، وعاصرت سبأ كلا من معين وقتبان وكانت سبأ فتية ناشئة فى وقت كانت كل من معين وقتبان يبدو عليهما الهرم وتؤذنان بالزوال ، وقد استطاعت سبأ أن تفسح حدودها على حساب كل من هاتين الدولتين حتى ورثتهما نهائيا فى آخر الأمر ، كما ضمت لها حضرموت ، وقد بدأت سبأ فى منتصف القرن العاشر ق م (٩٥٥ ق م) تقريبا وظلت حتى سنة ١١٥ ق م ، وكانت عاصمتها مأرب .

وترجع شهرة سبأ إلى سببين كبيرين أولهما ملكتها بلقيس وقصتها مع النبي سليمان والهدهد[١] وثانيهما سد مأرب الشهير ، فقد كانت الأمطار تهطل على اليمن ثم تنحدر إلى البحر فلا ينتفع بها إلا فى موسم نزولها ، وكان لمملكة سبأ فن فى العمارة ، فعمد المهرة فى فن العمارة إلى مكان ضيق يوشك أن يلتقى عنده جبال ثلاثة وفى هذا المضيق أقام هؤلاء سداً عظيما هو سد مأرب الشهير ، وكانت فائدة هذا السد مزدوجة ؛ فقد احتفظوا

(١) انظر سورة النمل ٢٠ - ٤٤ و انظر الطبرى ج ١ ص ٣٤٥ - ٣٥٠ .

بواسطته بالماء لينتفعوا به وقتما يشاءون فكثرت بذلك الزراعة وتعددت مراتها كل عام ، ثم تحكَّم هذا السد فى السيول التى كانت تقضى بالغرق والإتلاف على المزارع والقرى التى تقع فى المنخفضات ، فكانت نتيجة هذا السد أن كثر الرخاء باليمن وعمت الخيرات .

ولكن مثل هذا السد يحتاج إلى عناية وتجديد مستمر ، بيد إن فترة الضعف التى نزلت بالمملكة فى آخر أيامها شغلتها عن رعاية السد فبدأ يضعف وقلت مقاومته للسيول الجارفة وبخاصة سيل العرم الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم(١) ، فقد بدَّل هذا السيل الحياة فى اليمن فهاجر كثير من السكان إلى الشمال وآذن ذلك بسقوط المملكة وقيام مملكة حمير .

مملكة حمير :

على إثر الضعف الذى انتاب مملكة سبأ بدأت قبائل حمير تكوِّن لها نفوذا وسلطانا فى اليمن ، وكان ذلك فى المائة الثانية قبل الميلاد ، ولما سقطت دولة سبأ سنة ١١٥ ق م استكمل ملوك التتابعة الحميريون نفوذهم ، وأصلح هؤلاء الملوك ما فسد من نظم الزراعة والسدود وأصبح لهم جاه وسلطان عظيم حتى ليقال إنهم ساروا بجيوشهم محاربين مهددين حتى وصلوا العراق والبحرين(٢) .

وآن الأوان لهذه الدولة أن تهرم وأن تتهادى ، فقلت العناية بالسدود وبخاصة سد مأرب الذى كان قد ضعف منذ عهد سبأ ، وكانت نتيجة هذا الإهمال أن انكسر السد فجرفت السيول مزارع القوم وبساتينهم(٣) وخلَّف انكسار السد أرضا تحتاج للماء فى الشمال وأرضا

---

(١) سورة سبأ الآية السادسة عشرة .

(٢) المعارف ص ٣٠٧ .

(٣) فى رأى ياقوت (معجم البلدان ٤ : ٣٨٣) أن تصدع السد كان فى عهد الأحباش ، والظاهر كما شرحنا أن السد ضعف أمام السيول عدة مرات وفى كل مرة كانت تطغى السيول على جماعة فتهاجر وهكذا .

غارقة به فى الجنوب ، وكان ذلك إيذانا بالهجرات الواسعة التى قام بها سكان اليمن إلى الحجاز وغيره فى شمال الجزيرة ، وكان ذلك أيضا إيذانا بضعف اليمن الذى أدَّى إلى تدخل الفرس والروم رجاء احتلال البلاد السعيدة ، وسنتكلم فيما بعد عن الصراع على اليمن من الدول المحتلة .

وقد خلفت سبأ وحمير آثاراً تدل على العظمة والرقى ، وهى تشمل كثيراً من الأطلال والنقوش ، كما كان لهما أسطول ضخم ينقل البضائع بين موانى اليمن وموانى الهند والصين والصومال وسومطرة بحيث كانت التجارة شبه احتكار فى يدها[١] . ومن اليمن كانت التجارة تصعد إلى الشمال بقوافل برية تسيطر عليها اليمن أيضا قبل أن ينتقل مركز هذه القوافل إلى مكة كما سيأتى بعد ، ويظهر أن سبأ فى إبان عظمتها التجارية كانت تسيطر على طرق النقل التجارية التى تجتاز الحجاز متجهة شمالا حتى موانى البحر المتوسط ، وكان لها مستعمرات أنشئت على هذه الخطوط . ويرى الدكتور حتى أن بلقيس لم تكن ملكة على بلاد اليمن وإنما كانت ملكة على أحد معاقل سبأ ومراكزها التجارية سالفة الذكر[٢] . وقد كان تجار اليمن من الذكاء لدرجة أنهم حافظوا على أسرار تجارتهم فلم يعرف أهل الشمال مصادر كثير من البضائع التى كانت ترد إلى اليمن من الهند وإندونيسيا والصين وغيرها حتى ظن بعض مؤرخى اليونان والرومان أن جميع هذه البضائع كانت من إنتاج اليمن[٣] .

اليمن فريسة الاستعمار :

كان الهدف الرئيسى للتسابق بين الفرس والروم على احتلال اليمن

---

(١) انظر Periplus of the Erythraean Sea. Translated from Greek. نقلا عن الدكتور ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ١ : ٧٣ .

(٢) فيليب حتى : تاريخ العرب ١ : ٥٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٥٩ — ٦٠ .

هو السيطرة على هذا الموقع الهام والانتفاع بالمميزات الطبيعية باليمن من خصوبة أرض وأمطار ، ولكن هذا الهدف الرئيسى توارى – كعادة دول الاستعمار – خلف أسباب أخرى ثانوية كما سيأتى بيانه .

قلنا إن الحميريين كانت لهم السلطة فى اليمن منذ ١١٥ ق م وجاء المسيح وانتشر الدين المسيحى ولا تزال للحميريين السلطة والملك فى اليمن ، ثم ضعفت حمير كما قلنا وكان ذلك فى القرن الخامس الميلادى وما يليه ، وكان ملك حمير فى هـــذه الأثناء اسمه ذو نواس وكان قد اعتنق اليهودية[١] ، وفى الوقت نفسه كانت المسيحية قد انتشرت فى نجران شمال اليمن ، وقد جاءت المسيحية من الحبشة ، وبسبب التعصب الدينى من جهة ومن جهة أخرى بسبب خوف الحميريين أن يمتد نفوذ الحبشة إلى بلادهم عن طريق المسيحيين بنجران ، بسبب هذا وذاك خيَّر ذو نواس مسيحى نجران بين اعتناق اليهودية أو الموت فاختاروا الموت ، فحفر لهم أخدودا وأفناهم بين حرق وقتل[٢] .

وقد فرَّ من أهل نجران رجل وذهب إلى الحبشة يستنصر بالنجاشى المسيحى ضد ملك حمير اليهودى الذى أوقع باليهود وحرق الإنجيل ، فاستجاب النجاشى للرجل وأرسل النجاشى إلى قيصر الروم حامى المسيحية يخبره بذلك ويطلب منه بعض السفن لنقل الأحباش إلى بلاد اليمن ، وفى رواية أخرى أن المسيحى الفارَّ ذهب إلى قيصر يستنصره فأرسل القيصر للنجاشى أن ينوب عنه فى الدفاع عن المسيحية وأمده القيصر بالسفن . وعلى كل فقد قامت حملة اشترك فيها قيصر بالسفن وحليفه النجاشى بالرجال ،

---

(١) تسربت اليهودة إلى اليمن بسبب الاتصال الذى تم بين ملوك اليمن ويهود الشمال فى أثناء رحلات قام بها هؤلاء الملوك للشمال . (انظر كتاب الأصنام لابن الكلبى ص ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ٥٨) .

(٢) انظر سورة البروج ٤ – ٧ وانظر للطبرى حـ ١ ص ٥٤٤ .

بقيادة إرياط ، وقد استطاع هذا الجيش أن ينتصر على الحميريين ، ورأى ذو نواس هزيمته فاقتحم البحر بفرسه فغرق ، وأصبحت اليمن تابعة للحبشة ، وأرسل إرياط إلى النجاشي السبايا والغنائم(١)

ولم يخلص الأمر طويلا لإرياط فقد تمرد عليه أبرهة أحد مساعديه ، ثم تبارز إرياط وأبرهة ولكن إرياط سقط فى المبارزة بغدرة دبرها له أبرهة بأن أكمن عبداً له ضربه من الخلف ضربة قتلته وخلص بذلك الأمر لأبرهة(٢) . وعندما كان عبد المطلب بن هاشم سادن الكعبة كان أبرهة صاحب النفوذ فى اليمن ، وبعد أبرهة حكم ولداه يكسوم ثم مسروق وفى عهد مسروق غلب الفرس على اليمن وأخرجت الأحباش منها كما سيأتى وقد دامت مدة الأحباش باليمن اثنتين وسبعين سنة(٣)

وكانت الفرس تنقم على الأحباش والروم استعمار الحبشة ، وحانت الفرصة لِتَدَخُّل فارس ، فإن أحد أولاد ملوك حمير اسمه سيف بن ذى يزن فرّ إلى الفرس يطلب النجدة والعون لإخراج الأحباش من بلاده واستجابت الفرس وأرسلت جيشاً إلى اليمن بقيادة وَهْرِز وانتصر وَهْرز هذا وتعاون هو وسيف على القضاء على الأحباش ، ولما تم انتصار الفرس أمر كسرى أن يتوَّج سيف بن ذى يزن ملكاً على اليمن(٤) وأن يعود وهرز إلى فارس ،

---

(١) يختلف المؤرخون فى ذكر تاريخ استعمار الحبشة لليمن وفى المدة التى قضاها الأحباش هناك ، فبينما يذكر الطبرى أن الاستعمار بدأ سنة ٥٢٥ واستمر ٧٢ سنة كما سيأتى يذكر بروكلمان (دون أن يثبت مصدراً) أن الاستعمار بدأ سنة ٥٣٠ واستمر ٤٠ سنة ، ورواية الطبرى أوضح لأن مولد الرسول حصل فى عام الفيل فى أثناء حكم أبرهة سنة ٥٧١ وإن كان بروكلمان ينكر ذلك (انظر تاريخ الشعوب الإسلامية ١ : ١٥ ، ٣٤) .

(٢) المرجع السابق ص ٥٤٨ .

(٣) المرجع السابق ص ٥٥٨ .

(٤) وقيل إن الذى توج هو معديكرب بن سيف لأن الأخير كان قد مات قبل زحف الجيش الفارسى .

ولكن هذا الملك قتل بعد قليل ، قيل قتله من استبقاهم عبيداً له من الأحباش ويقال إنه قتل بتدبير الفرس ، وبعد قتله أرسل كسرى وهرز ليكون حاكماً لليمن تابعاً للفرس وبعد وهرز حكم أبناؤه وأحفاده : المرزبان بن وهرز ثم البينجان بن المرزبان ثم خرَّ خُسرَه بن البينجان ، ثم غضب كسرى على هذا فعزله وعين باذان على اليمن ، وعند بعثة محمد صلوات الله عليه كان باذان حاكماً لصنعاء من قبيل فارس(١) . وكان بجواره باليمن وحضرموت أقيال وملوك من العرب ، وقد دخل باذان فى الإسلام عند ما دعى إليه .

الحيرة وغسان :

كانت مملكة الفرس من جهة ومملكة الروم من جهة أخرى معرضتين لهجمات بعض القبائل العربية التى كانت تعيش فى شمال الجزيرة ، وكانت هجمات هذه القبائل سريعة ، يختطفون خلالها ما يستطيعون الحصول عليه ، ثم يفرون عائدين فيتوغلون فى قلب الجزيرة حيث لا تستطيع جيوش الروم ولا جيوش الفرس أن تتبعهم خوفاً من وعورة الطريق وقلة المياه .

ولهذا عمد الفرس كما عمد الروم أن يقيموا حاجزاً بينهم وبين العرب ، وكان ذلك الحاجز عبارة عن بعض القبائل الغربية ، تألَّفها الفرس والروم وأسكنوها فى شمال الجزيرة وجنوب الفرس وأمد الروم هذه القبائل بعون من السلاح والمال . وكانت هذه القبائل تعرف مسالك الجزيرة وتستطيع الوقوف فى وجه هجمات العرب ، وبهذا تكونت مملكة بالحيرة تحمى الفرس ويحميها الفرس . وتكونت مملكة بغسان تحمى الروم ويحميها الروم ، وكانت المقدرة على رد هجمات العرب من أبرز الصفات التى يلزم أن تتوفر فيمن تسند له السيادة فى كل من الحيرة وغسان . يروى أن كسرى عندما أراد أن يسند ملك الحيرة إلى النعمان بن المنذر سأله : أتكفينى العرب ؟ فأجاب النعمان : نعم . قال

---

(١) الطبرى ج ١ ص ٥٦٥ .

كسرى : كلَّها ؟ فأجاب النعمان : نعم كلها . فاستطرد كسرى قائلا : كيف بإخوتك ؟ فأجاب النعمان : إن عجزت عنهم فأنا عن غيرهم أعجز . فملَّكه كسرى وخلع عليه(١) .

وهناك سبب آخر استدعى قيام مملكتى الحيرة وغسان ، هو أن الروم أرادوا أن يستعينوا بالعرب فى حروبهم ضد الفرس ، فلجأ الفرس إلى نفس الحيلة ، وقربوا بعض القبائل العربية إليهم واستعملوهم على حدودهم ليقف العرب فى وجه العرب وليكونوا عوناً لحلفائهم ضد أعدائهم ، وسنتكلم عن كل من هذين المملكتين كلمة قصيرة :

مملكة الحيرة :

لتكوين مملكة الحيرة ظروف خاصة بجانب ما أوضحناه آنفاً ، وتلك الظروف تتصل بالحالة ببلاد فارس عند قيام هذه المملكة ، وخلاصة ذلك أن الإسكندر المقدونى – عملا بنصيحة أستاذه أرسطو – قسم بلاد الفرس إلى دويلات وجعل على كل منها ملكاً له جيش ووزراء ليضمن الإسكندر بذلك تفريق الكلمة وضعف القوة ، وكان للاسكندر ما أراد ويسمى هذا العهد « عهد ملوك الطوائف » وقد استمر من سنة ٣٣٢ ق م إلى سنة ٢٣٠ م

وفى خلال هذا العهد كانت هجرة عرب الجنوب بسبب سيل العرم ، وقد استطاعوا بسبب ضعف ملوك الطوائف أن يكوِّنوا لهم ملكاً فى منطقة الحيرة لم يكن قوياً ولكنه لم يكن أضعف من ممالك الطوائف .

ثم ظهر سنة ٢٣٠ أردشير بن بابلك واستطاع أن يعيد للبلاد وحدتها وأن يخضع هذه الممالك لسلطانه ويزيل هؤلاء الملوك ويكوِّن الدولة الساسانية ، ولم يجد أردشير بداً من إخضاع مملكة الحيرة كما أخضع سواها

---

(١) جاد المولى وزميلاه : أيام العرب فى الجاهلية ص ١٣ .

من ممالك الطوائف ، ولكن للاعتبارات الخاصة بالعرب التى سبق إيرادها أبقى على مملكة الحيرة واكتفى بخضوع ملوكها إليه ، وبأن يتولى هو تعيين هؤلاء الملوك ؛ ومن أشهر ملوك الحيرة عمرو بن عدى والمنذر بن ماء السماء والنعمان بن المنذر ، وقد غضب كسرى على النعمان هذا لأنه أنف أن يزوج بناته وإخواته من كسرى وأولاده ، فتوعده كسرى وطلبه ، ولكن النعمان هرب ثم سلم نفسه فألقاه كسرى فى السجن حتى مات[١] . وبعد النعمان عين كسرى إياس بن قبيصة على الحيرة ، ولم يُفْرِدْه بالحكم وإنما أشرك معه رجلا فارسياً اسمه « النخيرجان » وفى هذا العهد قدم خالد بن الوليد إلى الحيرة يقود جيش المسلمين ، فصالحه إياس على الجزية وكان ذلك سنة ١٢ هـ[٢] ثم دخل الناس بعد ذلك فى الإسلام .

مملكة غسان :

هناك تشابه بين قيام مملكة الحيرة ومملكة غسان من عدة وجوه ، فبينما كانت فارس تمر بفترة ضعف فى عهد ملوك الطوائف كانت الروم تجتاز أيضاً فترة اضطراب تسمى عهد الفوضى العسكرية[٣] ، والفوضى هنا وهناك كانت أثراً لزحف الإسكندر المقدونى السريع الذى لم يعقبه استقرار . وفى القرن الثالث الميلادى عاد الاستقرار إلى فارس كما رأينا ، وفى نفس هذا القرن (٢٨٦ م) انتهى عهد الفوضى العسكرية بالروم . وعندما هاجرت قبائل من اليمن واستقرت بالحيرة هاجرت قبائل أخرى من اليمن واستقرت ببادية الشام . وكما اتخذ الفرس عرب الحيرة درعاً يتقون به

---

(١) اقرأ القصة كاملة فى « أيام العرب فى الجاهلية » لجاد المولى وزميليه ص ٦ — ٣٩ .

(٢) الطبرى جـ ٢ ص ٥٥١ — ٥٥٢ .

(٣) Wella A Short History of the World الترجمة العربية ص ١٥٢ .

هجمات البدو ويقوون به ضد الروم ومعاونيهم من العرب فقد اتخذ الروم عرب الشام لنفس الغرض كما سبق القول .

ولعل أول القبائل التى حظيت بهذه المكانة فى بادية الشام هى قبيلة الضجاعمة وقد مكثت هذه القبيلة مدة طويلة تلى أمر العرب فى هذه البقاع وولى الرومان عليهم ملكاً منهم ، ومن أشهر ملوكهم زياد بن الهبولة[١] .

وقبيل نهاية الضجاعمة كانت هناك قبيلة بنى جفنة تنزل ببادية الشام حول بئر ماء اسمه « غسان[٢] » وقد عرف بنو جفنة لذلك بالغساسنة ، ولما أدرك الغساسنة ضعف الضجاعمة استولوا على السلطة فى بادية الشام وأقرهم الرومان على ذلك واختاروا منهم ملك العرب ، واتسع ملكهم وكانت جلّق عاصمة لهم وهى التى تسمى دمشق الآن . ومن أشهر ملوكهم الحارث بن جبلة والمنذر بن الحارث وجبلة بن الأيهم ، وهو آخر ملوك الغساسنة ، وفى عهده دخل المسلمون بلاد الشام ، ويقال إن جبلة دخل الإسلام ثم ارتدّ بعد ذلك وهرب إلى الروم فى حادثة مشهورة فى عهد عمر بن الخطاب .

وكان ملوك الحيرة وغسان بوصفهم من سلالة يمنية يحتفظون فى مظاهرهم وحضارتهم بعناصر يمنية ، وأبرز مثال لذلك القصران العظيمان اللذان بناهما ملوك الحيرة محاكين بهما قصور اليمن ، وهذان القصران هما الخورنق والسدير » ، على أن أهم دور لعبته هاتان المملكتان هو أنهما كانتا جسراً عبرت عليه ألوان من حضارة الفرس والروم إلى الجزيرة العربية ، وأهم هذه الألوان الحضارية هى الأديان وضروب من المعارف العامة والقراءة والكتابة والفنون الحربية وغيرها .

الأنباط وتدمر :

وقبل أن نترك دول الشمال نتكلم كلمة قصيرة عن مملكتى الأنباط

---

(١) الحضرى : تاريخ الأمم الإسلامية جـ ١ ص ٣٤ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان جـ ٦ ص ٢٩٢ .

وتدمر ، والأنباط أو النبطيون قبائل بدوية نزحت من الأرض المعروفة اليوم بأرض « شرق الأردن » ونزلت جنوب سوريا وكوّنوا لهم مملكة امتدت من غزة شمالا حتى العقبة جنوباً ، وعلى هذا اتخذت هذه المملكة مكاناً هاماً فى طريق التجارة بين الشمال والجنوب ، وكانت لهم إتاوة على التجارة الصاعدة والهابطة .

وعاصمة الأنباط مدينة « البتراء » أو « بطرة » وهى مدينة شهيرة فى بلاد العرب حتى اليوم ، تمتاز بأنقاضها الفخمة وبخاصة أنقاض المعبد الذى كان به الآلهة التى يعبدها سكان الأنبـــاط ، ولا تزال أعمدته الشاهقة شاهد صدق على ما وصلت له البتراء من حضارة ورقى .

وقد بدأت دولة الأنباط فى حوالى القرن الرابع ق م ولكنها بلغت غاية مجدها فى القرن الأول الميلادى حيث امتدت إلى دمشق التى أصبح حاكمها والياً تابعاً لملك الأنباط ، وهذا الوالى هو الذى حاول القبض على بولس الرسول ، يقول بولس : « فى دمشق وإلى الحارث الملك الذى يحرس مدينة الدمشقيين يريد أن يمسكنى ، فتدليت من طاقة فى زنبيل من السور ونجوت من يديه[١] » .

وامتدت الأنباط فى نفس القرن جنوباً حتى مدائن صالح (الحِجر) فى شمالى الحجاز[٢] .

وفى عهد الرومان بقت مملكة الأنباط على صلة طيبة بهم وتحالفت معهم حتى مطلع القرن الثانى الميلادى ، ويبدو أن أباطرة الرومان خافوا من التوسع الذى وصلت له الأنباط ، وخافوا من أن تصبح هذه المملكة منافساً لهم ولذلك هاجمهم الامبراطور تراجان «Traianus» ودمر عاصمتهم سنة ١٠٥ وضم بلادهم لامبراطوريته وأصبحت مملكة الأنباط مقاطعة فى

(١) رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس ، الاصحاح الحادى عشر : ٣٢ – ٣٣ .
(٢) انظر فيليب حتى : تاريخ العرب ١ : ٩٠ .

الإمبراطورية الرومانية ولذلك كان يطلق عليها « المقاطعة العربية » وكان ذلك فى العام التالى لتهديم البتراء .

ومن أشهر ملوك الأنباط الحارث الثالث (٨٥ – ٦٠ ق م) ويسميه اليونان Arethas وعبيدة الثانى (٢٨ – ٩ ق م) ويسميه اليونان Obudas والحارث الرابع (٩ ق م – ٤٠ م) وهو عصر المسيح وفيه امتدت الأنباط إلى دمشق كما سبق القول .

واصطلحت عوامل متعددة أضعفت من شأن البتراء ومن شأن مملكة الأنباط وأهمها اتجاه أهل الملاحة من الرومان إلى السفر بحراً إلى الهند وتحول خط القوافل بين الشرق والغرب إلى منطقة شمالية ، وهذا التحول أضعف من شأن البتراء ورفع تدمر المدينة التى كانت عاصمة مملكة تدمر فى الشمال من دمشق[١] ، ولما سقطت مملكة الأنباط أذّن ذلك برقى شأن تدمر .

وتدمر هى باليونانية (بالميرا) وهى عريقة فى القدم ، ولا يُعرف بالضبط تاريخ هجرة العرب إليها ، ويبدو أن ذلك كان فى وقت مبكر جداً ، وقد ورد لها ذكر قبل الميلاد بأكثر من ألف عام ولكن شهرتها ترجع إلى المجد الذى حققته فى القرنين الثانى والثالث بعد المسيح ، فقد استطاعت مملكة تدمر أن تقف موقف الحياد بين جارتيها القويتين : الفرثيين (الإيرانيين) وبين الرومان ، وقد انتفعت بهذا الحياد انتفاعاً كبيراً ونالت عون الدولتين ، ثم كان لموقعها الجغرافى وما بها من مياه معدنية ما سبب لها الرخاء والمجد .

وتدل بعض النصوص الأثرية على أن تدمر ارتبطت سياسيا بالرومان منذ القرن الميلادى الأول ولكنها لم تفقد استقلالها الداخلى وظلت تدير شئونها بنفسها ، وبحكم هذا الارتباط بالرومان خاضت تدمر حروبا

---

(١) فيليب حتى : تاريخ العرب ص ٩٦ .

مدمرة ضد الفرس كتب لتدمر النصر المؤزر فيها وردت شابور الأول إلى عاصمته بعد أن كان قد استولى على جزء كبير من أرض الشام ، وكان ملك تدمر آنذاك أذينة (٢٦٥ م) وقد منحه إمبراطور الرومان لقب « إمبراطور الشرق » اعترافا له بخدماته ونجاحه ، وبسط أذينة سلطانه على سوريا كلها ، وبعد أذينة تولت الحكم زوجته زنوبيا وصية على ابنها القاصر ، ولكن زنوبيا تحدت الرومان وصارعتهم ، ولكنها انهزمت فى نهاية الصراع ودخل الإمبراطور أورليانوس مدينة تدمر ودمرها وأسر الملكة العربية البطلة ، ولكن الأقاصيص سارت ببطولتها عبر البوادى والحواضر(١) .

وكانت مَدَنيَّة تدمر مزيجا من اليونانية والسورية والفرثية وهذه المدنية تبين ذرى الثقافة التى يستطيع العرب من أهل الباديَة أن يبلغوها إذا ما تسنت لهم المهيئات ...... ومن ينعم النظر فى أطلال تدمر الباقية يفقه سر تلك المدنية الزاهرة ، ويتبين أن بناء المدينة جاء وفقا لتصاميم وضعها لهــا جماعة حذاق مهرة فى هندسة البناء . وقد حملت إليها حجارة ضخمة من الغرانيت من شلال النيل الأول بمصر ، وكان يحفُّ بشارع المدينة الرئيسى نحو ٧٥٠ عمودا كورنثيا من الحجر الكلسى الأبيض الوردى ارتفاع كل منها نحو ٥٥ قدما ، وكان أول الشارع العظيم قريبا من قوس النصر الذى رفعوه إلى جانب هيكل معبودهم الأكبر « شمس » ولا يزال هيكل الشمس وبعض الأعمدة قائمة حتى الآن(٢) .

الحجاز :

الحجاز هو الموطن الأول للدعوة الإسلامية ، فيه ولد الرسول وعلى أرضه خطا ، وهو منزل الوحى ومشرق النور ، نقل الإسلامُ الحجازَ

---

(١) انظر بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ١ : ٢٢ .

(٢) فيليب حتى : تاريخ العرب ١ : ١٠٠ - ١٠١ .

من مكان مغمور إلى مركز حضارة تشع وتنتشر فى العالمين ، ومن الحجاز انطلقت صيحة الإصلاح ودعوة الإسلام ولا تزال تحثُّ السير فى الآفاق توقظ الهاجع وتهدى الضال ، تنقذ الملايين من عبادة الأحجار وعبادة الاشخاص وعبادة الأشجار ، ترد لهم الهدى وتوجهم إلى عبادة الله الخالصة وإلى التوحيد المطلق الصافى ، وتمدهم فى شئون دنياهم ودينهم بما يكفل لهم السعادة ويزيل عنهم غبار الجاهلية التى غطت الفكر العالمى أو وجَّهته وجهة خاطئة .

وقد نقل الإسلام الحجاز من مكان عربى إلى مكان إسلامى أو قل عالمى ، وجدير بالحجاز الذى نبت فيه محمد أن يصير كذلك ، فالنور الذى جاء به محمد لا يعرف وطناً ولا حدوداً ، إنه نور انتفعت به بقاع كثيرة من العالم ولا تزال تنتفع ، بل ربما جاز لنا أن نقول إن قسط الحجاز نفسه فى الانتفاع بمدنية الإسلام لا يرتفع إلى قسط سواه ، وذلك يرجع طبعاً إلى عوامل دخيلة ستتضح فى ثنايا هذا الكتاب .

والحجاز من الحواضر كما قلنا فيما سبق . ولكنه يمتاز على غيره من الحواضر بأنه حافظ على استقلاله ، فإذا كانت جيوش الأحباش والفرس قد وطئت اليمن وإذا كان نفوذ الفرس والروم قد امتد إلى الحيرة وغسان ، فإن نفوذا أجنبيا لم يستطع أن يتعمق فى قلب الجزيرة ويصل إلى الحجاز ، ولعل ذلك يرجع لموقع الحجاز فى الجزيرة ولحرص العرب على استقلال المكان المقدس عندهم ، ثم لأن الحجاز لم يكن بلداً غنيا يُطْمِعُ فيه المحتلين الأجانب ، ولعل المحاولة الوحيدة لإخضاع الحجاز للاستعمار كانت تلك التى قام بها عثمان بن الحويرث ، فلقد تنصر عثمان هذا واتصل بقيصر ، وأراد أن يلحق مكة بالروم وأن يكون ملكا عليها تابعا لقيصر كملوك الغساسنة ، ولكن أهل مكة ثاروا عليه ففرَّ من وجههم وحاول أن يؤلب عليهم القيصر وأتباعه من الغساسنة ولكن أهل مكة

احتالوا عليه حتى أطعموه طعاماً مسموماً مات به(١)

وقد سبق أن أشرنا إلى أن تاريخ الحجاز حفظه لنا اتصاله بالأديان وبالكتب المقدسة وسنعتمد – مع كتب التاريخ – على بعض اقتباسات من القرآن والحديث لنتتبع نشأة الحياة فى الحجاز .

مكة : المدينة المقدسة :

هناك قصة رواها البخارى عن بئر زمزم نوجزها فيما يلى :

جاء إبراهيم بابنه إسماعيل وهو طفل رضيع مع أمه هاجر ووضعهما بالقرب من مكان بئر زمزم الحالى ، وترك لهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء . ثم اتجه إبراهيم عائدا ، فنادته أم إسماعيل : يا إبراهيم ، أين تذهب وتتركنا فى هذا الوادى ؟ فلم يلتفت لها إبراهيم . فسألته آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذاً لن يضيعنا . وبعد أيام نفد الطعام والماء وجف تبعا لهذا لبن أم إسماعيل ، وجعل إسماعيل يبكى ، وأخذت أمه تتردد مهرولة بين جبلى الصفا والمروة لعلها تجد من يساعدها ويمدها هى وابنها بالطعام والشراب ، وكان ترددها بين الصفا والمروة سبع مرات . ولذلك يسعى الحجاج بينهما سبع مرات . ولما أتمت السابعة ظهر لها ملك فى صورة طائر نقر الأرض فانبثق منها الماء . وفى رواية أخرى أن الماء انبثق عند رِجْل إسماعيل التى كان يدق بها الأرض وهو يصيح .

تلك هى بئر زمزم وقد فاض ماؤها على هذه الصورة تبعاً لما ترويه

---

(١) هناك مملكة وحيدة قصيرة العمر قامت فى أواسط الجزيرة العربية وهى مملكة كندة (٤٨٠ – ٥٢٩ م) وكان أحد ملوك تبع قد قهر بعض القبائل فى أواسط الجزيرة فعين حجر آكل المرار ملكا عليها ، وقد استطاع حفيده الحارث أن يستولى على الحيرة ويتخذ له عاصمة يغلب أن تكون الأنبار ولكن سرعان ما انهزم ملوك كندة أمام وثبة جديدة قام بها اللخميون ملوك الحيرة ، وينسب امرؤ القيس أحد شعراء المعلقات إلى ملوك كندة وقد حاول أن يعيد مجد آبائه ولكن محاولته لم تكلل بالنجاح .

الكتب المقدسة ، وقد جعلت هاجر تقيم حوضاً حول الماء المنبثق حتى لا يسيل .

هل كانت بئر زمزم أساساً للعمران فى هذه المنطقة ؟ لا بد أن يكون الجواب بالإيجاب ، فالماء فى الصحراء هو الحياة ، وعندما يوجد الماء تدب الحياة فيما حول الماء ، على أن الماء فى هذه المرة لم يكن ماء فحسب ، وإنما شاعت هذه الصورة التى انبثق بها هـذا الماء ، وعرف البدو قصة البئر الجديدة والظروف التى نبع فيها ماء تلك البئر ، والطفل الذى نبع الماء عند مضرب قدمه . وأمثال هذه الأشياء عميقة التأثير وبخاصة فى عهد يعتبر عهد طفولة البشرية ، وكل ذلك ساعد على عمران هذه المنطقة .

وغير بعيد من هذه البئر كان هناك مكان فيه عمران قليل وكان هذا المكان يسمى مكة ، ووقوعه فى منتصف الطريق تقريباً بين جنوب الجزيرة وشمالها جعله مكاناً مناسباً لاستراحة المسافرين ، كما كان البدو يحطون به رحالهم فترة قصيرة أو طويلة فى أثناء تجوالهم بالجزيرة وكان انبثاق بئر زمزم خيراً وبركة على مكة ، فاتسع عمرانها وامتد حتى اتصل بالبئر أوكاد ، كما كثر زوارها الذين يفدون للتبرك بماء زمزم ولرؤية إسماعيل الذى انبثق الماء تكريماً له .

وجاء إبراهيم بعد حين ليزور إبنه اسماعيل ، ورأى إبراهيم المكانة التى حظى بها ابنه بين سكان مكة ، كما رأى كثرة الزائرين الذين يفدون من كل الجهات لرؤية إسماعيل وللتبرك بماء زمزم ، فبنى إبرهيم وابنه الكعبة المشرفة « وإذ يرفع إبرهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم(١) »

والكعبة المشرفة هى بيت الله أو البيت العتيق ، وهى بناء مربع تقريباً ،

---

(١) سورة البقرة ١٢٧ – ١٢٨ .

بنى فى أوسع نقطة من الوادى ، ويبلغ ارتفاعه خمسة عشر متراً وطول جداره الشمالى والجنوبى عشرة أمتار تقريباً وطول جداره الشرقى والغربى اثنا عشر متراً تقريباً ، وفى الجدار الشرقى يقع باب الكعبة .

ويروى الطبرى(١) خبرا يتصل بباب الكعبة وببئر زمزم فيقول : إن جرهم (وسيأتى الحديث عنها) عندما أخرجت من مكة وضعت ببئر زمزم غزالين من ذهب كانا بالكعبة ووضعت كذلك أسيافاً ودروعاً وأهالت عليها التراب فرُدِمت البئر ، وكانت جرهم تأمل أن تعود إلى مكة فتستخرج هذه الكنوز وتعيد حفر البئر ، ولكنها لم تعد وظل الحال على ذلك حتى عهد عبد المطلب فأعاد حفر البئر فوجد هذه الكنوز من الصلب والذهب فضرب الأسياف باباً للكعبة وجعل من الغزالين صفائح ذهبية غطى بها هذا الباب . وفى الركن الجنوبى الشرقى للكعبة من الخارج يقع الحجر الأسود وهو مبدأ الطواف ويرتفع عن الأرض بمقدار متر ونصف متر .

ولما أتم إبراهيم بناء الكعبة هتف مناجياً ربه : « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات »(٢) ، فاستجاب الله لدعائه ووَجَّهه لتحقيق ذلك بقوله : « وأذِّن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق »(٣) فأذن إبراهيم بالحج واستجاب له الناس ؛ ومنذ ذلك الحين والناس يفدون حاجين ملبين من مختلف البلاد ومختلف النواحى .

وكانت الشعائر الدينية فى أول الأمر تؤدى فى الكعبة ، ثم ضاق هـذا البناء الصغير بزواره والحاجين إليه ، ولذلك اصطلح العرب منذ عهود طويلة

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٢

(٢) سورة إبرهيم ٣٧ .

(٣) سورة الحج ٢٧ .

على اتخاذ جزء من الأرض حول الكعبة ليكون مكاناً للشعائر الدينية ، وقدسوا هذا الجزء وسموه حرماً ، ولما جاء الإسلام وفرضت الصلاة كانت تؤدى فى هذا الجزء ، ولذلك سمى المسجد الحرام ، وقد ظل ذلك الجزء من الأرض فراغاً لا يحيط به سور حتى عهد عمر بن الخطاب ، وكانت تحيط به دور من أكثر جهاته(١) .

وفى عهد عمر أصبح واضحاً أن هذا المكان لم يعد يتسع لوفود الحجاج التى تأتى من كل حدب وصوب من العالم الإسلامى ، فرأى عمر ضرورة توسيعه كما رأى ضرورة فصله عن هذه الدور بإقامة جدار يحيط به ، فاشــترى عمر دوراً فهدّمها وزادها فيه . واتخذ للمسجد جدارا دون القامة(٢) .

وابتاع عثمان منازل أخرى وأدخلها فى المسجد واتخذ له الأروقة ، ولما احترقت الكعبة فى عهد عبد الله بن الزبير هدمها هذا وأعاد بناءها وأدخل فيها حِجر إسماعيل ، ولما انتصر الحجاج على ابن الزبير بعد أن استعمل المنجنيق الذى زلزل جدار الكعبة والمسجد الحرام أمره عبد الملك أن يعيد بناء الكعبة والمسجد الحرام ، ففعل الحجاج ولكنه ردّ الكعبة إلى أصلها قبل أن يبنيها ابن الزبير فأخرج الحجر منه(٣) .

وعنى الخلفاء والملوك والسلاطين بالكعبة والمسجد الحرام فى جميع العصور حتى العهد الحاضر حيث تقدم مصر كسوتها كل عام ، وحيث يهتم ملوك المسلمين ورؤساؤهم جميعاً بتعمير البيت المقدس وتحسينه .

حكومة مكة :

لم تكن مكة منذ هتف إبراهيم بالحج واستجاب له الناس ملكاً للمكيين ،

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٥٨ .

(٢) المرجع السابق فى نفس الصفحة .

(٣) المرجع السابق ص ٥٩ — ٦٠

وإنما كانت مكاناً مقدساً لدى العرب جميعاً ، ومن هنا نجد السلطة فى مكة متصلة بالسلطات فى نواحى الجزيرة العربية كلها ، أو بعبارة أخرى نجد العرب جميعاً يتفقون على شىء يهيئ لهم فريضة الحج فى أمن ويسر ، فاتفقت كلمة العرب على تحريم القتال فى الأشهر الحرم وهى الشهور التى يفد فيها العرب إلى مكة حاجين أو معتمرين أو يقفلون منها إلى بلادهم وهذه الشهور هى : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم للحج ، وشهر رجب للعمرة ، ويروى الطبرى(١) أن قصى بن كلاب عندما أراد أن يعود من الشام ليلحق بأهله بمكة قالت له أمه : يا بنىّ لا تعجّل بالخروج حتى يدخل عليك الشهر الحرام فتخرج فى حاج العرب فإنى أخشى عليك أن يصيبك بعض الناس ، فأقام قصى حتى إذا دخل الشهر الحرام خرج حاج قضاعة فخرج معهم ...

وبجانب الأشهر الحرم اتفق العرب على تحريم القتال عند حرم مكة دائما ، وقرروا أن من دخل الحرم كان آمناً ، ومن هنا كانت الأسواق الأدبية والتجارية تقام حول الحرم دون أن يمس المشتركون فيها بسوء إذ كان ذلك باتفاق الجميع لمصلحة الجميع ، ولما وقعت الحرب بين قريش وكنانة وبين قيس على حدود الحرم سميت حرب الفجار لأنها مست حرمة البيت ، ولذلك عقدت قريش بعد الصلح حلف الفضول الذى تحالف فيه بنو المطلب وبنو أسد وبنو زهرة وبنو تميم ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عنه مظلمته ، وقد تم هذا الصلح فى دار عبد الله بن جدعان وحضره الرسول وكانت سنّه حوالى عشرين سنة . وفيه يقول : لقد شهدت مع عمومتى حلفاً فى دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو دعيت به فى الإسلام لأجبت ، ويعتبر هذا الحلف استرداداً لمكانة الحرم ، تلك المكانة التى كانت قد أصيبت بضربة فى حرب الفجار .

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٥ .

وتحريم القتال فى الأشهر الحرم فى مكة نظام قديم لعله يرجع إلى العهود الأولى لتشريع الحج .

تلك كانت الصلة بين السلطة فى مكة وبين السلطات المختلفة بالجزيرة العربية ، ونعود بعدها للحديث عن السلطة فى مكة وفى يد من كانت .

لقد عرفت مكة أول ما عرفت قبائل من العماليق ، ولم تكن لمكة فى ذلك الحين مكانتها المقدسة فإن ذلك كان قبل ميلاد إسماعيل ، ونزح إلى مكة أيضاً قبائل من جرهم ، وسكنوا مع العماليق فيها ، ثم غلبوهم عليها وأخرجوهم منها وخلص لجرهم الأمر فى مكة ، وفى هذه الأثناء وفدت هاجر ومعها إسماعيل ، ولما شب إسماعيل اتصل بجرهم وتزوج منهم ، وبنى البيت هو وأبوه كما مرَّ ذكره ، وتكونت حكومة مكة لحماية الحجيج والسهر على مصلحتهم ، ويبدو أنه كان للجراهمة أمور السياسة والحرب وتفرغ إسماعيل لخدمة البيت وأمور الدين ، وكان ذلك شبه أساس للوظائف التى ظهرت واضحة فيما بعد وهى السقاية والرفادة واللواء والحجابة ، فكان على جرهم أن تقوم بما يعادل السقاية والرفادة واللواء وكان لإسماعيل ما يعادل الحجابة .

وزاد ثراء جرهم فانغمست فى الملاذ ونسوا وجباتهم الدينية ، وأهملوا السهر على بئر زمزم وعلى البيت الحرام ، حتى نضب ماء البئر وحتى فكرت خزاعة — وكانت قد حلَّت بمكة — أن تستولى على السلطة من جرهم ، ولما يئس مُضَاض بن عمرو الجرهمى من إيقاظ قومه ألقى ببئر زمزم سيوفاً ودروعاً وغزالين من الذهب كانتا بالكعبة وأهال التراب عليها كما سبق القول ، وخرج هو وقومه وأولاد إسماعيل آملا أن يعود لمكة يوماً ما فيستخرج هذه الذخائر ، وكان خروجه حوالى سنة ٢٠٧ ق م ومنذ ذلك التاريخ استولت خزاعة على مكة وخلصت لها وظائف الكعبة كلها ما كان منها متصلا بالرياسة السياسية أو بالرياسة الدينية[١] . وظلت

---

(١) انظر كتاب الأصنام لابن الكلبى ص ٨ .

الحال كذلك حتى سنة ٤٤٠ م حين انتقلت السلطات إلى قريش التى كانت قد نزحت إلى مكة قبل ذلك فأصبحت أمور الكعبة كلها فى يد قصى ابن كلاب الجد الرابع للرسول ، وانتقلت السلطة من قصى إلى أولاده على ما سيأتى تفصيله فيما بعد .

وكانت أم قصى انتقلت به وهو طفل بعد موت أبيه كلاب من مكة إلى الشام لتعيش مع زوجها الجديد ربيعة بن حَرام ، فشب قصى بالشام لا يعرف له أباً غير ربيعة حتى نما ، ثم عيَّره بعض أهل ربيعة بأنه ليس منهم فسأل أمه فقالت له : إنك يابنى أكرم منهم نسباً وأنت ابن كلاب ابن مرة وأهلك بمكة ، فرحل لهم كما سبق القول ، وهناك تزوج فتاة من خزاعة كان لأبيها السلطان على الكعبة ، وقد مهد له هذا أن يستولى على السلطان بعد موت هذا الأب والتف حوله قومه لما رأوا فيه من مروءة وشهامة ونصروه على خزاعة فخلص له الأمر .

وقصى هذا هو الذى بنى دار الندوة ليجتمع فيها أهل مكة للتشاور فيما يهمهم تحت إشرافه . وهو الذى رتب وظائف الكعبة وحدد مدلولاتها وهذه الوظائف هى :

السقاية : كان الماء عزيزاً بمكة بعد ردم بئر زمزم (أعاد عبد المطلب حفرها فيما بعد كما قلنا آنفاً) فكان من يلى أمر السقاية يحضر الماء من آبار بعيدة ويضعه فى حياض ويُحلّيه بشىء من التمر والزبيب ويعده ليشرب منه الحجاج .

الرفادة : وهى تقديم طعام لغير القادرين من الحجاج ، ويروى أن قصياً فرض على قريش أن يقدم كل منهم شيئاً إليه ليصنع طعاماً للفقراء من الحجيج ، وقال قصى فى ذلك : يا معشر قريش ، إنكم جيران الله وأهل بيته ، وإن الحاج ضيف الله وزوار بيته وهم أحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم شراباً وطعاماً أيام هذا الحج حتى

يصدروا عنكم ، ففعلوا ، فكانوا يخرجون لذلك كل عام من أموالهم فيدفعونه إليه ، فيصنعه طعاماً للناس(١) .

اللواء : الدعوة إلى الحرب بإعلان راية فوق رمح ويتبعها قيادة الجيوش .

الحجابة : وهى خدمة الكعبة وتولى مفاتيحها .

وبعد قصى انتقلت وظائف الكعبة إلى ابنه عبد الدار لكبر سنه مع أن عبد مناف بن قصى كان أعظم ذكرا وأعلى شأنا بين أنداده ، ولذلك نجد أبناء عبد مناف يريدون أن يأخذوا لأنفسهم هذه الوظائف من أبناء عبد الدار وانضمت بعض قريش إلى أبناء عبد مناف وانضم آخرون إلى أبناء عبد الدار وأوشكت أن تقع بينهم حرب طاحنة لولا نجاح بعض المساعى التى قسمت وظائف الكعبة بين هؤلاء وأولئك فأعطيت السقاية والرفادة لأبناء عبد مناف وأعطيت الحجابة واللواء والندوة لبنى عبد الدار . وقد تولى هاشم بن عبد مناف حينذاك السقاية والرفادة وتولاها بعده أخوه المطلب ثم عبد المطلب بن هاشم ، وفى عهد عبد المطلب عز شأنه وذاع صيته وأصبح مرجع كل الأمور بمكة ، وفى عهده كذلك حاول أبرهة الحبشى هدم الكعبة على ما سنوضحه فيما يلى :

عام الفيل :

أوضحنا من قبل أن الحبشة كانت قد استولت على بلاد اليمن ، وأن الأمر آل إلى أبرهة بعد أن فتك بأرياط قائد النجاشى ، ولما رأى أبرهة غضب النجاشى عليه لفتكه بأرياط ، أراد أبرهة أن يرضى النجاشى فكتب إليه يقول : « سأبنى إليك كنيسة لم يبن مثلها أحدٌ قط ، ولست تاركا العرب حتى أصرف حجهم عن بيتهم الذى يحجون إليه »(٢) ويبدو أن أبرهة أراد بذلك أن يهدئ ثورة النجاشى ، أما اتجاهه الحقيقى فكان سياسيا

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ١٩ .

(٢) ابن الكلبى : كتاب الأصنام ص ٤٦ - ٤٧ .

أكثر منه دينيا فقد هاله تقديس العرب لمكة وسيرهم إليها فى إجلال وطاعة حاملين الهدايا والهبات إلى سكانها ، ولذلك عزم على أن يبنى بيتا أعظم من الكعبة وأن يدعو الناس إلى أن يحولوا وجوههم ومزارهم إليه ، فبنى كنيسة سماها « القَلِيس » بالرخام وجيد الخشب المذهب ، وكانت مرتفعة البناء بحيث يشرف منها على مدينة عدن واستذل أبرهة فى بنائها أهل اليمن وجشمهم أنواعا من السُّخَر ، ونقل إليها من قصر بلقيس الأعمدة من الرخام المجزَّع والحجارة المنقوشة بالذهب ونصب فيها صلبانا من الذهب والفضة ومنابر من العاج والأبنوس ودعا الناس إلى الحج إليها[1] فغضب العرب . وثار رجل من بنى مالك بن كنانة وأقسم ليعبثن بهذه الكنيسة ، وقدم اليمن ودخل الكنيسة كأنه متعبد حتى إذا أظلم الليل وخلا المكان قام يعبث بأثاث الكنيسة ويلطخ جدرانها بالقاذورات ، ولما علم أبرهة فى الصباح بما أصاب كنيسته وعرف أن عربيا كان يبيت بها وأنه المتهم بالعبث ببنائه المقدس ، حلف ليهدمن الكعبة ، وسار فى جيش كبير من الأحباش سير أمامه الفيلة حتى حط رحاله بالقرب من مكة .

كان سيد مكة فى هذا الوقت عبد المطلب بن هاشم جد الرسول صلوات الله عليه ، وقد أخذ أبرهة إبلا يملكها عبد المطلب كانت ترعى عند المكان الذى نزل فيه أبرهة وأرسل إليه يطلبه ، فلما جاء عبد المظاب قال له أبرهة : إنى لم أجئ لحربكم بل جئت لأهدم هذا البيت ، فإن تعرضتم لى حاربتكم وإلا فلا حاجة لى فى دمائكم .

---

(١) انظر كتاب الأصنام لابن الكلبى ص ٤٦ – ٤٧ ، وأنظر تعليق المحقق بهامش الصفحة الأولى ، ويضيف صاحب الروض الأنف أن هذه الكنيسة أقفرت عقب تلاشى ملك الحبشة من اليمن ، وأن بقية أنقاضها بيعت فى عهد أبى العباس السفاح بواسطة عامله على اليمن ، وعفا بذلك رسمها ودرست آثارها .

قال عبد المطلب : لا قوة لنا فى التعرض لك ، والذى أطلبه منك أن ترد على إبلى التى أخذتها .

قال أبرهة : كنت هبتك حين رأيتك : ثم زهدت فيك حين كلمتنى ، أتكلمنى فى شأن الإبل وتترك البيت الذى هو دينك ودين آبائك ؟

قال عبد المطلب : أما الإبل فهى لى ، وأما البيت فله رب يحميه .

وعرض عبد المطلب على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع دون أن يهدم البيت ، فأبى أبرهة وأصر على هدم هذا البناء . فعاد عبد المطلب وطاف بالبيت منشداً والناس يرددون :

يا رب لا أرجو لهم سـواكا   يا رب فامنع منهم حماكا

إن عدو البيت من عاداكا

واستجاب الله لهتاف عبد المطلب . ويحكى القرآن الكريم نهاية أصحاب الفيل فى الآيات الكريمة : (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول)[١] .

وكانت حادثة الفيل كبيرة الأهمية عند العرب فأخذوا يؤرخون بها أحداثهم . وفى عام الفيل ولد محمد صلوات الله عليه .

غير مكة فى الحجاز :

بجانب مكة كانت هناك فى الحجاز مدن أخرى أهمها الطائف ويثرب ، وإذا كان البيت الحرام أكسب مكة نوعاً من الاستقرار فإن غزارة الماء وخصب التربة فى يثرب والطائف جعل سكانهما يشتغلون بالزراعة وغرس الأشجار مما سبب لهم الاستقرار أيضاً ، وقد لعبت يثرب فيما بعد أعظم دور فى تاريخ الإسلام ، ففيها وجد محمد الحماية ومنها انتشر الإسلام ، ولعبت الطائف

(١) سورة الفيل .

كذلك دورا هاما ، فقد أخرجت لدولة الإسلام مجموعة كبيرة من القادة كالمغيرة بن شعبة وزياد والحجاج ومحمد بن القاسم ، وهذه المدن الثلاث هى التى استقرت على الإسلام يوم انتشرت الردة والتنبؤ وكثر الضلال عقب وفاة الرسول ، ومنها خرجت الجيوش التى أعادت الحق إلى نصابه وقهرت الباطل .

ولمكة على العموم مكانة خاصة بين مدن الحجاز ، ولذلك أطلق عليها القرآن الكريم « أم القرى » إشارة إلى ذلك ، قال تعالى : (وهذا كتاب أنزلناه مباركٌ مصدقُ الذى بين يديه ولتنذر أمَّ القرى ومن حولها)[١] .

تجارة قريش :

تحدثنا من قبل عن النشاط التجارى فى اليمن فى عهد مملكتى سبأ وحمير ، وقلنا إنه كان يشمل نشاطاً بحرياً إلى الهند والصين وسومطرة ونشاطاً برياً داخل الجزيرة العربية ، ولما وقعت اليمن فريسة الاستعمار الحبشى ثم الفارسى استطاع المستعمرون أن يسيطروا على النشاط البحرى ، أما النشاط البرى داخل الجزيرة فقد انتقل إلى مكة لأن نفوذ القوى الأجنبية لم يستطع قط أن يمتد إلى قلب الجزيرة كما سبق القول .

وهناك عوامل ساعدت مكة لتلعب هذا الدور ، فقد هاجر إليها فى ظروف متعددة كثير من اليمنيين الذين لهم خبرة واسعة بهذه الحركات التجارية ، ثم إن شهرة مكة الدينية كانت تنمو يوماً بعد يوم بسبب وجود البيت المقدس بها وتوافد الحجاج عليها كل عام ، وقد هيأ ذلك لقريش احترام العرب وإجلالهم وبخاصة أن قريشاً كانت تحسن استقبال الحجاج وتعنى بخدمتهم وإكرامهم وتتكفل بحمايتهم ، وموقع مكة فى منتصف الجزيرة العربية تقريباً بين الشمال والجنوب قوى هذه العوامل ؛ كما قواها أيضاً أنها

---

(١) سورة الأنعام ٩٢ .

فى مكان قاحل قليل الماء عديم الزرع مما جعل أهلها يهتمون بالتجارة كمصدر رئيسى من مصادر رزقهم .

وكانت عير قريش تحمل من صنعاء ومن موانى عمان واليمن الطيب والبخور والمرّ والصموغ العطرة والأخشاب الزكية والعاج والأبنوس وجلود الفهود واللبان والذهب والفضة والجوهرات والأرِقّاء والعاج والمنسوجات الحريرية والمعادن والأسلحة والتوابل وبعض هذه الأشياء من منتجات اليمن وبعضها مما يرد إلى الموانى من إندونيسيا والصين والهند أو من إفريقية عبر باب المندب . وكانت العير تحمل هذه البضائع إلى أسواق الشام ، إذ كان الطيب والبخور من أهم ما تعنى به المعابد والكنائس والقصور الواقعة فى بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط وفى الهلال الخصيب ، ولذلك كانت تلاقى رواجا كبيرا ، وكانت هذه الإبل تعود من مصر والشام حاملة القمح وزيت الزيتون والحبوب والمنسوجات (انظر الخريطة رقم ٢) .

وكما كانت قريش تسير فى رحلتها إلى الشمال والجنوب ، كانت كذلك تسير فى رحلة من الشرق للغرب تربط بين البحرين والخليج الفارسى من جهة ، وبين السودان والحبشـــة عبر البحر الأحمر من جهة أخرى ، وكان اللؤلؤ المستخرج من الخليج الفارسى وتوابل الحبشة من أهم السلع فى هذا الخط التجارى ، وكان بنو عبد مناف الأربعة يتوجهون إلى الجهات الرئيسية الأربعة التى كانت تتجه لها تجارة قريش ، فكان هاشم يتوجه للشام ، وعبد شمس إلى الحبشة ، والمطلب إلى اليمن ، ونوفل إلى فارس ، وكان تجار قريش يختلفون إلى هذه البلاد فى ذمة هؤلاء الأخوة الأربعة لا يتعرض لهم أحد بسوء[1] ، على أن رحلتى الشمال والجنوب كانتا أكثر انتظاماً وأعظم نشاطاً ، ولهذا وردتا فى القرآن الكريم : (لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع ، وآمنهم من

(١) الطبرى جـ ٢ ص ١٢ ، ١٣ وسبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب ص ٢١٥ .

(الخريطة رقم ٢) الطرق التجارية بالجزيرة العربية

خوف »(١) وكانت رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام . ويروى الطبرى(٢) « أن هشاماً هو أول من سنّ لقريش رحلة الشتاء ورحلة الصيف » . والمعتقد أنه كانت هناك رحلات إلى الشمال والجنوب قبل هشام ، ولكن هشاماً جعلها منتظمة لا تختلف ولا تتخلف .

وقد سببت هذه التجارة أرباحاً كثيرة لعدد كبير من أفراد قريش كأبى سفيان والوليد بن المغيرة وغيرهما ، على أن هناك ربحاً أدبياً كبيرا حصلت عليه قريش من جراء هذه التجارة ، وهو دراسة سياسة البلاد التى تجرى فيها التجارة ومعرفة أحوالها الاجتماعية ، وقد أدى ذلك إلى تطور فكرى فى هذه القبيلة ، فلم تعش بمعزل عن الحضارات التى كانت تحيط بها فى الشمال والجنوب .

---

(١) سورة قريش .

(٢) تاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ١٢ .

الحيـاة الاجتماعيـــة

فى الجزيرة العربية

عقدنا الدراسة الماضية لإيضاح الحياة السياسية عند العرب ، ولكن ورد فى أثنائها معلومات ذات بال تتصل بالحياة الاجتماعية اقتضاها سياق البحث ، ونريد هنا أن نخصص مساحة لدراسة أبرزِ صور الحياة الاجتماعية فى الجزيرة العربية قبل الإسلام لمـا لها من أهمية كبيرة فى فهم موقف العرب من الإسلام عندما ظهرت دعوته . وسندرس لذلك موضوعات ثلاثة هى : الشعر والدين والأسرة ، وستمدُّنا تلك الموضوعات بأهم ما يعنينا فى دراسة المجتمع العربى قبل الاسلام :

الشعر[1] :

تفيدنا دراسة الشعر الجاهلى من ناحيتين :

أولا : دراسة الشعر لذاته كفَنٍّ له قيمة خلابة عند العرب .

ثانيا : دراسة الشعر لنعرف منه صورا من عادات العرب وأخلاقهم .

وفيما يلى دراسة موجزة لكل من هاتين الناحيتين :

فالشعر عند العرب كان أجمل الفنون التى يحتفون بها ويمجدونها ، وطالما كانوا يجتمعون حول الشعراء ليسمعوا نتاجهم وليصفقوا لقصائدهم ، كما يجتمع الناس الآن حول مغن عظيم أو موسيقى شهير ؛ وكانت هناك أسواق العرب : عُكاظ ومجنة وذو المجاز ، وفيها كان يجتمع الشعراء حيث يلقى كل منهم ما أعد لهذه المناسبة الفريدة وحوله قبيلته تشجعه وتفخر

---

(١) مراجعنا فى الحديث عن الشعر وأثره عند العرب كثير من كتب الأدب والتاريخ ، وبخاصة كتاب المرحوم الأستاذ محمد هاشم عطية « الأدب العربى وتاريخه » فهو من خير ما كتب فى ذلك الموضوع .

به ، وكانت أمهات القصائد تختار لتعلق فى الكعبة غير بعيد من معبوداتهم كما سبق القول .

وكانت منزلة الشعراء عند العرب عالية جداً . وكانت لهم أسمى مكانة فى نفوس الناس . وكانت القبيلة إذا ظهر فيها شاعر مجيد أقبلت إليها وفود القبائل الأخرى للتهنئة . وكانت قبيلته تقيم الأفراح وتنحر الذبائح . وتقدم الأطعمة للناس . وتخرج نساء القبيلة يعزِفْنَ الموسيقى ويرقصن ويغنين . إذ كان الشاعر يدافع عن القبيلة بشعره ولسانه أكثر مما يدافع الفارس عنها بسيفه وحرابه . كما كان هو الذى يسجل الأحداث والوقائع ، ويرد على شعراء القبائل الأخرى إذا تحدثوا عن قبيلته بما لا تحب .

ومن تأثير الشعر والشعراء عند العرب أن الشاعر كان يمدح الخامل فيرفع ذكره ، ويذمُّ الشريف فيقلل قدره ، وفيما يلى قصص قليلة تدل على مدى ما للشعر عند العرب من تأثير عميق .

عبد العزى بن عامر والأعشى :

كان عبد العزى بن عامر رجلا كثيرَ البناتِ سيئ الحال . رغب الأزواج عن بناته فكسدن فمدحه الأعشَى بقصيدة قال فيها :

أبا مسمعٍ سار الذى قد فعلتمُو ... فأنجدَ أقوامٌ به ثم أعرقُوا
يداك يدا صدق ، فكفٌّ مبيدةٌ ... وأخرى إذا ما ضُنَّ بالمالِ تنفق

فسار ذكره ، وحسنت حاله وتزوجت بناته .

الحُطَيئة وبنو أنف الناقة :

وكان جماعة من تميم ينتسبون إلى جدهم « أنف الناقة » . ولكنهم كانوا يخجلون من هذه النسبة . وإذا سئل الواحد منهم عن نَسَبِه قال : من بنى قريع بن عوف (والد جعفر أنف الناقة) ولا يذكرون أنف الناقة . فزارهم الحطيئة فأكرموه فقال فيهم قصيدة منها :

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ... ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا

فاحترمهم العرب لهذا النسب بعد ذلك وأصبحوا هم يفخرون بهذا النسب بعد أن كانوا يخجلون منه .

حسان بن ثابت وبنو عبد المزان :

كان بنو عبد المزان يمتازون بطول الأجسام وعظمها . وكانوا يفخرون بذلك على الناس فهجاهم حسان بن ثابت بقصيدة قال فيها :

لابأس بالقوم من طول ومن غِلَظٍ جسم البغال وأحلام العصافير

فشاع ذلك البيت بين الناس وحفظوه . وكلما ظهر واحد من بنى عبد المزان بجسمه الفاره صاح الأولاد يرددون هذا البيت حتى أصبح بنو عبد المزان يَستْحون من طولهم ويتمنون لو كانوا قصاراً . فاتصل بعضهم بحسان بن ثابت وقدَّم له هدية ثمينة وشكا له مما نالهم بسبب شعره فقال حسان : سأصلح ما أفسدتُ ونظم فيهم قصيدة أخرى قال فيها :

وقد كنا نقول إذا رأينا لذى جسم يُعَدّ وذى بيان
كأنك أيهــا المعطى بياناً وجسماً من بنى عبد المزان

فعاد بنو عبد المزان إلى الافتخار بأجسامهم والسرور بها .

ذلك هو الشعر وتلك أهميته وآثاره ، ونجيء بعد ذلك إلى الشعر كمصدر يصور لنا حياة العرب وأخلاقهم وعاداتهم ، والباحثون يتفقون على أن الشعر الجاهلى كان أهم مصدر حفظ لنا صوراً من حياة عرب الجاهلية ، وكان وسيلة سُجِّل بها تاريخ العرب كما كانت الأهرام والمعابد والمسلات وما نقش عليها مصدراً لتاريخ المصريين ، فالذى يقرأ الشعر العربى يجد فيه حياة العرب واضحة . فيجد الصحراء والخيام . والملاعب وموارد المياه ، ويجد أحاديث السادة ومنجبات النساء وعتاق الخيول وأوصاف السيوف . ويرى تاريخ وقائع العرب وحروبهم وصور عاداتهم

وأخلاقهم . وسنذكر فيما يلى بعض النماذج الشعرية التى تصور هذه الحياة الاجتماعية وتدون تاريخ الحياة العربية ونظمها :

البسوس : حرب البسوس من أهم الحروب التى وقعت بين العرب وكانت بين بكر وتغلب . وقد استمرت أربعين سنة . وسبب هذه الحروب أن جساس بن مرة من بكر قتل كليب بن ربيعة من تغلب . وكانت جليلة أختُ جساس زوجةً لكليب . فلما جلس نساء تغلب فى مأتمه . طلبوا أن تخرج جليلة من المأتم لأنها أخت القاتل . فخرجت باكية على زوجها ولكن أخت القتيل اتهمت جليلة بالميل لأخيها فأنشدت جليلة القصيدة الرائعة الآتية :

يا ابنة الأقوام إن شئت فلا تعجلى باللوم حتى تسألى
فإذا أنت تبينت الذى يوجب اللوم فلومى واعذلى
إن تكن أخت امرئ ليمتْ على شفق منها عليه فافعلى
جل عندى فعل جساس فيا حسرتى عما انجلت أو تنجلى
يا قتيلا قوّض الدهر به سقف بيتىَّ جميعاً من عل
هـــدم البيت الذى استحدثته وانثنى فى هدم بيتى الأول
يشتفى المدرك بالثأر وفى درك ثأرى ثكل لمثكل

وكان من أعظم الأيام التى انتصرت فيها تغلب على بكر يوم الذّنائب (موضع بنجد على يسار مكة) وقد سجله مُهَلْهِل بن ربيعة فى قصيدته التى يقول فيها :

فإن يلك بالذنائب طال ليلى فقد أبكى من الليل القصير
فلو نُبِشَ المقابر عن كليب لِيَخْبُرَ بالذنائب أى زير

عقر الرواحل على قبور الأبطال :

كان من عادة العرب فى الجاهلية أن يعقروا رواحلهم على قبور أبطالهم وسادتهم . وقد مرَّ حسان بن ثابت على قبرِ أحد الأبطال فقال :

نفرت قلوصى من حجارة حَرَّةٍ   بُنِيَتْ على طَلْق اليدين وهوب
لولا السِّفَارُ وبُعْدُ خرق مهمهٍ   لتركتُها تحبو على العُرْقُوبِ

كرم العرب ووسائل الاستيضاف :

واشتهر العرب بالكرم ، ولهم فيه ضروب شتى ، وها هو حاتم الطائى ذائع الصيت فى الكرم ، ويروى عنه أنه مرَّ بأسير لا يستطيع أن يفتدى نفسه وطلب منه الأسير المساعدة ، ولم يكن مع حاتم ما يدفعه فداء للأسير ، فلم يجد حاتم طريقا إلا أن يضع نفسه موضع الأسير ليطلق الأسير ، وظل حاتم فى الأسر حتى افتداه أهله .

وكان من عادة العرب أن يشعلوا النيران على ربوات عالية ليراها السارون فى الصحراء فيهتدوا بها ويقدموا ضيوفاً على أصحابها ، ومن عاداتهم كذلك أن السارى كان إذا ضل طريقه ولم ير نارا نبح كما تنبح الكلاب فتنبح الكلاب على نباحه فيهتدى بذلك إلى مكان الحى ، وكانت الطلاب التى تهدى ضالا تكافأ على ذلك بنصيب من لحوم الماشية التى ستذبح لاستضافة القادمين ، وفى ذلك يقول نابغة بن جعدة :

عوَى فى سواد الليل بعد اعتسافه   لينبحَ كلب أو ليفزع نوَّمُ
فجاوَبه مُستسمع الصوت للقِرَى   له عند إتيان المُلمِّين مَطْعمُ
يكاد إذا ما أبصر الضيفَ مقبلا   يكلِّمه من حبه وهو أعجم

الطلاق :

وكان العرب يعرفون الطلاق . قال الأعشى :

أيا جارتى بِينى فإنك طالقه   كذاك أمور الناس غاد وطارقه

أسماء الخيول :

وسجل العرب أسماء خيولهم العتاق فى الشعر ، كقول خالد بن جعفر :

فمن يك سائلا عنى فإنى   وحَذْفةَ كالشجا تحت الوريد

منجبات النساء :

وكان العرب يهتمون بالمنجبات من النساء ويشيرون إليهن فى الشعر . وفى ذلك يقول لبيد فى رجز طويل :

نحن بنى أم البنين الأربعة

تحريم الخمر :

ومن العرب من حَرَّمَ الخمر على نفسه ، ومن هؤلاء قيس بن عاصم وفى ذلك يقول :

لَعَمْرُكَ أن الخمرَ ما دمتُ شاربا   لسالبةٌ مالى ومذهبةٌ عقلى
وتاركهٌ بين الضيوف قراهم   ومُورِثَةٌ حربَ الصديقِ بلا ذحل

زواج امرأة الأب :

وكان الرجل يتزوج امرأة أبيه بعد موته . وفى ذلك يقول عمرو بن معديكرب حينما كرهته زوجته التى كانت زوجة أبيه :

فلولا إخوتى وبَنِىَّ منها   مَلأتُ لها بذى شُطبٍ يمينى

الله والحساب :

وبين وثنية الجاهلية كان هناك من أدرك أن للخلق خالقا . وأن لهم ميعادا ولأعمالهم حسابا . يقول زهير بن أبى سلمى :

فلا تكتُمُنَّ اللهَ ما فى نُفُوسكم   ليخفَى ومهما يُكتَمِ الله يَعلمِ
يُؤَخَّرْ فيوضعْ فى كتابٍ فيُدَّخر   ليوم حسابٍ أو يعجلْ فينْقمِ

الدين :

هناك حقيقة متفق عليها بين علماء تاريخ الأديان وهى أن الإنسان متدين بطبعه ، وقد عبر معجم (لاروس) للقرن العشرين عن هـذه الحقيقة بقوله : « إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية ، وأقربها إلى الحياة الحيوانية ، وإن الاهتمام بالمعنى الإلهى وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية . . . . وإن هذه الغريزة الدينية لا تختفى بل لا تضعف ولا تذبل[(١)] .

وشرح بارتيلمى سانت هيلير نشأة التدين بقوله : ما العالم ؟ ما الإنسان؟ من أين جاءا ؟ من صنعهما ؟ ما نهايتهما ؟ ما الحياة ؟ ما الموت ؟ ماذا بعد الموت ؟ . . . . هذه الأسئلة لا توجد أمة ولا شعب ولا مجتمع إلا وضع لها حلولا جيدة أو رديئة مقبولة أو سخيفة . وهذا هو التدين[(٢)] .

وعلى هذا إذا ظهر فى المجتمعات أفراد أوجماعات ينكرون وجود الله ويحاربون التدين فليس ذلك إلا مقاومة للغريزة الموجودة فيهم ، وطالما تُقاوم الغرائز لدافع من الدوافع .

ويختلف علماء تاريخ الأديان فى تحقيق الظروف التى تنمّى غزيرة التدين ؛ فيرى بعضهم أنها تنْمُو حيث يرْقى الفكر وتسمو الثقافة ، وحيث يصل الإنسان مستوى يفكّر فيه فى نفسه وكيف خُلِق ، وفى القوى التى مُنحت له ، وكيف يسمع ويبصر . . . . (وفى أنفسكم أفلا تبصرون[(٣)]) . ويفكر فى الكون الذى يحيط به وفى ملكوت السموات الأرض (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت[(٤)]) . ويرى علماء آخرون أن هذه الغريزة تنمو حيث يظهر اختلاف قوى الطبيعة وحيث

---

(١) Lorousse Article Religion نقلا عن كتاب « الدين » للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٧٥–٧٦ . (٢) Muhamet et le Coran نقلا عن المرجع السابق ص٧٦ .

(٣) الذاريات ٢١ . (٤) سورة الغاشية ١٧ – ٢٠ .

يشتد إحساس الإنسان بالضعف أمام بعض القوى وإحساسه بالحاجة إلى حماية نفسه منها ، كالإنسان البدائى الذى يرى المطر والريح والمرض والموت والحيوانات الفتاكة فيحس بالضعف ويطلب الحماية .

وتبعا لإظهار العلة فى نمو غريزة التدين يتخذ العرب مكانهم بين المتدينين ؛ فالذين يرون الرأى الأول يتجهون إلى أن الغريزة الدينية تنمو حيث الرخاء وهدوء البـــال ليتاح للعقل أن يفكر وعلى هذا يرى هؤلاء أن غريزة التدين لم تكن قوية عند العرب ،والذين يميلون للرأى الثانى يتجهون إلى أن الغريزة الدينية تنمو حيث يتصل الإنسان الإنسان بالكون يصطرع فيه ، وحيث يتقابل الإنسان وجها لوجه مع هذه المشكلات ، وهؤلاء يرون أن نمو الغريزة الدينية عند العرب كان نتيجة لهذا الوضع فى حياتهم .

على أن جفاف الجزيرة العربية هو فى الحقيقة حديث عهد بالنسبة لعمر الإنسان ، فقد دلت الأبحاث العلمية على أن الجزيرة العربية كانت قديما رياضا خضراء منحت أهلها ألوانا من الرخاء فلا يبعد أن يكون نمو الروح الدينية انحدر منـــذ ذلك التاريخ ، وإنما يقول ذلك لأن من المشاهَد الذى لاريب فيه أن روح التدين قوية جداً عند العرب ، وأن قوة هذه الروح كانت من الأسباب التى جعلتهم يصارعون الإسلام عندما جاء لتمسكهم بأديانهم وشدة ارتباطهم بمعتقداتهم ، ولو كانوا قليلى الاهتمام بالتدين لتركوا الإسلام يلحق به من يشاء ويعرض عنه من يشاء ، ولكنهم حاربوه بعنف حتى هزموا . ولا يزال العربى حتى اليوم عالما كان أو جاهلا شديد الحرص على دينه يعمل على نشره ويذود عنه ما سعه ذلك ، وفى إندونيسيا رأيت العرب الحضارمة ورأيت الهنود ورأيت الصينيين وليس بين هذه الطوائف طائفة حريصة على دينها وعلى نشره كالعرب ، مع أن الصينيين والهنود أغنى بكثير من العرب . والتدين الذى نقصده هنا هو التدين العام أما الطقوس والعبادات فطالما ضجر منها البدوى لأنه كان يعتبرها قيوداً وهو لم يألف حياة القيود .

واتجاه التدين انحرف كثيرا ، فعبد ناسٌ الأشجار وعبد آخرون الكواكب ، كما عبدوا الأبطال والحيوانات والأحجار ، ولكن لا شك أن عبادة الله كانت أقدم عبادة عرفها البشر منذ آدم وهى العبادة التى ترتاح لها النفس المفكرة الباحثة ، ولكن هذه النفس ما تكاد تصل إلى التوحيد المطلق وما تكاد تستريح إليه حتى تبدأ فى البعد عنه لأن « عقيدة الألوهية المجردة عن الأجسام عقيدة صعبة المنال لا يدركها إلا خاصة الخاصة ، وإن أدركوها فسرعان ما ينسونها ويميلون إلى التجسيد[1] » .

وهكذا اتجه العالم إلى التجسيد منذ أقدم العهود ، وهكذا وجدت الحاجة للأنبياء ليعيدوا للناس الرشد والهداية ، وكان العرب من المهتدين الذين اتبعوا إبراهيم بعد أن فرَّ من قومه ناجياً من النار التى نصبوها له وألقوه فيها لأنه عارض أصنامهم وهتف بهم (أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ، أفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون[2]) . ولكن العرب بعد أن اتبعوا ملة إبراهيم عادوا إلى الأحجار التى حاربها إبراهيم فنصبوها فى الكعبة واتجهوا لها عابدين ، واختلط دين إبراهيم بالوثنية وأوشكت الوثنية أن تطغى عليه أو طغت فعلا .

كيف تحول العرب من دين إبراهيم إلى الوثنية ؟

تختلف الآراء فى الإجابة عن هذا السؤال ، فهل يرجع ذلك إلى بقايا « طوطمية » تطورت ؛ على أن هذه الكلمة لا تزال موضع بحث فى أصلها ، وأوضح الآراء هو أن الجماعات الأولى اتصلت بالحيوان أو النبات الذى ارتبط بطعامها اليومى . ولكثرة هذا الارتباط اعتُقد أن الجسم بنى من هذا النوع الطعام ، وتطور ذلك فاعتقد نوع من الوحدة بين هذا الحيوان أو النبات وبين الإنسان . وتسبب عن ذلك تحريم أكل « الطوطم » فحرمت جماعات أكل

---

(١) أحمد أمين : يوم الإسلام ص ٧ .

(٢) سورة الأنبياء .

البقر ، وحرم آخرون أكل بعض الطيور وعندما حرِّم « الطوطم » نُظر له بتقدير وانتهى هذا التقدير إلى العبادة ثم تحول ذلك خطوة أخرى وهى عمل تمثال له يحل محله وكان ذلك منشأ عبادة الأحجار.

هذه فكرة فى غاية الإيجاز عن « الطوطمية » فهل كانت عبادة الأحجار عند العرب بقايا « طوطمية » ؟ إن الباحث لا يستطيع أن يجيب بالإيجاب أو بالنفى فى صورة تأكيد ، وكلى ما يمكن أن يقوله الإنسان إن ذلك ممكن ، وإن كان يؤخذ على ذلك أن العرب لم يحرموا أكل الإبل والغنم والتمر ولم يتخذوا منها طواطم مع أنها تكوِّن أقدم الأطعمة التى عرفها العرب ، ولا نظن أن حيوانات أخرى أو طعاماً آخر كانت أشد ارتباطاً بهم منها .

وهناك رواية يذكرها ابن الكلبى (١) تبين لنا تاريخ تحول العرب من دين إبراهيم إلى الوثنية وسبب ذلك ؛ يقول ابن الكلبى : إن عمر بن لُحَىّ من خزاعة كان حاجب الكعبة ثم مرض مرضاً شديداً فذهب إلى البلقاء فى الشام ليستحم فى ماء هناك ، فاستحم وبرأ ، ووجد أهل البلقاء يعبدون الأصنام ، فقال : ما هذه ؟ فقالوا نستسقى بها المطر ونستنصر بها على العدو . فسألهم أن يعطوه منها ، ففعلوا فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة .

ويمكن أن يُعَدّ ذلك بدءاً لدخول الوثنية فى قلب الجزيرة العربية ، أما انتشارها فيوضحه لنا ابن الكلبى أيضاً فى قوله(٢) : (وكان الذى سلخ بالعرب إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم وصبابة بمكة ، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، تيمناً منهم بها وصبابة بالحرم وحباً له . وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ، ويحجون ويعتمرون ثم سلخ ذلك أنهم عبدوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا بدين إبراهيم

---

(١) الأصنام ص ٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٦ .

وإسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان ، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم ، وانتجثوا (اتبعوا) ما كان يعبد قوم نوح منها على إرث ما بقى فيهم من ذكرها .

وهذا تعليل نرضاه لأنه يبين لنا السبب فى إقامة الأصنام فى بلادهم ومع ذلك يحجون للكعبة ويعظمون مكة ، فالأصنام التى فى بلادهم لم تكن أول الأمر إلا حجارة من الحرم عظموها وبنوا لها بيوتاً وكبّروها ، وبقيت للكعبة مكانتها السامية . ثم لما اختلط عليهم الأمر نقلوا من معبوداتهم الحجرية إلى الكعبة وملئوها بالأصنام ، ولكنهم مع هذا لم ينسوا مكانة الكعبة وما كانوا يرضون أن يكدسوا معبوداتهم فى مكان آخر ، أو أن يحجوا إلى مكان آخر ، ومن هنا يتضح كيف اختلط دين إبراهيم بعبادة الأصنام ، ويقول ابن الكلبى (١) فى ذلك — استمراراً لما سبق أن اقتبسناه منه آنفاً —: واستبدل العرب بدين إبرهيم وإسماعيل غيره . . . . وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتنسكون بها : من تعظيم البيت ، والطواف به ، والحج ، والعمرة ، والوقوف على عرفة والمزدلفة وإهداء البدن مع إدخالهم فيه ما ليس منه .

ويرى بعض الباحثين أن العرب كانوا يعبدون الله ، وكانوا يعظمون الكواكب على أنها أعظم خلقة ، ثم تطور تعظيمهم للكواكب فصار عبادة خالصة لها ، وهناك بعض حجارة بركانية كالحجر الأسود اعتقد العرب أنها ساقطة من السماء فلها صلة بهذه النجوم فعظموا هذه الأحجار ، وانقلب التعظيم إلى عبادة . ثم عبدت الأحجار الأخرى وإن لم يظنوا أنها ساقطة من السماء(٢) .

ومثل هذا ما آل له أمرهم مع إساف ونائلة وهما فى الأصل كما يروى ابن

---

(١) الأصنام ص ٦ .

(٢) انظر حياة محمد للدكتور هيكل ص ٩٢ .

الكلبي رجل وامرأة من جرهم وكان الرجل يعشق المرأة ، ثم قدما للحج ، فدخلا الكعبة فوجدا غفلة من الناس وخلوة فى البيت فواقعها فمُسِخا حجرين فوضعا عند الكعبة ليتعظ بهما الناس ، فلما طال مكثهما وعُبِدت الأصنام عبدا معها[1] .

ويرى بعضهم أن الوثنية نقلت إلى العرب من الشام[2] ، ويرى آخرون كذلك أن الأوثان لها صلة بالقبور والحجارة التى تعودوا أن ينصبوها على قبور الأبطال أو أنها تجسد لأبطال مشاهير احتلوا عند العرب مكان التقديس فلما ماتوا اتخذوا لهم التماثيل وأجلّوها ثم عبدوها .

وغلبت عبادة الأحجار على العرب وخضعوا لها وأنسوا بها ، ولكن بين هذا الظلام كان هناك من يدرك أن القوم فى ضلال ، فقد روى أنه اجتمع – فى أحد الاحتفالات التى كان يقيمها العرب لأصنامهم – أربعة من العرب هم ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو وعثمان بن الحويرث وعبيد الله بن جحش ، وقال هؤلاء بعضهم لبعض : والله ما قومنا على شىء ، لقد أخطئوا دين أبيهم إبراهيم ، ما حجر نطيف به لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع ؟ التمسوا لأنفسكم ديناً غير هذا الدين[3] . وقد أخذ هؤلاء يفكرون ، فاهتدى ورقة وعثمان للنصرانية والتبس الأمر على عبيد الله فبقى على حاله من الالتباس حتى ظهر الإسلام فأسلم ثم هاجر للحبشة وهناك تنصر ، وأما زيد فلم يدخل النصرانية ، ولكنه أبعد عبادة الأصنام عن نفسه[4] وأنكر ما رآه على العرب من أكل الميتة والدم وغيرها واعتقد بذلك أنه عاد إلى دين إبراهيم

---

(١) الأصنام لابن الكلبي ص ٩ ، ٢٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٨

(٣) الخضرى : تاريخ الأمم الإسلامية ج ١ ص ٦٠ .

(٤) الأصنام لابن الكلبى ص ٢١ .

ولذلك كان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول : يا معشر قريش ، والذى نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيرى ، وكان يناجى ربه قائلا : يارب ، لو أنى أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ، ولكنى لا أعلم[١] ، وهو الذى يقول :

تركت اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الرجل الخبير
فلا العزى أدين ولا ابنتيها ولا صنمَىْ بنى غَنْمٍ أزور
ولا هبلا أزور ، وكان ربًّا لنا فى الدهر إذ حلمى صغير[٢]

ومن هؤلاء أيضاً أمية بن أبى الصلت وقس بن ساعدة الإيادى .

* * *

وقد سبق أن أشرنا إلى أصنام العرب وقلنا إنه كانت لهم أصنام فى الكعبة أوحولها ، كما كانت لهم أصنام فى بيوتهم وأخرى فى مدنهم ومواقع أخرى لهم ، ويجدر بنا قبل أن نذكر أهم هذه الأصنام أن نوضح أن كلمة الأصنام قد تذكر ويراد بها الأوثان أو الأنصاب فكل منها قد تنوب عن النوعين الآخرين فى الاستعمال العام ، وقد سمى ابن الكلبى كتابه عنها « الأصنام » مع أنه تحدث فيه عن كل هذه الأنواع ، ولم يوضح ابن الكلبى الفرق بين هذه الأنواع توضيحاً شافياً ولعله كما يلى[٣] .

النصب : صخرة ليست على صورة إنسان ويغلب ألا يكون لها صورة خاصة .

الوثن : ما كان على صورة إنسان من حجر .

الصنم : ما كان على صورة إنسان من معدن أو خشب .

---

(١) الأصنام ص ٢١ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢ .

(٣) انظر كتاب الأصنام ص ٣٣ ، ٤٢ ، ٥١ : ٥٣ .

وأهم أصنام العرب[١] « هبل » وكان من العقيق الأحمر على صورة إنسان وكان مكسور الذراع فأبدله القرشيون ذراعاً من ذهب ، وكان هبل كبير الآلهة ومقره الكعبة المكرمة .

وهناك أصنام أخرى كثيرة عند العرب وأهمها :

اللات : صخرة مربعة أقيم عليها بناء بالطائف وهى عند ثقيف تسبق كل الأصنام .

العزى : كانت تعبد فى الحجاز وكانت أعظم صنم عند قريش بعد هبل وربما نافسته .

مناة : على ساحـــل البحر بين المدينة ومكة ، وكانت العرب جميعاً تعظمه وكانت الأوس والخزرج تذبح له وتقدم الهدْى ، وقد ورد ذكر هذه الثلاثة فى الآية الكريمة (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى[٢]) .

ود : تمثال رجل عظيم معه أدوات الحرب ، كان بدومة الجندل لكلب وقضاعة .

سواع : بأرض ينبع لهذيل .

يعوق : بأرض الطائف لطيء ومذحج .

يغوث : باليمن وكانت تعبده همدان .

نسر : باليمن وكانت تعبده حمير .

ويقول ابن الكلبى إن هذه الأسماء الخمسة كانت فى الأصل أسماء لقوم صالحين ، ولكنهم ماتوا فى شهر فجزع عليهم أقاربهم ، فقال لهم رجل يعمل بالنحت : هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم

---

(١) ماأورده هنا عن الأصنام هو إيجاز لأهم ما ذكره ابن الكلبى فى عدة أمكنة من كتاب الأصنام ، انظر ص ٩ إلى ص ٦٠ .

(٢) سورة النجم ١٩ - ٢٠ .

على أنى لا أقدر أن أجعل فيها أرواحاً ؟ قالوا : نعم : فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم . فكان أقاربهم يأتون حولهم معظمين ، وفى القرن الثانى زاد تعظيم الناس لهم ونحروا لهم وأهدوا ، وفى القرن الثالث خطوا خطوة أخرى فعبدوهم ، وقد بدأ ذلك قبل نوح[١] .

وكانت هذه الأصنام الخمسة تعبد فى عهد نوح ، ويبدو أن عرب الجاهلية جددوا عبادتها بعد نوح كما سبق القول ، وقد ورد ذكرها فى سورة نوح قال تعالى : « قال نوح : رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا ، ومكروا مكراً كباراً ، وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا[٢] »

وينبغى أن يتضح أن عبادة العرب للأصنام لم تكن عبادة ذاتية وإنما كانت فى نظرهم وسيلة يتقربون بها إلى الله (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى[٣]) وهذا دليل على أنهم لم ينسوا إله إبراهيم حتى حينما كانوا فى ظلماتهم يعمهون ، ومما يؤكد ذلك أن آلهتهم التى انتشرت فى الجزيرة العربية والتى أقاموا لها البيوت ورتبوا السدنة لم تشغلهم عن الكعبة بيت أبيهم إبراهيم فظلوا لها يحجون كما سبق القول ، والدارس لذلك الموضوع يدرك اضطراب هؤلاء العرب ، فهم بين موحدين على دين إبراهيم ، وبين وثنيين عبدة للأصنام . ويقول ابن الكلبى[٤] : ويوحدونه بالتلبية ويدخلون معه آلهتهم ويجعلون ملكها بيده ، يقول الله عز وجل : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون[٥]) أى ما يوحدوننى بمعرفة حقى إلا جعلوا معى شريكاً من خلقى .

---

(١) كتاب الأصنام ص ٥١ - ٥٣ . بنصه
(٢) سورة نوح ٢١ - ٢٣ .
(٣) سورة الزمر الآية الثالثة .
(٤) الأصنام ص ٧ .
(٥) سورة يوسف ١٠٦ .

وكان العرب يتقربون لهذه الآلهة بالقرابين من الماشية ، وكانوا فى وقت ما يتقربون لها بالقرابين من البشر ، ويدل على ذلك حادثة عبد المطلب الذى كان على وشك أن يتقرب للآلهة بذبح ابنه عبد الله كما سيأتى القول ، وكانوا كذلك يستقسمون عندها فيضربون بالأزلام ليروا ما قُسِمَ لهم ، فكان الواحد منهم إذا أراد أن يُقْدِم على شىء ذى بال كالزواج والسفر ذهب للكعبة ليستقسم وليرى ما تريده له الآلهة ، وكان يقوم بالاستقسام سدنة البيت .

وقد عرف الثالوث طريقه إلى ديانة عرب الجنوب ، وكان هذا الثالوث يتكون عند قتبان من « عم » وقد صوره عُبَّاده إلها ذكرا وقدموه على « الشمس » التى اعتبروها زوجته ، أما الأقنوم الثالث فى ثالوثهم الدينى فهو « عثتر » ابنهما(١) .

وبجانب عبادة الأوثان عرفت الديانات السماوية طريقها إلى العرب قبل الإسلام ، وقد سبق أن تكلمنا عن ملك اليمن الذى اسمه ذونواس وقلنا إنه اعتنق اليهودية واعتنقها معه كثير من رعيته ، وقد أخذ ذو نواس اليهودية من اليهود الذين هاجروا إلى اليمن كما كان هناك يهود فى يثرب وخيبر ووادى القرى وغيرها ، ويحتمل أن يكون هؤلاء اليهود نازحين من فلسطين أو أن يكونوا من العرب الذين اعتنقوا اليهودية .

وعرفت النصرانية طريقها إلى الجزيرة العربية ، وقد أشرنا إلى نصارى نجران الذين قبض عليهم ذو نواس السالف الذكر ، ودخلت المسيحية اليمن فى أثناء حكم الحبشة ، أما دولتا الشمال الغساسنة والمناذرة فقد عرفتا المسيحية أيضاً وبخاصة دولة الغساسنة التى كانت وثيقة الصلة بثقافات الروم ، ودخلت المسيحية أيضاً الحيرة حيث تنصرت الأسرة المالكة أو أغلبها ، وقد كانت بالحيرة بيعة ؛أورد ياقوت(٢) الكتابة التى

---

(١) فيليب حتى : تاريخ العرب ١ : ٨٠ .

(٢) معجم البلدان ج ٢ ص ٧٠٩ .

كانت على واجهتها ونصها « بنَتْ هذه البيعةَ هندٌ أمَةُ المسيح وأم عبده » وقد جاءت المسيحية للعرب عن طريق سوريا ومصر والحبشة فى أزمنة متعددة غير معروفة تماما ، ويغلب أن تكون فى القرنين الرابع والخامس وربما دخلت المسيحية قبل ذلك مع المسيحيين الفارين من التعــذيب والاضطهاد قبل أن يعتنق إمبراطور الروم المسيحية .

على أن اليهودية والمسيحية لم تكونا عظيمتى الخطر واسعتى الانتشار فى الجزيرة العربية ، فأما اليهودية فكانت دين الشعب المختار ، وكان دخول العربى فيها لا يحقق له المساواة مع اليهود من أبناء إسرائيل ، ولذلك لم يقبل العربى أن يدخل دينا يثبته فى طبقة أسفل من طبقة دعاة ذلك الدين ، وأما المسيحية فهى مملوءة بالتعقيدات التى لم يستسغها ذهن العربى ومملوءة بالخلافات الحادة التى سببت الغموض للدين وصرفت عنه من كان يمكن أن يتبعه من العرب .

عبادة الأصنام لم تكن جدية :

استعرضنا أديان العرب فى الجاهلية وبينا كيف انحرف العرب عن دين إبرهيم إلى عبادة الأصنام ، وأوردنا أشهر الأقوال فى سبب هــذا الانحراف ، كما ذكرنا أن عبادة الأصنام لم تشغل العربى عن دين إبرهيم بل ظلّ على صلة به ، وأوضحنا أن عبادة الأصنام كانت الغالبة فى الجزيرة العربية وكان انتشار اليهودية والمسيحية معها محدودا .

ولكن الذى يقرأ بإمعان كتاب الأصنام لابن الكلبى وهو بلا شك أهم مرجع فى هذا الباب يصل إلى حقيقة هامة هى أن عبادة الأصنام عند العرب لم تكن جدية ، وأنها لم تتعمق فى قلوبهم ، وأن الثورة على هذه الأصنام كانت تحدث من حين إلى آخر فيطيح الثائر برأس صنمه وينهال عليه تهشيما وسخرية ، وليس هذا فقط من العقلاء المفكرين كزيد بن عمر

وورقة بن نوفل وغيرهما ممن تحدثنا عنهم ، بل إن الثورة على الأصنام كانت تحدث من عابديها وأتباعها ، فكان العابد ينقلب فجأة إلى ساخر ساخط لأدنى الأسباب مما يدل على أن عبادتهم للأصنام كانت فى كثير من الأحوال سطحية لا تعمق فيها ، وسنورد هنا بعض ما ذكره ابن الكلبى مما يدل على ذلك :

كان لكنانة صنم يقال له « سعد » بساحل جدة ، فأقبل رجل منهم بإبل له ليقفها عليه ، يتبرك بذلك فيها ، فلما أدناها منه — وكان عليه أثر دماء — نفرت الإبل ، وذهبت فى كل وجه وتفرقت ، فأسف صاحبها لذلك وغضب على « سعد » وتناول حجرا ورماه به ، وقال : « لا بارك الله فيك إلها ، أنْفرْتَ علىَّ إبلى » ثم خرج فى طلبها حتى جمعها وانصرف وهو يقول :

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا ... فشتتنا سعد فلا نحن من سعد
وهل سعدٌ الا صخرة لا قوى لها ... تُرَجَّى ، فلا تُدعى لغىٍّ ولا رشد(١)

* * *

وكان لمُزَينةَ صنم يقال له « نُهْم » وكان له سادن يسمَّى خزاعى ابن عبد نهم ، فلما سمع بالنبى صلى الله عليه وسلم ثار على الصنم فكسره وأنشأ يقول :

ذهبت إلى نهم لأذبح عنده ... عتيرة نُسك كالذى كنت أفعلُ
فقلت لنفسى حين راجعت عقلها ... أهذا إله ؟ أبكمٌ ليس يعقلُ
أبَيْتُ ، فدينى اليوم دين محمد ... إلهُ السماء الماجدُ المتفضِّل(٢)

* * *

(١) ابن الكلبى ص ٣٧ .

(٢) الأصنام ص ٣٩ — ٤٠

وكان لخَثْعَم وبَجيلة وأزْد السَّراة ومن قاربهم من بطون العرب من هوازن صنم يُقال له « ذو الخَلَصَة » وكان موضوعا بتبالَه بين مكة واليمن على بعد سبع ليال من مكة ، وكانوا يعبدونه ويستقسمون عنده ، فلما أقبل امرؤ القيس بن حُجرٍ يريد الغارة على بنى أسد لأنهم قتلوا أباه ، عرَّج على « ذى الخَلَصَة » فاستقسم عنده ثلاث مرات ، فخرج « الناهى » أى الأمر بمنعه مما أراد من الهجوم على بنى أسد للثأر منهم . فلما كانت الثالثة ناهيــة أيضاً كسر امرؤ القيس القداح وضرب بها وجه الصنم وقال : عضِضْتَ بإير أبيك ! لو كان أبوك قُتِلَ ما عوقنى » وسار امرؤ القيس فى طريقه للثأر وهو ينشد :

لو كنت يا ذا الخَلَص الموتورا
مثلى وكان شيخك المقبورا
لم تنه عن قتل العداة زُورا

ويقول ابن الكلبى : إن امرأ القيس بعد ذلك غزا بنى أســد وظفر بهم[١] .

---

(١) الأصنام ص ٣٤ - ٣٥ ، ٤٧ .

الأسرة :

ليس من الممكن أن يضع الباحث نظاما موحدا للأسرة العربية فى الجاهلية ، فقد اختلفت العادات اختلافاً كبيراً فى بعض الأحيان ، ومرجع ذلك هو النظام القبلى الذى يجعل القبيلة وحدة مستقلة لها عاداتها وأخلاقها التى قد تبعد عن عادات القبائل الأخرى وأخلاقها .

ولكن مع هذا فهناك ظاهرة تكاد تكون واضحة عند كل القبائل العربية وهى الحرص على المرأة واعتبار عرضها أغلى من النفس والمال والولد، ومن مظاهر هذا الحرص أن ظهرت عند العرب عادة أخذ النساء فى مؤخرة الجيوش ليدرك المحارب أن هزيمته ستجعل عرضه مباحاً لأعدائه ، وكان هذا كفيلا أن يستميت المحارب فى الصراع ، وسنرى فى هذا الكتاب نماذج كثيرة من هذا النوع .

على أن المرأة كثيراً ما كانت تنتهز فرصة لحوقها بالجيش فتشجع الرجال وتشد أزرهم . وفى يوم « ذى قار » الذى كان بين الفرس وبين بكر وقفت امرأة من بنى عجل تنشد مستحثة الرجال على الجلاد ، واعدة — باسم صواحبها — المنتصرين مهددة المهزومين ، قالت المرأة فى رجز لها :

إن تَهزِموا نعانقْ ونفرش النمارقْ
أو تُهزَموا نفارقْ فِراقَ غيرِ وامقْ[١]

وطالما اشتط هذا الحرص فسبب المآسى والمصائب والعار والشنار ، فعمرو بن المنذر بن ماء السماء تدين له الحيرة ، ولكنه يسأل يوماً جلساءه : هل تعلمون أحداً من العرب يأنف أن تخدم أمه أمى ؟ فقالوا ، لا إلا أن يكون عمرو بن كلثوم . فاستضاف عمرو بن المنذر وأمُّه هندٌ عمراً ابن كلثوم وأمَّه ليلى بنت مهلهل ، وطلب ابن المنذر من أمه أن تستخدم ليلى فى زحزحة

(١) انظر أيام العرب فى الجاهلية لجاد المولى وزميليه ص ٣١ .

بعض الأطباق ومناولتها لها وهن يأكلن ، ففعلت هند ولكن ليلى أجابتها قائلة : لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها ، وحاولت هند ذلك مرة أخرى ولكن ليلى أدركت ما يراد بها وأن كرامتها جرحت فصاحت : واذلاه ! فسمعها ابنها فسارع إلى سيف معاق فاختطفه وقتل به عمرو بن هند .

ومن هذه القصة التي أوردناها موجزة تظهر لنا مكانة المرأة العربية ممثلة فى هند وليلى ، وتظهر لنا حساسيتها المرهفة ممثلة فى ليلى ، ثم ندرك أن كلمة واحدة نطقت بها ليلى معبرة عن استيائها فسببت هذه الكلمة مصرع الملك .

ومن اشتطاط الحرص وأد البنات الذى عرف فى بعض قبائل العرب خوفاً عليهن من العار أو الأسر ، ولم يكن بطبيعة الحال وأد البنات كثير الانتشار وإنما وجد فى بعض بنى أسد وتميم .

وتتكون الأسرة العربية فى الغالب تكويناً عادياً ، بأن يخطب الرجل المرأة من ذويها فإذا قبلت خطبته أخذها لبيته وبنى بها . ويكثر أن تستشار المرأة فى أمر زواجها ، وتقص كتب الأدب والتاريخ حكاية عن أوس بن حارثة وبناته الثلاثة حينما جاءه الحارث بن عوف خاطباً ، فاستدعى أوس كبرى بناته وعرض عليها خطبة سيد العرب فاعتذرت بأن فيها بعض العيوب وليست هناك بينها وبين الحارث قرابة يرعاها بها ولا هو جار لأبيها فيستحى منه . وقالت إنى أخشى أن يطلقنى فيكون علىّ فى ذلك مافيه ، فاستدعى أوس الوسطى فقالت كما قالت أختها . فاستدعى الصغرى فقبلت ، فذكر لها أبوها امتناع أختيها والأسباب التى دعت لهذا الامتناع فقالت الصغرى : لكنى والله الجميلة وجهاً ، الصناع يداً ، الرفيعة خلقاً ، الحسيبة أباً . فسأل أبوها : ألا تخافين الطلاق ؟ فأجابت : إن طلقنى مع ما بى فلا بارك الله فيه . فزوجها منه .

ومن هذه القصة ندرك كذلك أن العرب كانوا يعرفون الطلاق وكانوا يخافونه وينفرون منه .

وكان الطلاق بيد الرجل إن شاء أبقى وإن شاء طلق ، ولكن بعض النساء كن لا يتزوجن إلا إذا كان لهن حق الطلاق ، ومن هؤلاء سلمى بنت عمرو إحدى نساء بنى النجار وهى أم عبد المطلب بن هاشم .

ومن عادات العرب ألا يزوجوا بناتهم لغير العرب ، وقد حاول كسرى ملك الفرس مرة أن يخطب لنفسه من بنات تابعه النعمان بن المنذر ملك الحيرة فقيل له : أيها الملك ، إن شر شيء فى العرب أنهم يتكرمون عن العجم . ولكن ذلك لم يثن كسرى عن رغبته فأرسل إلى النعمان ، وثار النعمان لذلك وقال : أما فى مها السواد وعين فارس ما يبلغ به كسرى حاجته ؟ وكتب النعمان لكسرى يقول : إن مطلب الملك ليس عندى . وقد دفع النعمان حياته ثمناً لموقفه ذلك ولكن العرب ظلوا على هذه الحال كما لا يزال الكثيرون منهم حتى الآن .

وكانت المرأة البدوية لا تحب أن تتزوج فى الحضر ، وأعظم مثال لذلك ميسون زوجة معاوية وأم يزيد التى لم تطق حياة دمشق والقصور والنعيم وتاقت إلى الخيام والانطلاق فى الصحراء وكتبت فى ذلك قصيدة طويلة منها :

ولبس عباءة وتقر عينى   أحب إلىَّ من لبس الشفوف
وأطياف الرياح بكل فج   أحب إلىَّ من قصر منيف
وأكل كسيرة من كسر بيتى   أحب إلىَّ من أكل الرغيف

فلما عرف معاوية ذلك أعادها إلى أهلها بالبادية .

ولم يكن عدد الزوجات عند العرب فى الجاهلية محدوداً ، وقد أوردت كتب الفقه الإسلامى نماذج كثيرة لأزواج أسلموا وتحت كل منهم عدد يربو على الأربعة ومنهم من كانت زوجاته عشرة فأمروا باختيار أربعة ومفارقة الباقيات ، ويحب العرب كثرة البنين ودعاؤهم عند

الزواج هو : بالرفاء والبنين ، ومن الواضح أن البنين هم عماد الأسرة العربية التى لا تعيش إلا فى حراسة السيوف والدروع التى يستعملها الشبان .

والمرأة العربية خير رفيق لزوجها وخير عون له لأنها تجيد من الفنون ما يجعلها فى مستوى ثقافى يلائم زوجها ، فالرعى والاستسقاء والغناء وقول الشعر والرقص والغزْل والنسيج وشد الخيام وضمها كل ذلك كانت تجيده المرأة العربية بالإضافة إلى واجباتها كأم وربة بيت .

ولم تعرف المرأة العربية الحجاب فى عصور الجاهلية ، كما لم تعرفه فتاة البادية العربية حتى الآن ، فإنها لا تزال تصحب زوجها متأبطة يده على نسق ما يفعل الأوربيون[1] . أما الحجاب المنتشر فى مدن الجزيرة العربية الآن ، سواء منه غطاء الوجه أو المنع من الخروج للحياة العامة المعروف بنظام « الحريم » فهو نظام أدخله الأتراك إلى العالم الإسلامى إبان سلطانهم وقد صبغوه بصبغة إسلامية ، ولكنه فى الواقع غريباً وليس إسلامياً[2] .

ومن الأشياء التى قاستها المرأة العربية فى بعض الأحوال أن زوجة الأب كانت تورث كما يورث المتاع ، وقد كان ذلك غير شائع وكانوا يسمونه نكاح المقت ، وكان مقصوراً على المرأة التى لا ولد لها ، ويعلل له بعضهم بأنه نتيجة لنظام العرب فى الزواج ، ذلك النظام الذى كان يعتبر زواج المرأة إلحاقاً لها بزوجها وقطعاً للصلة التى كانت لها بأبيها وإخوتها .

وكانت الأسرة وحدة ينتصر أفرادها بعضهم لبعض فى حالتى الظلم والعدل ومن أمثلتهم الشائعة « انظر أخاك ظالماً أو مظلوماً » وإذا كان

---

(١) حافظ وهبة جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ١١٣ .

(٢) انظر « المرأة فى الإسلام » للشيخ كمال عوف ص ١١٨ .

هذا موقف الأخ من أخيه فإن أبناء الاثنين سرعان ما يصبحون أعداء وسرعان ما تنشب بينهم الحروب كالعداء الذى حصل بين بنى عبد الدار وبنى عبد مناف ابنى قصى وكالعداء الذى حصل بين ابنى عبد مناف هاشم وأمية بن عبد شمس والذى حصل بين العباسيين والعلويين والفرعان من أولاد عبد المطلب بن هاشم وهكذا .

الرسول منذ ولد إلى أن بعث

آن لنا أن نتكلم عن الرسول صلوات الله عليه ، وأن ندخل فى نطاق التاريخ الإسـلامى ، فلنبدأ ذلك بالحديث عن أبوى الرسول ثم عن ميلاده ونشأته .

عبد الله بن عبد المطلب :

روى عن الرسول صلوات الله عليه أنه قال : أنا ابن الذبيحين ، والذبيح الأول هو إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، والذبيح الثانى هو أبو الرسول عبد الله بن عبد المطلب ، وقصة الذبيح الثانى ترينا بعضاً من عادات العرب سبق الحديث عنها ، وهى أن العرب كانوا يتقربون إلى الآلهة بتقديم القرابين التى تكون أحياناً من دماء البشر ؛ وترينا هذه القصة كذلك عادة الضرب بالقداح واتباع ما توصى به هذه القداح .

وقد قص القرآن الكريم قصة الذبيح الأول فى قوله تعالى « فبشرناه بغلام حليم ، فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ، فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين ، إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم ، وتركنا عليه فى الآخرين ، سلام على إبراهيم »[1] .

أما قصة الذبيح الثانى فترويها لنا كتب التاريخ وبخاصة كتاب الأصنام لابن الكلبى[2] وتاريخ الطبرى[3] وخلاصة هذه القصة أن عبد المطلب

---

(١) الصافات ١٠١ – ١٠٩ وانظر الطبرى ج ١ ص ١٨٤ .

(٢) ص ٨ و ٢٧ – ٢٨ .

(٣) ج ٢ ص ١ – ٦ .

كان عليه سقاية الحاج . وكان عليه أن يحضر الماء لذلك من آبار بعيدة ويعدُّه فى أحواض ليشرب منها الحجيج كما تقدم ، وكان هذا العمل صعبا يحتاج إلى أياد كثيرة وإلى جهد كبير ، ولذلك فكر عبد المطلب فى إعادة حفر بئر زمزم ، ولكنه وجد كثيرا من العنت من قريش ، ولولا صبره ودأبه ما نفذ هذا العزم ، ومن أجل هذا نذر لئن ولد له عشرة ثم شبوا وأصبحوا يمنعونه لينحرنّ واحدا منهم عند الكعبة تقربا لآلهة قريش ، فلما حقق الله أمنيته أراد أن يفى بنذره فجمع أولاده عند هبل وهو أعظم الأصنام التى تعبدها قريش وطلب إلى صاحب القداح أن يضرب عليهم ، فخرجت القرعة على عبد الله وهو أصغر أولاد عبد المطلب وأحبهم إليه ، فأخذه عبد المطلب بيده وأخذ الشفرة وذهب به ليذبحه عند أساف ونائلة وهما وثنا قريش اللذان تقدم عندهما القرابين ، فكفَّته قريش وبنوه وقالوا : لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه ، وأشاروا عليه أن ينطلق إلى عرافة شهيرة بخيبر ليستشيرها ، فذهب إليها فأشارت عليه أنْ يعيد الضرب بين عبد الله وبين عشرة من الإبل ، فإن خرجت القرعة على الإبل فلتكن هذه دية لعبد الله وإن خرجت على عبد الله زيد عليها عشرة أخرى وهكذا حتى ترضى الآلهة بالدية . فاستجاب عبد المطلب لرأى العرافة وظلت القرعة تخرج على عبد الله حتى بلغت الإبل مائة فخرجت على الإبل فنحرها عبد المطلب وترك لحمها حلالا للناس والحيوان والطير .

ونجا عبد الله بذلك من الذبح ، ولكن هذه الحادثة أذاعت اسمه وأكسبته شهرة عظيمة ، وأصبح موضع عناية الناس وحديثهم وحبهم ، وزوجه والده بعد ذلك من آمنة بنت وهب . وعاش معها فترة قصيرة بعد الزواج ، ثم تركها وسافر متاجراً إلى الشام ، ومات فى الطريق دون أن يعود إلى زوجته ، ولكن بعد أن أودع بضعها نطفة[1] كان مقدرا

---

(١) ابن القيم : زاد المعاد ١ : ١٧ .

لها أن تكون أعظم شخصية فى تاريخ البشرية . فكأنما نجا عبد الله من الذبح لغرض واحد هو الالتقاء بآمنة وتكوين هذا الجنين ، وبعد أن أدى عبد الله هذا الغرض أذن بالرحيل .

آمنة بنت وهب :

إذا كان عبد الله قد أدى مهمته فى الحياة بزواجه بآمنة وتكوين هذا الجنين ، فإن مهمة آمنة لم تنته بذلك ، فالحمل والحضانة والإشراف على الصبي استدعى أن تمتد الحياة بآمنة بضع سنين ، والباحث النفسى يدرك سرور آمنة بزواجها من عبد الله ذى الشباب الغض والشهرة الذائعة ، ويدرك أن موت عبد الله بعد هذا الالتقاء الوجيز كان حقيقا أن يحطم قلب آمنة ، ولكن التاريخ يثبت لنا هدوء آمنة فى غمرة الحزن ورضاها مع الأسى ، وقد وجدت آمنـــة سلواها فى طفلها الصغير ولكنها سرعان ما ماتت عندما كان طفلها فى السادسة من عمره ، وكانت وفاتها فى موضع يقال له الأبواء بين مكة والمدينة[١] .

لقد شاء الله فيما يبدو أن يتولى هو تربية محمد وأن ينزعه من أسرته ليصبح فى رعاية الله تمهيدا للأسرة الكبيرة التى سيكون زعيمها والتى لا تهتم بجنس ولا لغة وإنما أكرم الناس فيها هو أكثرهم تقوى لله ، وقد عبر القرآن عن هذا المعنى بالآية الكريمة « ألم يجدك يتيما فآوى »[٢] وعبر عنه الرسول بقوله : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

صوام محمد :

كان محمد ثمرة هذا الالتقاء القصير ، وقد ولد فى التاسع أو الثانى عشر من شهر ربيع الأول (٢٠ أبريل سنة ٥٧١ م) ولم ير محمد أباه

(١) ابن القيم : زاد المعاد ١ : ١٧

(٢) الضحى ٦ .

ولذلك كفله جده عبد المطلب وأرضعته حليمة السعدية ، ولما شب عندها أخذ يرعى الغنم ، ولما مات جده كفله عمه أبو طالب ، وتربى فى بيته وساعده في أعماله التجارية ، وسافر إلى الشام متاجرا قبل أن يبلغ الحلم[١]، وعندما كانت سنه أربع عشرة سنة وقعت حرب الفجار الرابعة ، وكانت بين قريش وكنانة من جهة وهوازن من جهة أخرى ، وقد حضر الرسول هذه الحرب ، ويروى عنه قوله : كنت أنبل على أعمامى يوم الفجار وأنا ابن أربع عشرة سنة ، أى أناولهم النبل : وسميت حرب « الفجار » لوقوعها فى الأشهر الحرم التى يحرم العرب الحرب فيها وهى ذو العقدة وذو الحجة والمحرم ورجب ، وحروب الفجار خمسة اشتركت فيها القبائل التى سبق ذكرها كنانة وهوازن وقريش[٢] .

ومن أهم الأعمال التى قام بها محمد قبل البعثة تجارته فى مال خديجة بنت خويلد ، وقد سافر فى هذه التجارة إلى الشام وكان معه غلامها ميسرة وقد ربحت هذه التجارة ربحا عظيما وكانت سبب ارتباط بين محمد وخديجة وقد تم هذا الارتباط بزواجه منها وهو فى الخامسة والعشرين وهى امرأة فى الأربعين من عمرها[٣] ، تزوجت قبله مرتين[٤] .

وقد عرف محمد فى جميع مراحل حياته بالخلق الطيب ، والبعد عن الشبه والخمر ومجالس اللهو والميسر وغير ذلك مما كان يميل له العرب فى ذلك الوقت ، وكان لحسن خلقه يعرف بالأمين .

ولما بلغ الخامسة والثلاثين جددت قريش بناء الكعبة ، وقد كان الرسول يعمل مع قريش فى نقل الحجارة والبناء ، ولما أتمت قريش العمل وأرادت

---

(١) ابن القيم : زاد المعاد ١ : ١٧ .

(٢) انظر العقد الفريد ٣ : ٣٧١ – ٣٧٣ .

(٣) ابن القيم : زاد المعاد ١ : ١٨ .

(٤) ابن قتيبة : المعارف ص ٦٥ .

وضع الحجر الأسود اختلفت البطون فيمن يكون له شرف حمله ووضعه ، وكادت تنشب الحرب بينهم ، ثم اتفقوا على أن يحكموا أول داخل عليهم من باب شيبة ، فكان محمد أول داخل فقالوا : هذا هو الأمين رضيناه حكما وأخبروه الخبر . فبسط رداءه ووضع الحجر عليه وقال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، فرفعوه حتى انتهوا إلى موضعه فأخذه الرسول ووضعه فى مكانه ، وكان فى عمله هذا حكيما أرضى الجميع .

واتفق المؤرخون والباحثون على أن محمداً لم يعبد صنما قط وبغضت إليه الأوثان ودين قومه(١) ، وإنما كان يخلو لنفسه ويفكر فى الكون وصانعه ، وكان يجاور فى حراء من كل سنة شهرا(٢) واستمر كذلك حتى عبد الله على دين إبراهيم الخليل الذى كان يدين به بعض العرب الذين لم يقبلوا عبادة الأوثان مثل قس بن ساعدة واكثم بن صيفى وأمية بن أبى الصلت . وكما تنزه محمد عن عبادة الأصنام فإنه تنزه كذلك عن مذمومات الجاهلية التى كان يغرق فيها شباب العرب فى ذلك العهد(٣) .

بعثة الرسول :

هيأ مال خديجة للرسول فرصة للتفرغ للعبادة ، فقد تزوج محمد خديجة فاغتنى بمالها « ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى »(٤) وكان محمد كما قلنا يخلو لنفسه ويفكر فى الكون ، ومنحه الغنى فرصة للفراغ والمزيد من التفكير ، ومنحه تقدم سنه مزيدا من العمق ، ومنحته أخلاقه الحسنة مزيدا من الصفاء ، وشملته عناية الله فرأى

---

(١) زاد المعاد ١ : ١٨ .

(٢) ابن هشام ١ : ١٥٣ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٧٤ .

(٤) الضحى ٦ – ٨ .

أن يخلو لله ، وشجعته زوجته الصالحة على رغبته فكانت تُعِدُّ له الطعام ؛ فيأخذه ويذهب إلى غار حراء ، حيث يخلو ليفكر فى الكون وخالقه والموت ومصير الناس بعده وهكذا . وصفت نفس الرسول فأصبحت رؤاه تتحقق ولا تكاد تتخلف .

بدء الوحى : وظل محمد يخلو ويفكر حتى نزل عليه جبريل يوم الاثنين السابع عشر من شهر رمضان ، وناداه :

– اقرأ .

– ما أنا بقارئ .

– اقرأ .

– ما أنا بقارئ .

– اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم[1] .

وكانت هذه أول آيات من القرآن الكريم[2] ، ومن الملاحظ أن هذه الآيات لم تكلف محمدا بدعوة ، ولم تخبره برسالة ، ولم تكن إلا إعلاما بشيء غير عادى لم يدرك محمد كنهه ، ولذلك أسرع إلى البيت خائفا مذعورا وبخاصة أن جبريل كان يضمه ضمة قوية ثم يطلقه ويقول له اقرأ ، فإذا أجاب : ما أنا بقارئ ، عاد جبريل فضمه ثم أطلقه وقال له : اقرأ ، وهكذا .

مراحل الدعوة :

وانقطع جبريل عن الرسول مدة بعد ذلك ، وكان الرسول يترقبه فى الغار وخارج الغار ، فسمع مرة صوتاً فرفع رأسه للسماء فرأى الملك ،

(١) العلق ١ – ٥ .

(٢) زاد المعاد ١ : ١٩ – ٢٠

فهاب المنظر وارتعد ورجع إلى بيته فى حالة من الخشية ، وقال لأهله : دثرونى دثرونى . فدثروه ، وجاءه جبريل وهو فى هذه الحال فألقى إليه نداء ربه : « يأيها المدثر قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر »(١) .

فكانت هذه الآيات هى الآيات الأولى التى كلفت الرسول بالدعوة ، وكلفته بأن ينذر من لا يهتدون ، وبدأت بهذه الآية مراحل الدعوة للدين الجديد(٢) .

ويمكن القول أن هذه الآية وضعت حداً لعصر الجاهلية الذى سبق أن تكلمنا عنه وافتتحت عصراً جديداً للعرب هو عصر النور أو عصر الإسلام ، ومن الواضح مما ذكرناه من قبل عن العرب قبل الإسلام أن كلمة الجاهلية لم يقصد بها الجهل ، فقد كان فى الجزيرة العربية حضارة فائقة وكان لكثير من ممالكها ثقافة ومجد ولكن المقصود بالجاهلية هو التخبط فى المسائل الدينية فجاء الإسلام ليضع حداً لهذه الضلالة ويدعوهم لدين واحد وإله واحد .

المرحلة الفردية :

هى المرحلة الأولى من مراحل الدعوة ، وفيها دعا الرسول سرا أهل بيته كما دعا خاصة أصدقائه ، وكان يدعوهم لمبادئ الإسلام الأولى التى ذكرتها هذه الآية وهى الإيمان بالله ونبذ عبادة الأوثان ، فآمن به فى هــذه المرحلة زوجته ، وابن عمه على وزيد مولاه ، ثم دعا الرسول أبا بكر وكانت له به صلة فآمن به ، وعن طريق أبى بكر أسلم السابقون الأولون : عثمان بن عفان والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله ، وأبو عبيدة

---

(١) المدثر ١ – ٧ .

(٢) انظر زاد المعاد ١ : ٢٠ .

ابن الجراح ، والأرقم بن أبي الأرقم الذى اتخذت داره لتكون مقراً للدعوة السرية للدين الجديد ، ودخل مع هؤلاء مجموعة من الموالى والفقراء[١]. وقد استمرت هذه الدعوة السرية ثلاث سنوات .

دعوة بنى عبد المطلب :

هذه هى المرحلة الثانية من مراحل الدعوة ، وقد بدأها الرسول عندما نزل عليه قوله تعالى « وأنذر عشيرتك الأقربين »[٢] فدعا بنى عبد المطلب فاجتمعوا به وقال لهم : إنى ما أعلم شابا جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، فلقد جئتكم بخير الدنيا والآخرة . فصدق به بعضهم وكذب به آخرون ، وكان عمه أبولهب هو وزوجته من أشد الناس قسوة عليه ، فقد هتف به : تباً لك ، ألهذا دعوتنا ؟ فنزل قوله تعالى : « تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى نارا ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب فى جيدها حبل من مسد »[٣] .

وقد كانت هذه المرحلة بدء الجهر بالدعوة للدين الجديد ، ولذلك مهدت للمرحلة الثالثة من مراحل الدعوة وهى التى سنتكلم عنها فيما يلى :

الدعوة العامة :

نزل قوله تعالى « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين »[٤] فانطلق الرسول يدعو للإسلام جهراً كل طوائف الناس ، يدعو السادة والعبيد ، يدعو الأقربين والغرباء ، يدعو أهل مكة ثم يتجاوزها إلى البلاد الأخرى ، وكذلك يدعو الحجاج الذين يفدون إلى مكة من مختلف البلدان .

---

(١) ابن هشام ١ : ١٦٥ وزاد المعاد ٢ : ٤٢ – ٤٣ .

(٢) الشعراء ٢١٤ .

(٣) سورة المسد .

(٤) الحجر ٩٤ .

مقاومة قريش وأسبابها ومراحلها :

بدأت الدعوة للإسلام سراً كما قدمنا وقد وصلت أخبارها إلى قريش ، ولكن قريشاً لم تهتم بها إبان المرحلة السرية ، إذ لم تتصور قريش أن الدعوة ستقوى وتشتد ويعتنقها أفراد كثيرون ، ولذلك ما إن بدأ الرسول يجهر بالدعوة حتى أعلنت قريش حنقها على هذا الدين الجديد ، وسلكت كل السبل للقضاء عليه ، وقبل أن نتحدث عن هذه السبل أو ما سنسميه مراحل المقاومة يجدر بنا أن نبين الأسباب التى جعلت قريشاً تقاوم دين الإسلام هذه المقاومة القاسية .

أسباب المقاومة :

نستطيع من دراستنا لحياة العرب وأخلاقهم أن نستنبط أسباب مقاومتهم للإسلام وللمسلمين ، وتلك الأسباب هى :

١ — السيادة القبلية والتنافس عليها : لم تستطع قريش أن تفرق بين النبوة والسيادة أو بين النبوة والملك ، وحسبوا أن التسليم بدين محمد معناه التسليم بالزعامة له ولآله من بنى عبد المطلب ، وكانت هناك منافسة شديدة بين قبائل العرب على الرياسة والسلطان فلم يكن من الممكن أن تسلم قريش زمامها لمحمد ولبنى عبد المطلب وأن تفقد بطونها المختلفة مكانتها وسيادتها .

٢ — المساواة بين السادة والعبيد : كان العرب يهتمون بالطبقات اهتماما شديداً فلكل إنسان طبقته التى يجب ألا يتعداها ، وإذا بدعوة محمد تجعل المساواة بين الناس أساسا هاما من أسسها ، وتسوى بين السيد وعبده ، بل تجعل العبد أفضل من سيده لو كان أكثر منه تقى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم »[1] ومن أجل هذا لم يقبل السادة أن يدخلوا فى هذا الدين الذى يهدم تقاليدهم وأسس الحياة عندهم ويسوى بينهم وبين العبيد الأذلاء .

(١) الحجرات ١٣ .

٣ – الفزع من البعث : يقرر الدين الإسلامى أن هناك بعثا بعد الموت وأن هناك حسابا للناس ، يكافأ المحسن فيه على إحسانه ، ويعاقب المذنب على سيئاته وآثامه ، قال تعالى « القارعة ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة ، يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش ، فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه فأمه هاوية ، وما أدراك ماهيه ، نار حامية »(١) .

وقال « فإذا جاءت الصاخة يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه »(٢) .

ولم تستطع قريش أن تقبل هذا الدين الذى يعيد الإنسان للحياة بعد الموت ، ويعيده ولا سلطان له ولا نفوذ بيده ، ثم يحاسب هذا الإنسان بعدالة على ما ارتكبه ، ما أبشع الصورة التى تصورها زعماء قريش للإسلام ، تلك الصورة التى دفعتهم إلى رفض هذا الدين الجديد وعدم اتباعه والدخول فيه ، إنها صورة العدالة التى لا يرضاها الظالم وصورة الحساب الذى يفر منه المذنبون .

٤ – تقليد الآباء : كان تقليد الآباء واتباع سلوكهم فى العبادات والمعاملات شيئاً راسخا عند العرب ، ولذلك كرهوا أن يخرجوا من دين آبائهم وأن يتبعوا دينا جديداً ، وصاحوا فى غباء وجمود « حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا » فهزئ بهم سبحانه وتعالى بقوله : « أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون »(٣) .

٥ – بيع الأصنام : كان هذا السبب ماديا ، فقد كان بين العرب من يحترف نحت الأصنام على شكل اللات والعزى ومناة وهبل ، وكان هؤلاء

---

(١) سورة القارعة .

(٢) عبس ٣٣ – ٣٧ .

(٣) سورة المائدة ١٠٤ – ١٠٧ .

يبيعون هـــذه الأصنام للحجاج الذين كانوا كثيراً ما يشترونها للتبرك والذكرى ، فلما جاء الإسلام حرم عبادة الأصنام ونحتها وبيعها ، ووجد هؤلاء التجار فى الإسلام حائلا بينهم وبين أرباحهم وعاملا يقضى على تجارة الأصنام بالكساد والبوار ، ولذلك سرعان ما قاوموا الإســلام وثاروا عليه .

ومما يتصل بهذا السبب المالى أيضاً إحساس ســدنة الكعبة بأنهم سيفقدون ما كانوا يتمتعون به من ثروة ونفوذ بسبب خدمتهم للأصنام ورعايتهم لزائريها[١] . كما ظن أهل مكة على العموم أن الكساد سوف يصيبهم جميعا بسبب إعراض الحجيج عن مكة إذا بطلت عبادة الأصنام بها.

مراحل المقاومة :

لم توجه قريش اهتماما ذا بال لمقاومة أول الإسلام فى عهده كما قلنا ، وظنوا أن دعوة محمد ليست إلا حركة تفتر وتختفى بعد قليل من تلقاء نفسها .

ولكن سرعان ما بدا لهم أن الدعوة تدخل عليهم بيوتهم وأن عبيدهم الذين كانوا يعدون ضمن المتاع يدخلون هذه الدعوة الجديدة ، لذلك اتجهت الخطوة الأولى من خطوات المقاومة إلى العبيد والضعفاء ، لأن محمدا إذا كان حرا يقول ما يريد ، فهؤلاء العبيد فى نظرهم ليسوا أحراراً فى أبدانهم ولا فى عقولهم ، وعلى هذا تعرض ياسر وابنه عمار وزوجته سمية كما تعرض بلال وخباب بن الأرت وغيرهم إلى ألوان قاسية من العذاب ليس فيها خلق ولا رحمة ، وقد شمل هذا العذاب الضرب والحرمان من الطعام والشراب ، وامتد العذاب بهؤلاء العبيد حتى كانت توثق ظهورهم بالرمضاء وتوضع فوقهم الحجارة المحماة الثقيلة ، وقد مات ياسر وهو يعذب . ولما صرخت امرأته شاكية طعنها أبو جهل بحربة

---

(١) انظر حياة محمد للدكتور هيكل ص ١٧٥ - ١٧٩ .

فقتلها[1] . وكان من نتائج تعذيب هؤلاء أن اشترى أغنياءُ المسلمين كثيرين من هؤلاء العبيد وأعتقوهم .

تلك هي المرحلة الأولى من مراحل مقاومة قريش للإسلام وصدهم عن سبيل الله ، وقد اقتصرت هذه المرحلة على العبيد والضعاف .

وتجيء بعد ذلك المرحلة الثانية حيث امتد الاعتداء إلى أتباع الدين الجديد جميعا ، إذ رأت قريش أن الدعوة زاد انتشارها وانضم لها بعض الأشراف وبدأ خطرها يظهر ، فعمّ الاعتداء كل المسلمين وأصبح كل مسلم هدفاً للهجوم والإيذاء من المشركين مهما كانت مكانته فى قريش ومهما كان ثراؤه ومهما كان جاهه وقوته ، وعلى هذا تعرض لإيذاء قريش سادة أمجاد مثل أبى بكر وعثمان والزبير وأبى عبيدة ، وربما كان من الممكن أن يدافع هؤلاء عن أنفسهم ، ولكن الإذن باستعمال القوة — ولو للدفاع — لم يكن قد جاء بعد كما سيأتى تفصيله عند الحديث عن الإسلام والقتال ، ولذلك احتمل المسلمون الأُول ألوانا من العسف والقسوة والطغيان أنزلتها بهم قوى الشر بمكة .

ويمكن القول أن الرسول نفسه لم يمسسه إيذاء يذكر فى هذه المرحلة لمكانة بنى هاشم ومكانة أبى طالب الذى أخذ على نفسه حماية ابن أخيه[2] . ومن نتائج الإيذاء الذى وقع على المسلمين أن هاجر هؤلاء إلى الحبشة كما سنوضحه فيما يلى ، ثم نعود — بعد الكلام عن الهجرة إلى الحبشة — إلى استكمال مراحل المقاومة بشرح المرحلة الثالثة حيث تعرض الرسول نفسه للإيذاء والاعتداء .

هجرة المسلمين الى الحبشة :

ولما نزل الأذى بالمسلمين ، وأصابهم البلاء من قريش ، وأصبحت

(١) ابن هشام ١ : ١٧٢ ، ٢٠٢ وابن القيم ٢ : ٤٣ . وقرأ كذلك « شهداء الإسلام فى عهد النبوة » للدكتور على النشار .

(٢) ابن هشام ١ : ١٦٩ .

حالة المسلمين تدعو للأسى بسبب ما لاقوه من قريش من إيذاء وهجوم ، بدأ الرسول يفكر فى بلدة أخرى يرسل لها هؤلاء المسلمين ليبعدوا عن قريش وعن هجمات قريش .

أى البلاد يختار ؟

هل يرسلهم إلى اليمن ؟ لا ، إن اليمن خاضعة للفرس ، والفرس لايعتنقون الأديان السماوية ولا يحترمونها بدليل أن كسرى ملك الفرس أرسل إلى باذان عامله على اليمن يقول له : ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين جلدين من عندك فليأتيانى به .

هل يرسلهم إلى مواطن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ؟ لا ، فقد كان أهل الكتاب فى نزاع ومنافسة فهم لايقبلون منافسا ثالثا يقول بالله الذى يقولون به .

هل يرسلهم إلى الشام أو الحيرة ؟ لا ، فإن الشام والحيرة مكانان لقريش فيهما نفوذ كبير بسبب الصلات التجارية التى تربطهم بسكانها .

إلى أين يرسلهم ؟ إلى الحبشة فقد كان الرسول يعرف أن بها ملكاً لايظلم عنده أحد ، وهكذا استقر رأيه فوجّه أتباعه إلى هذه البقاع فى السنة الخامسة بعد البعثة ، وكان أول ركب هاجر إلى الحبشة يضم عشرة رجال وأربع نسوة ، ثم زاد عددهم حتى قارب المائة ، وكان فيهم عثمان ابن عفان وزوجته رقية بنت الرسول ، والزبير بن العوام وعبد الرحمن ابن عوف وجعفر بن أبى طالب وقد أكرمهم النجاشى إكراماً عظيما وحاولت قريش أن تسترد هؤلاء المهاجرين ولكن النجاشى أبى أن يسلمهم وأباح لهم البقاء فى دعة ويسر(١) .

---

(١) انظر زاد المعاد لابن القيم ١ : ٢٤ وهو يعطى تفاصيل عن أن المسلمين هاجروا للحبشة مرتين وانظر كذلك ابن هشام ١ : ٢٠٤ ، ٢١٢ .

وقد ظل هؤلاء فى كنف النجاشى فترة ، ثم بلغهم إسلام عمر ومجاهرته بالعبادة ، فتشجع بعضهم للعودة ليشارك عمر شجاعته وثباته ونضاله ، كما بلغهم كذلك نوع من الهدنة بين قريش وبين المسلمين أثر تكاثر المسلمين وحرص قريش على ألا تقوم حرب أهلية بين الفريقين ، وحب الوطن طبيعة فى الإنسان ، والغريب يتلمس المعاذير ليعود للوطن ، وباسم حب الوطن الذى — فيما نظن — نسج الأسباب وهيأ الحجج ، عاد بعض مهاجرى الحبشة إلى مكة ، ولكنهم ما إن وصلوها حتى ظهر لهم أنهم كانوا متفائلين ، وأن حدة العداء بين المسلمين والمشركين لم تهدأ ، ولذلك — كما يقول ابن هشام[1] — لم يدخل أحد منهم مكة إلا بجوار أو مستخفياً . أما باقى مهاجرى الحبشة الذين لم يخضعوا للتفاؤل والذين آثروا البقاء فى مغتربهم حتى تعلو كلمة الله فقد بقوا هناك حتى أرسل الرسول من حملهم فى سفينتين وأحضرهم إلى المدينة وكان ذلك فى العام السابع للهجرة عقب استسلام خيبر ، ويروى أن الرسول قال عندما رأى جعفر : ما أدرى بأيهما أنا أسرّ ؛ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر[2] .

ونعود بعد ذلك للحديث عن الجوار الذى أشرنا إليه فيما سبق ؛ فقد قلنا إنه لم يدخل مكة من العائدين من الحبشة إلا من دخل فى جوار ومن دخل مستخفياً ، وكان من عادة العرب أن من دخل فى جوار شخص أصبح ذلك الشخص مسئولا عنه وعن حمايته وأصبح الاعتداء على المستجير اعتداء على المجير وهتكاً لحرمته ، وكان عثمان بن مظعون عقب عودته من الحبشة ومعرفته أن المسلمين لا يزالون يسامون العذاب دخل فى جوار الوليد بن المغيرة ؛ ولكن عثمان رأى ما فيه المسلمون من البلاء وهو يغدو ويروح فى أمان ، فخجل من ذلك وقال : والله إن غُدُوِّى ورواحى آمناً بجوار رجل

---

(١) السيرة ج ١ ص ٢٢٩ .

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٥٠ .

من أهل الشرك، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني لنقص كبير في نفسي ، فمشى إلى الوليد بن المغيرة وقال له : يا أبا عبد شمس وفَتْ ذمتك ، وقد رددت إليك جوارك . قال : يا ابن أخي ؛ لعله آذاك أحد من قومي ؟ قال : لا ، ولكني أرضى بجوار الله ولا أريد أن أستجير بغيره . قال المغيرة : فانطلق بنا إلى المسجد فاردد على جواري علانية كما أجرتك علانية . فانطلقا حتى أتيا المسجد ، فقال الوليد : هذا عثمان جاء يردُّ عليَّ جواري . قال عثمان : صـــدق ، قد وجدته وفياً كريم الجوار ، ولكني أحببت ألا أستجير بغير الله ، فقد رددت عليه جواره . ثم انصرف. ورأى عثمان عقب ذلك لبيد بن ربيعة الشاعر في مجلس من قريش ينشدهم ، فجلس معهم عثمان وأنشد لبيد :

* ألا كل شيء ما خلا الله باطل *

قال عثمان : صدقت . وتابع لبيد إنشاده :

* وكل نعيم لا محالة زائل *

قال عثمان : كذبت نعيم الجنة لا يزول .

ولما سمع لبيد من يكذبه صاح : يا معشر قريش ، والله ما كان يؤذى جليسكم ، فمتى حدث هذا فيكم ؟ فال رجل من القوم ؛ إن هذا سفيه من سفهاء معه قد فارقوا ديننا فلا تجدن في نفسك من قوله . فرد عليه عثمان بكلام يدافع عن نفسه ، فاشتبكا في عراك ، ولطم القرشي وجه عثمان لطمة أثرت في في عينه . قال الوليد : ياعثمان ، قد كنت في غنى عما أصابك فقد كنت في ذمة منيعة . قال عثمان : والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله ، وإني والله لفي جوار من هو أعز منك وأقدر[1] .

ومما يروى أيضاً عن أحاديث الجوار أن أبا بكر لما أصابه الضُّر ورأى الأذى يصيب الرسول ولا يطيق له دفعاً استأذن الرسول في الهجرة فأذن له ، فخرج أبو بكر وسار يوماً أو يومين فلقيه ابن الدغنة وهو أخو بني الحارث

---

(١) ابن هشام جـ ١ ص ٢٣٠ .

ابن عبد مناة بن كنانة وهو يومئذ سيد الأحابيش(١) . فسأل : إلى أين يا أبا بكر ؟ فأجاب : أخرجنى قومى وآذونى وضيقوا علىّ . قال ابن الدغنة : ولِمَ ؟ وإنك والله لتزين العشيرة وتعين على النوائب وتفعل المعروف وتكسب المعدم . ارجع وأنت فى جوارى . فرجع معه حتى إذا دخل مكة قام ابن الدغنة فقال : يا معشر قريش ، إنى قد أجَرتُ بن أبى قحافة فلا يعرضن له أحد إلا بخير . ومنذ ذلكَ الحين كفَّت قريش عن أذى أبى بكر . وكان لأبى بكر مسجد عند باب داره فكان يصلى فيه ويقرأ القرآن ، وكان رجلا رقيقاً إذا صلى خشع وإذا قرأ القرآن بكى واستبكى ، وكان ذلك يجذب حوله الصبيان والنساء فى إعجاب ظاهر ، فخاف رجال قريش عاقبة ذلك ومشوا إلى ابن الدغنة وشكوا له أبا بكر وطلبوا أن يصلى وأن يقرأ القرآن داخل داره ، فكلمه ابن الدغنة فى ذلك فأجابه أبو بكر : أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله . قال : فاردد علىّ جوارى . ففعل أبو بكر وتعرض بعد ذلك إلى عنت قريش من جديد(٢) .

• العدوان على الرسول :

نتكلم الآن عن المرحلة الثالثة من مراحل مقاومة قريش للإسلام وفى هذه المرحلة تعرض الرسول نفسه للهجوم والإيذاء ، وقد بدأ ذلك عقب هجرة المسلمين إلى الحبشة ، فقد أزعجت هذه الهجرة قريشاً وتوقعت أن ينتشر المسلمون فى كل النواحى داعين إلى دينهم وأن تمهد هذه الهجرة لهجرة محمد نفسه وبذلك تتغلب عبادة الله على عبادة أصنامهم ، ولهذا اتجهت قريش إلى رأس هذه الحركة ، إلى محمد بن عبد الله للضغط عليه أو لإغرائه حتى يكف عن هذه الدعوة الجديدة .

---

(١) الأحابيش معناها التجمعات من تحبشوا أى تجمعوا وتطلق على بنى الحارث وبنى الهون من كنانة وبنى المصطلق من خزاعة (انظر الروض الأنف ٢ : ٢٣١) .

(٢) ابن هشام جـ ١ ص ٢٣١ .

واتبعوا فى إغراء الرسول العروض المالية السخية ولكن محمداً سخر منهم ومن أموالهم ، فتجاوزوا المال إلى الملك ، فعرضوا عليه أن يكون عليهم ملكاً ، ولكن محمداً صاح بهم صيحة وضعت حداً لهذه العروض الرخيصة حين قال قولته المشهورة : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى ما تركت ذلك الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه »(١).

ولما لم يفد الإغراء اتجهوا للهجوم والإيذاء ، وكانوا راغبين فى إنزال الأذى مصرين على المقاومة ولكنهم فى الوقت نفسه كانوا يخافون نتائج هذا الإيذاء ويتوقعون الشر من إقدامهم عليه ، فأبو طالب يحتل أرفع مكانة بين العرب وحوله بنو هاشم فيما عدا أبا لهب ، ولذلك تفرعت المقاومة فاتجهت بقوتها إلى المقاومة السلبية وضرب الحصار كما سنوضح ذلك عندما نتكلم عن « مقاطعة بنى هاشم » واتجه بعضها إلى إنزال الأذى بالرسول مباشرة ، فأم جميل زوجة أبى لهب كانت تلقى الأقذار والأشواك أمام داره فى غسق الليل لتؤذى الرسول عند خروجه مبكراً ، وكان أبو جهل يلقى فوقه القاذورات وهو فى أثناء صلاته .

ولكن حماية أبى طالب ردت عن الرسول كثيراً من الأذى ووقفت زوجته خديجة وكأنها بلسم يشفى ما يصيبه من آلام ، لقد كانت تحسن استقباله إذا عاد إلى البيت كئيبا ، وكانت تظل تواسيه وتشجعه حتى يعود له نشاطه ، ويسترد عزمه وإصراره .

اسلام حمزة وعمر بن الخطاب :

وبينما كانت الدعوة بين إصرار الرسول وكفاح قريش ، إذ دخلها فى السنة الخامسة للدعوة بطلان عظيمان هما حمزة بن عبدالمطلب وعمر بن الخطاب(٢)

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ١٧٠ .

(٢) ابن هشام ١ : ٢١٦ .

وقد كانا معروفين بالسوه والصـــلابة ، فعز بهما الإسلام واشتد الأمل فى انتصاره ، ولكن إسلامهما كان له رد فعـــل قوى عند قريش ، فقد أدركت أن مسالمة محمد ستؤدى إلى انتصار دينه ما دام هذا الدين قد بدأ يجذب له الأقوياء الأشداء من أمثال حمزة وعمر ، ولهذا نجد قريشا تخطو خطوة جريئة للقضاء على محمد قضاء نهائيا . ورغبة من قريش فى أن يتم القضاء على محمد دون إثارة بنى عبد المطلب نجدهم يترددون على أبي طالب يطلبون إليه أن يسكت ابن أخيه الذى يسب دينهم ويحقر آلهتهم . ثم لا يكتفون بذلك بل يخطون خطوة أخرى فيهددون أبا طالب قائلين له : يا أبا طالب ، إن لك سنا وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لن نصبر على شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا ، فإما أن تكفه عنا وإما أن ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين[١] .

ولم يفد التهديد بشىء فخطوا خطوة ثالثة هى أنهم ساوموا أبا طالب وأرادوا أن يعطوه عمارة بن الوليد بن المغيرة ويأخذوا محمدا ليقتلوه ، وسخر منهم أبو طالب وقال : بئس ما تسومونني ، أتعطونى ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابنى تقتلونه ؟[٢] .

مقاطعة بنى هاشم :

وانتقل العداء خطوة جديدة ، فقد أدركت قريش أن قوة محمد مصدرها أهله الذين يحمونه ويدافعون عنه ، سواء منهم من اتبع دينه أو من بقى على دين آبائه وأجداده ؛ ولهذا عزمت قريش على مخاصمة بنى هاشم جميعاً ورغبة عن الحرب وما تجره من ديلات اتجهوا فى مقاومتهم لبنى

---

(١) ابن هشام ص ١٧٠ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧٠ .

هاشم اتجاها سلبيا ولكنه قاتل ، فاجتمعت قريش وكتبت وثيقة قررت فيها مقاطعة بنى هاشم فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم ، ولا يبيعون لهم ولا يشترون منهم ، ولا يكلمونهم ، ولا يزورون مرضاهم ولا يشيعون موتاهم . . . وقد كانت هذه المقاطعة قاسية جداً على بنى هاشم ؛ مسهم بسببها الضر بل الجوع والحرمان ، وقد استمرت حوالى ثلاث سنوات[١] ، ولم تنقض إلا بعد أن أشفق بعض القرشيين على بنى هاشم بسبب ما نالهم من أذى وعذاب ، فمزقوا هذه الوثيقة وعادوا إلى الاتصال بهم[٢] .

وفاة أبى طالب وخديجة :

وفى السنة العاشرة للدعوة فقد الرسول أعظم اثنين ساعداه وكانا له قوة وملاذا فى نضاله لنشر الإسلام ، وهما أبو طالب وخديجة ، وكانت خديجة أول من أسلم من النساء ، وكانت تشد عضد الرسول بقوة شخصيتها وبمالها وجاهها وحسن معاملتها . أما أبو طالب فقد كان درعاً يقى الرسول ويحميه بقوة وصلابة ، ومما أثر عنه قوله :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم   حتى أوسد فى التراب دفينا

وقد مات أبو طالب وله سبع وثمانون سنة ، وأغلب المؤرخين يرون أنه مات دون أن يدخل الإسلام ، ولكنْ أُثِرَ عن العباس أنه سمع أبا طالب وهو على فراش الموت يقول شعرا جاء فيه :

ولقد علمت بأن دين محمد   من خير أديان البرية دينا

ومثل هذا الشعر يجعل بعض الباحثين يرى أن أبا طالب دخل فى دين محمد وإن لم يعلن ذلك ، وكانت المدة بين موت أبى طالب وخديجة ثلاثة أيام فقط كما ذكر ذلك ابن القيم[٣] .

---

(١) ابن هشام ١ : ٢١٩ .

(٢) ابن هشام ١ : ٢٣١ وابن القيم ٢ : ٤٦ .

(٣) زاد المعاد جـ ٢ ص ٤٦ .

حالة الرسول بعد أبي طالب وخديجة :

وبموت أبي طالب ومن بعده خديجة تعرض الرسول لأهوال جسام من قريش ؛ يقول[١] ابن إسحق : ولما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن تنال منه فى حياة عمه أبي طالب ، وكان أشد قريش عداء للرسول أبو لهب عمه والحكم بن العاص وعقبة ابن أبي معيط ، فإنهم كانوا جيران الرسول وكانوا يؤذونه بما يلقون عليه وقت صلاته وفى طعامه من القاذورات .

وكانت زوجة أبي لهب أكبر عون لزوجها فى إيذاء الرسول ووضع الأشواك ليلا على بابه حتى تؤذيه إذا خرج مبكراً للصلاة كعادته ، وقد ذكر القرآن قصتها فى سورة خاصة هى سورة المسد وقد سبق إيرادها .

وكثيراً ما كانوا يضعون القاذورات عليه وهو يصلى فى المسجد ، وقد خنقه بعضهم مرة ، وأوشكوا على قتله ، لولا أن دخل أبو بكر وصاح فيهم وهو يخلصه « أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله[٢] » .

وكان الرسول يعلم أصحابه مرة فى المسجد ، فاغتاظت قريش وأوسعوهم ضرباً وإيذاء ، وكان نصيب الرسول وأبي بكر من هـذا الضرب شديداً قاسياً .

الدعوة للإسلام بعد موت أبي طالب :

أدرك الرسول ألا مقام له بمكة بعد موت أبي طالب وخديجة وبعد إسراف المشركين فى إيذائه إسرافاً بعيداً عن الكرامة الإنسانية وبعيداً عن الخلق الكريم ، فوضع خطته لنشر الإسلام خارج مكة ، لعله يجد مركزاً آخر

---

(١) ابن هشام ١ : ١٦٠ .

(٢) غافر ١٢ .

يطيب له المقام فيه ، فبدأ بزيارة بعض البلدان وعرض نفسه ومبادئ الدين الجديد على أهلها ، وطالما لقى الرسول عناء فى هذه المرحلة أيضاً ، وطالما سمع أهلَ هذه البلاد يقولون : لو كان فى دعوته خير لتقبلها أهله وذووه ، ومن أشق المواقف التى تعرض لها الرسول ومسَّه فيها الأذى ما يذكره التاريخ من أنه صلى الله عليه وسلم اتجه إلى الطائف ودعا فريقاً من أشرافها إلى وحدانية الله ، ولكنهم لم يستجيبوا له ولم يردوه رداً كريما ، بل أغروا به أحداثهم وسفهاءهم يسبونه ويصيحون به ويرمونه بالحجارة(١) ، ولكن الرسول لم ييأس وسط هذه الأزمة القاسية ، وأخذ يهتف : رباه، إن لم يكن بك علىَّ غضب فلا أبالى(٢) .

واتجه الرسول بعد ذلك إلى دعوة الحجيج . فأخذ يقابل وفود العرب القادمة من هنا ومن هناك . ويعرض نفسه عليهم ، ويشرح لهم دعوته ومبادئ الدين الجديد(٣)، وخدمت قريش الدعوة من حيث لا تدرى، إذ أرسلت وفودها إلى جماعات الحجيج تحذرهم من دعوة محمد . وترميه بالجنون والسحر وغيرهما من الصفات الذميمة ، وتدخُّلُ قريش هذا جعل جماعات الحجيج يتوقون إلى رؤية محمد ليشاهدوا بأنفسهم صاحب هذه الدعوة الجديدة . وليتحققوا مقدار صدق قريش فيما تذيع عنه ، وهكذا بدلَ أن يسعى محمد للناس أصبح الناس يسعون إليه سراً وعلانية ، لقد كانوا يسعون ليروا المجنون فإذا بهم يجدونه أرشد الناس عقلا ، وليروا الساحر فإذا به بعيد عن السحر والشعوذة ، وسمع الناس القرآن واستمعوا إلى آراء محمد ودعوته ودينه وفلسفته فأحبوه . وبدأ الأمل يظهر ، وبدأت الدعوة تنتشر ، وكان إعجاز القرآن وفلسفة الدعوة أهم الأسس التى جذبت الناس لدين الإسلام ، وسنتكلم فيما بعد عن هذين الموضوعين .

---

(١) ابن هشام ١ : ٢٦٠ .

(٢) ابن القيم : زاد المعاد ٢ : ٤٦ .

(٣) ابن هشام ١ : ٢٦٣ .

الإسراء والمعراج :

وفى هذا الوقت قبل الهجرة بعام[١] ، تم الإسراء والمعراج وشهدت مكة يوماً من أيامها العاصفة ، إذ أصبح محمد يحدث الناس بأنه أسرى به إلى المسجد الأقصى ثم عرج به إلى السماء ثم عاد من ليلته ، وقد فرحت قريش بما قال محمد ، وظنت أن ذلك دليل باهر على كذبه وبهتانه ، وأن هـذه المبالغة التى جاوزت الحد يمكن أن تكون سبباً ينفر أصحاب محمد منه ، ويمكن كذلك أن تكون سبباً يرد المترددين عن التفكير فى متابعة محمد والتسليم بدينه .

وسرعان ما خاب ظن قريش ، فقد سعت وفودهم مسرعة إلى أبى بكر لتقول له : أتصدق يا أبا بكر مايقوله محمد من أنه أسرى به إلى بيت المقدس وعرج به إلى السماء ثم عاد من ليلته ؟ قال أبو بكر فى يقين أذهل القوم : إن كان محمد قال ذلك ، لقد صدق . قالوا : أتصدقه يا أبا بكر على ذلك ؟ قال : وعلى أكثر من ذلك[٢] . وانهارت آمال قريش عند أبى بكر وغيره من المسلمين فاتخذوا الإسراء والمعراج وسيلة للتشنيع على محمد ورميه بالبهتان والجنون وغيرهما من الصفات ، ولكن هذا التشنيع لم ينتج إلا اهتمام الناس بمحمد ومحاولة التعرف إليه والتحقق من أخلاقه والاستماع لما يقوله بشأن الدين الجديد وبهرت هؤلاء الآيات الكريمة التى سجلت الإسراء والمعراج بما فيها من بلاغة ساحرة وقوة عظيمة قال تعالى « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير[٣] » .

---

(١) زاد المعاد ٢ : ٤٩ .

(٢) ابن هشام جـ ١ ص ٢٤٦ .

(٣) الإسراء ١ .

وقال : « والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى[١] » .

وقبل أن نترك الحديث عن الإسراء والمعراج نذكر كلمة قصيرة عن إمكان الإسراء والمعراج من الناحية العلمية والناحية العقلية ؛ والحقيقة أن تصديق الإسراء والمعراج إن كان قد دق وصعب على الأجيال السابقة فإنه لم يعد صعباً على أجيالنا بعد أن شهدنا الأقمار الصناعية تطوف حول الأرض فى سرعة مذهلة . ونحب فى إيجاز أن نذكر هؤلاء الذين يتكلمون عن العقل بضعف عقولهم ، فالغالبية العظمى من الملايين الذين يحملون الساعات ، لا يعرفون كيف تسير ساعتهم ، والغالبية العظمى من الملايين الذين يملكون المذياع لا يعرفون كيف ينقل المذياع الأصوات عبر القارات والمحيطات . وقل مثل هذا عن الطائرة والسيارة وغيرهما .

فالكلمة القصيرة التى نوجهها لهؤلاء الذين يتحدثون عن إمكان الإسراء والمعراج من الناحية العقلية ، هى ألا يغتر هؤلاء بعقولهم التى تقصر عن إدراك الأحداث المتكررة التى يدركها الآخرون . فما بالها تتعرض لما هو أسمى من العقل البشرى من أحداث[٢] ؟

---

(١) سورة النجم ١ — ١٨ .

(٢) اقرأ المجتمع الإسلامى للمؤلف فصل العقل والنقل .

الإسلام فى يثرب :

وبدأت بذور النجاح تظهر فى يثرب ، وبدأ الأمل يعقد على أن يثرب ستكون المدينة التى ينبثق منها فجر الإسلام وينتشر على الأرض .

والحقيقة أنه كان لعرب يثرب ظروف خاصة خلقت منهم استعداداً لتقبل الإسلام والدخول فيه ؛ لقد كانت يثرب ملتقى طائفتين متباينتين إحداهما قادمة من الشمال وهى اليهود ، والأخرى مهاجرة من الجنوب وهى قبائل عربية أهمها الأوس والخزرج ، والتقاء هاتين الطائفتين فى يثرب أنتج العوامل الآتية :

أولا — كان عرب يثرب أقرب العرب إلى الأديان السماوية لكثرة ما سمعوا من اليهود عن الله والوحى ، وعن البعث والحساب ، والجنة والنار ، ونحو ذلك .

ثانياً — ما ذكره ابن هشام[١] من أنه كان هناك عداء يكاد يكون متصلا بين العرب واليهود ، وكان العرب إذا انتصروا على اليهود قال اليهود : إنه تقارب زمان نبي يبعث كما نجد فى كتبنا ، فإذا بعث اتبعناه وقوينا به عليكم ونقتلكم معه قتل عاد وإرم[٢] « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به[٣] » .

ثالثاً — كان هناك خلاف وحروب بين الأوس والخزرج ، وكانت كل منهما تسعى لتجد من تتعاقد معه لتقوى على الأخرى ، ومن أشهر الحروب التى وقعت بين الأوس والخزرج تلك الحروب المعروفة بيوم بُعاث وقد حدثت قبيل الهجرة بسنوات قليلة[٤] .

---

(١) جـ ٢ ص ٢٨ .

(٢) ابن القيم : زاد المعاد ٢ : ٥٠ .

(٣) البقرة ٨٩ .

(٤) الأغانى جـ ٢ ص ١٦٢ .

لهذه الأسباب دخل الأوس والخزرج فى الإسلام بل سارعوا إليه ، حتى لا يسبقهم اليهود . وسارعت الأوس حتى لا تسبقها الخزرج ، كما سارعت الخزرج حتى لا تسبقها الأوس ، وقد مر إسلام الأوس والخزرج خلال مراحل ثلاثة[١] :

١ – فى السنة الحادية عشرة للبعثة قدم نفر من الخزرج يريدون الحج ، فاستقبلهم الرسول وتعرف إليهم ، وجلس معهم عند العقبة . وتحدث إليهم ودعاهم إلى الله ، فقالوا له : إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله بك ، وسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك لعل الله أن يجمعهم عليه ، وقد نشط هؤلاء فى الدعوة للدين الجديد فلم تبق دار من دور العرب فى يثرب إلا وقد دخلها ذكر الرسول وتحدثت عنه[٢] .

٢ – فى السنة الثانية عشرة للبعثة تمت بيعة النساء أو بيعة العقبة الأولى ، وسميت بيعة النساء لوجود امرأة هى عفراء بنت عبيد بن ثعلبة بها ، وسميت بيعة العقبة لحدوثها عند العقبة .

وقصة هذه البيعة أن اثنى عشر رجلا ومعهم المرأة السابقة قدموا على رسول الله واجتمعوا به عند العقبة وبايعوه ، قال عبادة بن الصامت كنت فيمن حضر بيعة العقبة الأولى ، وقد بايعنا الرسول على ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى مكروه[٣] .

وقد أرسل الرسول مع هؤلاء مصعب بن عمير يقرئهم القرآن ويعلمهم

---

(١) انظر هذه المراحل فى زاد المعاد ١ : ٢٥ و ٢ : ٥٠ – ٥١ .

(٢) ابن هشام ١ : ٢٦٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٦٨ .

الإسلام ويؤمهم فى الصلاة ، وقد نشط مصعب فى الدعوة للإسلام فى يثرب ، حتى دخله القادة والرؤساء[١] .

٣ – فى السنة الثالثة عشرة للبعثة تمت بيعة العقبة الثانية ، وحديث ذلك أن ثلاثة وسبعين شخصا من يثرب قدموا إلى مكة وقد عزموا على أن يدعوا الرسول للهجرة إلى يثرب ويبايعوه على أنه نبيهم وزعيمهم .

وقد اجتمع هؤلاء بالرسول عند العقبة أيضاً ، وكان مع الرسول عمه العباس وكان لا يزال على الشرك . فلما جلسوا كان العباس أول من تكلم ، قال : يا معشر الخزرج إن محمدا منا كما علمتم ، وقد منعناه من قومنا ، فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز لكم واللحوق بكم فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه من خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه فمن الآن فدعوه .

قال الخزرج : قد سمعنا ما قلت يا عباس ، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت ، فتكلم الرسول وتلا آيات من القرآن الكريم ثم قال : أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأولادكم . فبايعوه على ذلك وبايعوه على هلاك الأموال وقتل الأشراف والاحتمال فى كل الأحوال[٢] .

المؤامرة والإذن بالهجرة إلى يثرب :

عندما بدأت تباشير النجاح تظهر فى يثرب أمر الرسول أتباعه بالهجرة إليها فرارا بدينهم من ظلم قريش ، والتجاءً إلى المسلمين الجدد بهذه المدينة ، فانزعجت قريش لذلك وخافت أن ينضم محمد إلى أتباعه بيثرب وأن يقيم

---

(١) ابن هشام ١ : ٢٦٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٧٥ ، ٢٧٧ .

له مركزاً حصينا هناك ، وفى هذه الحالة لا تكون المسألة مسألة دين فقط ، بل ستكون مسألة اقتصادية أيضاً ربما ترتب عليها ضياع التجارة وخراب البيوت ، فيثرب تقع فى الطريق بين مكة والشام وإذا كانت معادية لهم تعرضت تجارتهم إلى الضياع والخسران . ومن هنا وجدوا أنه لا مناص من أن يعملوا شيئاً هاما ويخطوا خطوة حاسمة ، لعلهم يقضون على هذا الشر الذى بدأ يصبح خطراً على أديانهم وعلى أرزاقهم .

ماذا يعملون ؟

اجتمعوا وتشاوروا فى الأمر ، وقص الله قصتهم فى كلامه العزيز . قال : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين[1] » .

وكان أمام قريش أن يسلكوا حلا من هذه الحلول الثلاثة التى وردت فى الآية : هل يحبسون محمدا ؟ لا ، فإن أهله لا بد سيقاتلون دونه ويطلقونه .

هل يخرجونه من ديارهم فيهيم بعيدا عنهم بشره ؟ لا ، فلا بد أنه سيتجه إلى يثرب وفى هذا قضاء على تجارتهم وثرواتهم .

لم يبق إلا أن يقتلوه . ولكن كيف يقتلونه وأهله سيقتلون من يقتله ؟ لقد وجد لهم أبو جهل لذلك حلا هو أن يختاروا من كل قبيلة شابا جلدا ، وأن يشترك هؤلاء الشبان فى قتله ، فتتوزع دماؤه بين العرب فلا تستطيع بنو عبد مناف من الثأر له من الجميع ، ولا تجد بدا من قبول الدية[2] .

ذلك رأى وجدوه سليما ، فأخذوا يعدون له العدة ، وفى ليلة عرفوا أن محمدا ببيته ، فأطلقوا فى ظلمة الليل شبانهم ليحيطوا بالبيت حتى إذا هدأ الناس انقضوا عليه وقتلوه .

ويبلّغ الله الرسول حديث القوم وتآمرهم ، ويأذن له بالهجرة إلى

---

(١) الأنفال ٣٠ .

(٢) ابن هشام ١ : ٢٩١ وابن القيم ٢ : ٥٢ .

يثرب(١) ، ويخبر الرسول أبا بكر بذلك ، ويطلب أبو بكر من الرسول أن يأذن له فى أن يصحبه فى هذه الرحلة التاريخية فيأذن له الرسولُ ، وحينئذ أخذ أبو بكر يعد العدة للرحلة وأمر الرسولُ عليا أن يبيت فى مكانه ليوهم القوم أنه فى فراشه ، ثم ليرد فى اليوم التالى الودائع التى كانت عند الرسول لأصحابها(٢) ، ثم نثر الرسول على الشبان ترابا من يده وقال : شاهت الوجوه . فعرتهم غشاوة لحظة خرج فيها الرسول دون أن يروه ، فأغشيناهم فهم لا يبصرون .

الرحلة من مكة إلى يثرب :

سبق إن قلنا إن أبا بكر أعد العدة للقيام بهذه الرحلة التاريخية ، وكان أبو بكر كالعهد به كريما وفيا مخلصا ، فسخَّر للهجرة كل شىء يملكه أو يشرف عليه :

أعد راحلتين ودفعهما إلى عبـــد الله بن أريقط ليركبهما الرجلان العظيمان فى رحلتهما البعيدة ، وخاطر أبو بكر بنفسه فصحب الرسول مع علمه بأن قريشا ستتبعهما وتهتم بالحصول عليهما ، وأمر ابنه عبد الله أن يتسمع لما تقوله قريش عن الرسول ورفيقه نهارا ثم يأتيهما ليلا بما يكون فى ذلك اليوم من الخبر ، وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى الغنم نهاره ثم يذهب بالغنم ليلا إلى الغار حيث يختفى الرسول والصديق ليحتلب ما يحتاجانه من اللبن ، وكلف ابنته أسماء أن تأتيهما كل مساء بما يحتاجان له من الطعام والشراب ، وحمل أبو بكر ماله كله ليكون عونا للرفيقين فى هذه الرحلة النائية(٣) .

أما سير الرحلة فقد وصفه ابن هشام بقوله : جاء الرسول متخفيا إلى دار

---

(١) ابن هشام ٢ : ٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٣ .

(٣) ابن هشام ٢ : ٤ وابن القيم ٢ : ٥٣ .

أبى بكر ، ثم خرجا معا من خوخة فى ظهر بيته ، واتجها إلى جبل ثور بأسفل مكة ، وعمدا إلى غار فى ذلك الجبل فدخلاه واختفيا فيه(١) .

وروى أن الرسول عليه السلام عندما خرج من مكة وامتطى راحلته وقف وتطلع إلى مكة وقال : والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ولولا أنى أخرِجتُ منك ما خرجت(٢) .

هذا ما كان من أمر محمد وصاحبه ، أما قريش فسرعان ما كشفوا حيلة محمد وأدركوا أنه فرّ من مكة واعتقدوا أنه أخذ طريقه إلى يثرب ، فأعلنوا أن من يأتيهم به حياً أو ميتاً له مكافأة قدرها مائة ناقة ، وأسفر العداء ، وانتشر شبان قريش فى الطريق من مكة إلى المدينة يحاولون الظفر بالجائزة وبِشَرَفِ القبض على عدوهم اللدود ، ووصلوا فى سعيهم إلى الغار حيث يختفى محمد وصاحبه ، وصاروا بحيث لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآهما ، وقد أحس أبو بكر بالخوف عند ذلك ، لا على نفسه ، ولكن على صاحبه وعلى الحق ، ولكن الرسول طمأنه وهدأ خوفه تهدئة حكاها القرآن الكريم فى الآية « إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم(٣) » .

وبعد أن هدأت قريش وظنوا أن الرسول قد وصل إلى المدينة بدأ الرسول يخرج من الغار مع صاحبه ، وكان عبد الله بن أريقط قد قدم فى الموعد المحدد ، فركبا وسار بهما عبد الله فى طريق غير مطروق بالقرب من ساحل البحر الأحمر .

---

(١) ابن هشام ٢ : ٤ .

(٢) رواه الترمذى والنسائى : انظر كذلك زاد المعاد جـ ١ ص ٨ .

(٣) التوبة ٣٠ .

أما أهل يثرب فقد كانوا قد عرفوا أن الرسول خرج متجهاً إليهم ، وأخذوا ينتظرون ، ولم يظنوا أنه عرج على الغار ، فلما مرت الفترة اللازمة من الوقت للرحلة من مكة إلى يثرب ولم يصل الرسول ، بدأ على مسلمى يثرب شيء من القلق والخوف ، وأخذوا يصعدون أعلى الأمكنة المحيطة بيثرب وينظرون لعلهم يرون ركب الرسول حتى طلّ عليهم وهم فى أشد الشوق واللهفة ، فقابلوه بنشيدهم الخالد :

طلع البـــدر علينا   من ثنيات الوداع
وجب الشـــكر علينا   ما دعا لله داع
أيهـــا المبعوث فينا   جئت بالأمر المطاع[١]

وكان دخول الرسول يثرب فى الثانى عشر من ربيع الأول[٢] .

وينبغى أن نذكر أن الرسول نزل قباء قبل أن يدخل يثرب ، وبقى فيها أربعة أيام ، وأسس بها مسجد قباء الشهير[٣] ، وقد لحق على بن أبى طالب بالرسول فى قباء بعد أن رد الودائع إلى أصحابها ودخل علىٌّ يثرب فى موكب الرسول[٤] .

الرسول فى المدينة :

أصبحت يثرب من ذلك اليوم تعرف بالمدينة[٥] ، وهو الاسم الذى

---

(١) هذا هو الشائع حول هذه الأبيات ، ويرى ابن القيم أن أهل المدينة استقبلوا الرسول بهذه الأبيات عند عودته من غزوة تبوك لأن ثنيات الوداع تقع شمال المدينة (انظر زاد المعاد ٣ : ١٣) وذوق الشعر أميل لوقوعها عند الهجرة .

(٢) ابن قتيبة : المعارف ص ٧٥ .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٩ وفى زاد المعاد لابن القيم أن الرسول بقى بقباء أربعة عشر يوما (انظر جـ ١ ص ٢٥) وانظر ابن هشام ٢ : ١١ .

(٤) ابن هشام ٢ : ١٠ .

(٥) مقدمة ابن خلدون ٢٨٣ .

سنستعمله للدلالة على هذه البلدة ابتداء من الآن ، وأصبح العام الذى هاجر فيه الرسول بدءا للتاريخ الإسلامى أو التاريخ الهجرى ، وقد كان العرب يؤرخون بكبار الأحداث عندهم ، ولا شك أن الهجرة كانت من أكبر الأحداث ، فأرخ بها المسلمون منذ وقوعها كما أرخوا بعام الفيل وغيره من الأحداث العظام ، ولكن عمر بن الخطاب سجل الهجرة بدء تاريخ للمسلمين بحيث يستمرون فى التأريخ بها ولا ينتقلون إلى التأريخ بأى حدث آخر مهما جدّ بعد الهجرة من أحداث ، وهناك رأى آخر رواه الطبرى أن الرسول هو الذى أمر بالتأريخ بالهجرة ، وأن التأريخ بها بدأ فى حياة الرسول(١) .

دروس من الهجرة :

فى دراسة التاريخ الإسلامى نماذج رائعة جديرة بأن نقتدى بها وننتفع بما فيها من خلق طيب ، فالانتفاع بما فى التاريخ من أمثلة ممتازة هدف مهم من أهداف دراسة هذه المادة ، والهجرة حدث عالمى هام لم يقلل من أهميته أحد من المسلمين ولا من أعداء الإسلام ، وبالهجرة صور بديعة أخلاقية جديرة أن نقف عندها وقفة نفصل بعض الشىء ما أجملناه عند الحديث عنها لنرى ألوانا زاهية من الإيثار والتضحية والوفاء .

فى القمة من الدروس التى نقتبسها من الهجرة عظمة محمد التى تجلت فى قوة عزيمته وصبره على الشدائد دون أن يتطرق اليأس إلى قلبه حتى فى أحلك الأوقات ، وقد ظل يكافح ، فنجح كثيرا وناله أحيانا بعض الفشل ولكنه انتفع بالنجاح وبالفشل ، انتفع بالنجاح بتنميته والحرص عليه ، وانتفع بالفشل بأن حاول جاهدا ليجد طريقا آخر يحقق خلاله ما فشل فى تحقيقه ، فحين ضعف أمله فى الفوز بمكة أسرع فترك مسقط رأسه ، وترك متاعه وأهله إلى أرض جديدة أكثر خصوبة وأكثر استعدادا للنبت

---

(١) تاريخ الطبرى ٢ : ١١٠ – ١١٤ .

الصالح ، إنها العقيدة ، أهم عند الأبطال من راحتهم ومن حياتهم .

ومن الفراسة البارعة تلك الحيلة أو تلك الحيل التى قام بها الرسول وصاحبه لتضليل المطاردين ، فقد كان الرسول يدرك أن جماعات قريش ستنتشر فى طريق المدينة باحثة عنه محاولة الحيلولة بينه وبين هدفه ، ولذلك نجده يقوم بمجموعة من الحيل البارعة التى ضمنت له النجاة ، فهو أولا بدل أن يصعد إلى الشمال حيث سيوجه القوم اهتمامهم يهبط قليلا إلى الجنوب حيث سيقل البحث عنه فى هذا الاتجاه ، وهو ثانيا لا يأخذ طريقه مباشرة إلى المدينة وإنما يلجأ للغار بضع ليال حتى يتعب الباحثون ويعودوا دون أمل إلى دورهم ، وهو ثالثا لا يسير فى أحد الطريقين العاديين بين مكة والمدينة ، وإنما يتخذ طريقا ثالثا يقل أو ينعدم فيه السرى حتى لا تصل أخباره إلى قريش .

وبجانب الرسول نجد الهجرة تعلمنا درسا خالدا فى الوفاء عند الشدة يضربه لنا أبو بكر الصديق ، فكم تخلى صديق عن صديقه عند الأزمات خوفا أن تمتد له هذه الأزمات أو تصيبه بمكروه ، ولكن أبا بكر سخر — كما قلنا آنفا — كل شيء يملكه أو يشرف عليه لتنجح الهجرة ، وقد شمل ذلك نفسه وابنه وابنته وماله ومتاعه . ومن أجمل ما يروى فى ذلك أن أبا بكر وهو فى طريقه إلى الغار مع الرسول جعل مرة يمشى أمام الرسول ومرة يمشى خلفه ، فسأله الرسول عن السبب فأجاب : أذكر الترصد فأمشى أمامك ، وأذكر الطلب فأمشى خلفك[1]

ويضرب لنا على بن أبى طالب مثلا لامعا فى التضحية والإيثار ، لقد قبل على عن طيب خاطر أن ينام فى فراش الرسول مع علمه أن الموت كان قاب قوسين أو أدنى ممن ينام فى هذا الفراش .

فعلى الشاب المسلم أن يتعلم من هذه الدروس وأن ينتفع بها فى حياته وأن يسير على الهدى الذى رسمه له هؤلاء القادة وهذه الصفوة من بناة الإسلام .

---

(١) ابن القيم : زاد المعاد ٢ : ٥٣ .

وضع أسس المجتمع الإسلامى

بدأ الإسلام فى مكة حيث كانت البعثة ، ولكن الإسلام انتشر من المدينة ، وكانت فترة مكة دعوة لله يقابلها اضطهاد قريش ، فكان المسلمون فى مكة عبارة عن أفراد تكونت فيهم أخلاق الإسلام وعمقه ، ولكنهم لم يقيموا مجتمعا إسلاميا ذلك لأنهم كانوا قلة مغلوبة ، فلما انتقل الإسلام إلى المدينة ؛ ودخله الناس أفواجا بدأ الرسول يقيم المجتمع الجديد ويضع خير الأسس لأعظم مجتمع يترقبه التاريخ ، وفيما يلى سنذكر باختصار أسس هذا المجتمع الإسلامى الجديد[١] .

أولا — بناء المسجد[٢] : كانت كل قبيلة من القبائل لها مكان تلتقى فيه للسهر ولحفلات الزواج وللبيع والشراء وغير ذلك من المناسبات ، فلما جاء الإسلام أراد الرسول أن يوحد بين هذه القبائل بأن ينشئ للمسلمين مكانا يعتبر ملتقى الجميع حيث يباشرون فيه العبادة مع غيرها من ألوان المعاملات والاحتفالات فأنشأ المسجد وأسماه « بيت الله » وفى هذا البيت كان المسلمون يلتقون للعبادة والتعلم والقضاء والبيع والشراء والاحتفالات ، ثم كثرت الأصوات حول المصلين فخصص مكان للتعليم وآخر للبيع والشراء وجعل للصلاة جانب خاص بعيدا عن الضجيج ، وأطلق عليه المسجد ، وقد كان المسجد عاملا كبيراً فى التوحيد بين المسلمين والتقريب بينهم .

ثانياً — المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار[٣] : اصطلح المؤرخون على إطلاق كلمة المهاجرين على المسلمين الذين انتقلوا من مكة إلى المدينة ،

---

(١) هذا الموضوع مذكور بتفصيل فى الباب الثالث من كتاب المجتمع الإسلامى للمؤلف فليرجع إليه من يشاء .

(٢) انظر زاد المعاد لابن القيم ٢ : ٥٦ ومقدمة ابن خلدون ص ٢٨٣ .

(٣) انظر ابن هشام ٢ : ١٧ .

وكلمة الأنصار على مسلمى المدينة ، ومن الملاحظ أن مسلمى مكة كانوا فقراء تركوا متاعهم وثرواتهم ونزحوا بدينهم وعقيدتهم إلى المدينة ، وقد عقد الرسول بين طوائف المسلمين أُخُوَّة فاتخذ هو عليا بن أبى طالب أخاً له، وآخى بين أبى بكر وخارجة بن زهير ، وبين جعفر بن أبى طالب ومعاذ ابن جبل ، وهكذا ، فربط الرسول بين الأسر الإسلامية من المهاجرين والأنصار ، وبذلك أصبحت كل أسرة مرتبطة بأسر كثيرة عن طريق هذه المؤاخاة وكان لهذه المؤاخاة قوة أخوة النسب بما فى ذلك الميراث والتعاون الشامل ، وبهذه المؤاخاة خلق الرسول وحدة دينية بدل الوحدة القبلية التى كانت سائدة عند العرب .

ثالثا — معاهدة التعاون بين المسلمين وغير المسلمين : كان سكان المدينة بعد الهجرة ثلاث طوائف هم المسلمون واليهود (بنو النضير وبنو قريظة وبنو قينقاع) والعرب الذين لم يدخلوا الإسلام ، وقد أراد الرسول أن يخلق جوا للتعاون والتسامح بين هذه الطوائف ، فعقد معاهدة بين المسلمين وغيرهم ، وقد أورد ابن هشام نص هذه المعاهدة وخلاصتها :

١ — أن للجماعة شخصية دينية وسياسية ، ومن حق الجماعة أن تعاقب المفسد وأن تُؤمِّن المطيع .

٢ — أن الحرية الدينية مكفولة للجميع .

٣ — على سكان المدينة من مسلمين وغيرهم أن يتعاونوا ماديا وأدبيا ، وعليهم أن يردّوا متساندين أى اعتداء قد يوجه لمدينتهم .

٤ — الرسول هو الرئيس العام لسكان المدينة ، وتعرض عليه القضايا الكبيرة وصور الخلاف الضخمة ليفصل فيها[1] .

رابعا — وضع الأسس السياسية والاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الجديد: الإسلام دين ودولة ، فلما تكوّن مجتمع إسلامى بالمدينة أصبح من اللازم

---

(١) انظر نص هذه الوثيقة فى ابن هشام : ٢ : ١٦ - ١٧ .

أن يضع الإسلام أسس هذا المجتمع ؛ فاتجهت آيات كثيرة من القرآن الكريم الذى أُوحى به فى هذه الفترة إلى التشريع ، كما شرح الرسول هذه الآيات وفصل بأعماله ما أجملته ، فنتج عن هذين المصدرين الرئيسين (القرآن والحديث) نظام رائع للسياســة يقوم على الشورى قال تعالى « وشاورهم فى الأمر »(١) . وقال « وأمرهم شورى بينهم »(٢) . وظهر فى الاقتصاد نظام يكفل العدالة الاجتماعية ، نظام يوضحه الحديث الشريف « ليس بمسلم من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم » كما وضعت أسس اجتماعية رائعة كالمساواة بين الناس حيث لا تفاضل بينهم بنسب أو جاه بل بالعمل الصالح فقط قال تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم(٣) » ومن النظم الاجتماعية التى جاء بها الإسلام تنظيم الأسرة وإيضاح حق كل عضو فيها وواجبه إلى غير ذلك من النظم التى ورد تفصيلها فى كتاب « المجتمع الإسلامى » للمؤلف فارجع إليه إن شئت .

تعدد زوجات الرسول :

تعدد الزوجات فى الإسلام وبالتالى تعدد زوجات الرسول أمر مهم يتحدث عنه الناس من مسلمين وغير مسلمين ، وفيهم من يدرك هدف الإسلام فيثنى على الإسلام بسبب ذلك ، وفيهم من يطعن فى الإسلام ويحمل عليه لإباحته تعدد الزوجات ، ومن الناس كذلك من يدرك البواعث التى دفعت الرسول ليتزوج عدة مرات ، ومنهم من يتجاوز الحد فيتّهم الرسول تهما جسمانية يجلُّ عنها ، ونحن هنا لا نريد أن نتعرض للموضوع كله ، وإنما الذى يهمنا هو شرح أفكارنا فيما يتعلق بتعدد زوجات الرسول .

---

(١) آل عمران ١٥٩ .
(٢) الشورى ٣٨ .
(٣) الحجرات ١٣ .

ذلك التعدد الذى ظهر فى المدينة أى فى هذه الفترة التاريخية التى وصلنا لها فى عرضنا لأحداث التاريخ الإسلامى ، وربما كان من الأفضل أن نتحدث عن تعدد الزوجات فى الإسلام عموماً حديثاً قصيرا نردُّ به عن الإسلام الفرية التى يرميه بها بعض المفكرين .

وأول مانورده هنا هو ما يراه المنصفون من الباحثين من أن الإسلام حدَّد الزوجات ، فقد كان عدد الزوجات قبل الإسلام مطلقا فجعل له الإسلام حداً أقصى وهو أربعة .

وبعد ذلك نناقش إباحة التعدد فى حدود الأربعة فنتساءل : هل هذه مشكلة ، أو هى علاج لمشكلة ؟ ومن الواضح أن الباحثين الغربيين يعتبرونها مشكلة أو يعتبرونها عيبا فى التشريع الإسلامى ، ويسير مع الغربيين بعض الباحثين المسلمين الذى أثّرت عليهم ثقافة الغرب وجزفتهم مدنيته التى كثيرا ما تكون زائفة .

ونحن باسم التفكير الحر ، لا باسم الإسلام فحسب ، نقرر أن تعدد الزوجات كثيرا ما كان علاجا وكثيرا ما كان شفاء لداء ليس له بدونه شفاء . فألمانيا بعد الحرب وبعد أن هوت ملايين من زهرة رجالها ، فكرت فى الأخذ بنظام تعدد الزوجات لإيجاد حل للكثرة فى النساء والقلة فى الرجال ، ولم يمنع ألمانيا من الأخذ بهذا النظام إلا التمسك الزائف بالمسيحية ، ونقول الزائف لأن ألمانيا منذ عهد هتلر أباحت الخليلات وشجعت على اتخاذهن فهل حرَّمت المسيحية تعدد الزوجات وأباحت الزنا والخليلات ؟

والرجل تمرض زوجته ويطول مرضها ، أو تكون عاقرا لا أمل لها فى الأولاد، وهى فى هذه الحالة أو تلك تريد أن تبقى فى ظل زوجها ويتزوج معها أخرى تؤانسه إن كانت الزوجة الأولى مريضة وتلد له إن كانت الأولى عاقرا ، فهل الأفضل أن يطلق الزوجُ المريضةَ أو العاقر ثم يتزوج ؟ أو يُبقى عليها فى كنفه ويتزوج معها أخرى ؟

وهذا السيل من الرفيقات الذى يجتاح أوربا ، والذى يراه الباحثون الغربيون ويعيشون فيه ، هل هو خير من تعدد الزوجات أو أن تعدد الزوجات خير منه ؟ وأياما كان رأى المستشرقين فإن رأى المسلمين أن تعدد الزوجات أسمى وأكرم .

والرجل يقتضيه عمله أن يتنقل بين بلدتين بعيدتين ، وقد يقتضيه هذا العمل أن تمتد إقامته بضعة أسابيع فى كل من هذين المكانين ، ولا يستطيع لمشقة الانتقال ومشكلات الأطفال أن يصطحب زوجته فهل من الأفضل أن يكون له فى كل من المكانين زوجة أو أن يُتْرَك هائما على وجهه وحده ، دون زوجة يأنس بها طيلة مدة إقامته .

تلك نماذج قليلة وهناك عشرات غيرها وهى كلها تبرز أن تعدد الزوجات كثيرا ما كان شــفاء ، وكثيرا ما كان وقاية من أمراض اجتماعية خطيرة .

ثم نجىء بعد هذا إلى الجانب الآخر ، الجانب الذى يجعل من تعدد الزوجات مشكلة أو مرضاً اجتماعيا . وذلك هو اللجوء إلى تعدد الزوجات دون حاجة ومع عدم المقدرة وعدم العدالة ، وهنا نسرع فنقول إن الإسلام لم يبح تعدد الزوجات إباحة مطلقة ، بل وضع للتعدد شروطاً هى التأكد من العدالة قال تعالى « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة »[1] وكان المفسرون يرون ضرورة العدالة ويظنونها مقصورة فى الآية الكريمة على العدالة مع الزوجات ، ولكن ، ما الذى يمنعنا – والعدالة فى الآية مطلقة – أن نرى أنها تشمل العدالة مع النفس ومع الأولاد ومع الزوجات؟ فالرجل الفقير أو المريض أو ضعيف الشخصية ... الذى لا يستطيع لذلك أن يرعى عدة زوجات يظلم نفسه إذا تزوج أكثر من واحدة . والرجل الذى لا يستطيع أن يربى أولاده تربية ملائمة وينفق على تعليمهم ، يظلم أولاده إذا أكثر منهم من غير أن يستعد بحياة مناسبة

(١) النساء ص ٤٠ .

لهم ، ولا يقال هنا ما تعود المتواكلون أن يقولوه من أن « الرزق على الله » فلاشك أن الرزق من الله وهو مالك الملك ، ولكنه جعل للرزق سبلا وفضل بعض الناس على بعض فى الرزق ، فكيف يجوز لرجل محدود الرزق أن ينطلق يتزوج دون حاجة ، لمتعة خاصة رخيصة بدون رعاية لروح الشرع ؟ والزوج فى هذا الزواج المتكرر يولد له أولاد كثيرون لا مأوى لهم كما نرى فى القرى وفى الشوارع ، هذا ظلم للأولاد لا أعتقد أن الإسلام يبيحه ، وقد مال المفسرون كذلك إلى تفسير العدالة بين الزوجات بالمساواة بينهن فى الإنفاق ولكنا نسألهم : ما الرأى فيمن تعجزه حالته عن الإنفاق الكافى على زوجته ؟ هل يجوز له مع هذا أن يضيف الأخرى فيجوع الاثنتان ؟

والرسول صلوات الله عليه قال مخاطباً الشباب « من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » فهو لا يرى للأعزب أن يتزوج عند عدم قدرته ، ويصف له الصوم علاجا ، فكيف بالمتزوج الذى يجد بجواره زوجة تؤنسه وتساعده ثم يذهب يتزوج أخرى مع عدم الطاقة ، لا شك أن روح الحديث الشريف توضح الاكتفاء بزوجة مادام غير قادر على ضم زوجة أخرى لها .

المهم على كل حال أن هناك شروطاً لتعدد الزوجات ، فليست الإباحة مطلقة . ولو اهتم العلماء بهذه الشروط ونظموها .فمنعوا تعدد الزوجات لغير عذر وعند عدم القدرة ، لكان هذا مناسباً تماما لما توحى به الآية الكريمة ، وقد عملت بهذا الاتجاه بعض الدول الإسلامية مثل « تونس » ، فإذا أسرف ناس فى تعدد الزوجات لغير عذر وبدون ملاحظة روح الإسلام فالخطأ خطؤهم وليس خطأ الإسلام

وهناك جانب آخر من جوانب مشكلة تعدد الزوجات لا نريد أن نهمله فى بحثنا لهذه المشكلة ، وذلك الجانب هو الجانب العملى الواقعى فيها ، ويلاحظ فى هذا الجانب ما يلى :

١ ـ تدل الإحصاءات الرسمية بالإقليم المصرى بالجمهورية العربية المتحدة على أن مجموع الأزواج الذين لهم أكثر من زوجة واحدة لا يتجاوز ٣٪ من المتزوجين .

٢ ـ ترتفع هذه النسبة ارتفاعا ملحوظاً فى أندونيسيا .

٣ ـ فى مصر لا ينظر المجتمع نظرة رضا لمن يتزوج أكثر من واحدة إلا لعذر ظاهر وهناك من تستدعى ظروفه أن يتزوج أكثر من واحدة ولكنه يخاف نظرة المجتمع فلا يقدم على ذلك ، وعلى هذا فأكثر الذين يتزوجون أكثر من واحدة هم قليلو الثقافة أو أهل القرى .

٤ ـ والأمر فى أندونيسيا يختلف عن الأمر فى مصر ، فالمجتمع لا ينظر هذه النظرة لمن يتزوج أكثر من واحدة وعلى هذا أقدم على ذلك كثيرون ، ولكن الاتجاه الحديث فى أندونيسيا يقرب رويداً رويداً من الاتجاه فى مصر .

ويبدو لى للتعليق على هذا أن تعدد الزوجات أثر من آثار الماضى ، أثر من آثار ما قبل الإسلام ، فقد اتصلت أندونيسيا بالهندوكية قبل الإسلام والهندوكية فى أندونيسيا حتى الآن (فى جزيرة بالى) لا تحدد الزوجات وإنما تطلقه إطلاقاً تاماً ، وربما كان يسر العيش فى أندونيسيا وكثرة جزرها وتنقلات الرجال من جزيرة إلى أخرى مما ساعد على تعدد الزوجات ، وليست الحال كذلك فى مصر .

والنتيجة أن تعدد الزوجات عند المسلمين قليل جداً من الناحية العملية وهو ينقص باستمرار مع زيادة الثقافة ونمو التفكير الإسلامى الصحيح ، ثم إن ما هو موجود منه له صلة بما قبل الإسلام .

أما تعدد زوجات الرسول فموضوع آخر ، فالله قد أباح له أى عدد من الزوجات حتى نزلت عليه الآية الكريمة « **لا يحل لك النساء** من بعد ولا

أن تبدَّل بهن من أزواج»[١] لماذا كانت هذه الإباحة ؟ ولماذا تزوج الرسول تبعاً لهذه الإباحة هذا العدد من الزوجات ؟ وهل كان ذلك كما يقول بعض أعداء الإسلام لأن الرسول كان يحب النساء ؟

الجواب على ذلك سهل واضح ، هو أن مثل هذه التهمة لا يمكن أن تُوَجَّه إلى رجل أمضى عهد شبابه وعهد رجولته قانعاً بزوجة واحدة كانت أكبر منه سناً وكانت ثيباً عندما تزوجها ، وهل يمكن أن يتهم بحب النساء رجل لا يتزوج غير واحدة وهو فى الثلاثين والأربعين والخمسين ؟

فإذا تزوج الرسول بعد ذلك وبعد خمسين سنة حافلة بالكفاح والنضال فلا يمكن أن يكون قد تزوج لغرض جنسى .

ولم يعقب الرسول نسلا من النساء اللاتى تزوجهن بعد خديجة ولعل الباحث يستطيع أن يستنبط أن علاقته الجنسية بهن كانت محدودة وربما كانت معدومة ، وإلا فلماذا لم يعقب منهن جميعاً ؟

ولم يحدث قط أن اختار زوجة واحدة لأنها مليحة وسيمة ، مع أنه فى مكانته وسلطانه لم يكن عسيراً عليه أن يجمع إليه أجمل بنات العرب وأفتن جوارى الفرس والروم على تخوم الجزيرة العربية ؛ ولم يبن بعذراء إلا عائشة التى اختارها ـ كما سيأتى ـ من أجل ظروف أخرى[٢] .

لماذا إذاً تزوج الرسول ؟

الجواب على ذلك سهل بعد هذه المقدمات ، لقد كانت هناك أسباب عامة لهذه الزيجات ، كما كانت هناك أسباب خاصة لكل حالة : أما الأسباب العامة فهى أن الزواج عند الناس جميعا بصفة عامة وعند العرب بصفة خاصة كان ولا يزال سببا هاما من أسباب الربط والتقريب بين

---

(١) الأحزاب ٥٢ .

(٢) انظر مبادئ الإسلام وأباطيل خصومه للأستاذ العقاد ص ١٩١ .

الجماعات والقبائل . وإذا كان التاريخ أثبت أن أبا بكر وعمر وعثمان وعليا كانوا فى القمة بين المسلمين بدليل اختيارهم خلفاء ، فإن ذلك يوضح لماذا اتصل الرسول بهؤلاء جميعا بطريق المصاهرة فتزوج بنتى الأولين وزوج من بناته للأخيرين وأما الأسباب الخاصة فتستدعى أن نقوم باستعراض سريع لبعض هذه الزيجات لنرى دوافعها وظروفها :

عائشة : كانت علاقة الرسول بأبى بكر قوية جدا كما نعرف ، وكان أبو بكر يعتبر ملازما للرسول ، فزواج الرسول من بنت أبى بكر يرفع الحرج عن أبى بكر ويتيح له أن يدخل بيت الرسول وأن يكون أكثر اتصالا به .

وكانت عائشة ناشئة عندما تزوجها الرسول ، وكان لها حدة ذكاء الناشئة ، فإذا تزوجها الرسول فى المدينة بعد الهجرة ، أى فى المرحلة التى زخرت بالتشريع الإسلامى أصبحت مصدرا هاما لحفظ أحاديث الرسول ، والأخذ عنه ، وتبليغ ألوان التشريع إلى الناس ، وقد ورد فى الحديث « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء »

حفصة : كانت علاقة الرسول بأبى بكر تكاد تكون مساوية لعلاقته بعمر ، ولا شك أنه كان من وسائل التكريم للفاروق أن يتزوج الرسول بنته على نحو ما فعل مع أبى بكر ، ويروى أنه لما مات زوج حفصة عرضها عمر على أبى بكر فسكت ، وعرضها على عثمان فسكت ، وبث عمر أسفه للنبى ، فقال له الرسول : يتزوج حفصة من هو خير لها من أبى بكر وعثمان(١)

زينب : كانت زينب ابنة لأميمة بنت عبد المطلب عمة الرسول ، وكانت من أشراف العرب . وقد جاء الإسلام فسوى بين الناس . سوى بين السادة والعبيد ، سوى بين الأشراف والموالى . وقد خضع الناس لهذه التسوية ، ولكنها فى العصر الأول لم تكن بطبيعة الحال قد تمكنت من

---

(١) عباس العقاد : مبادئ الإسلام وأباطيل خصومه ص ١١٣ .

تفوس القوم ، وقصة زينب إنما هى قصة لتثبيت هذا المبدأ الجديد : خطبها الرسول لمولاه زيد بن حارثة وحدث صراع نفسى ، فكيف تتزوج حفيدة عبد المطلب من زيد المولى ؟ ولكن كيف تُرَدُّ خطبة الرسول ؟ وكيف لا يخضع المسلمون للإسلام الذى جعل الناس جميعا سواء كأسنان المشط كما قال الرسول ؟ وإذن فليتمَّ الزواج . وقد تمّ ولكن بقى فى النفس شىء من إحساس الجاهلية وكان زيد مرهف الحس ، فأحس بتعالى زينب عليه واعتدادها من قريب أو بعيد بنسبها فشكا ذلك للرسول ، وذكر له رغبته فى طلاقها ، وأعلم الله الرسول أن هذا الزواج لن يدوم ، ولكن الرسول ماكان ليقول ذلك لزيد ، وإنما أخذ يدعوه أن يمسك عليه زوجه وأن يتّقى الله . ولكن هذا العلاج لم يُزِل الداء وطلق زيد زينب وبقى فى نفس زينب وفى نفس أقاربها شىء من هذا الزواج ، فأراد الله أن يزيل أثره عن زينب ، وفى الوقت نفسه أراد الله أن يقرر ويقوى المساواة ، فأوحى لرسوله أن يتزوجها ، وهكذا نجد حفيدة عبد المطلب تتزوج من مولى ويظن الناس بأنها انخفضت درجة بهذا الزواج فكأنها بعد زواجها من مولى انحط قدرها فلم تعد صالحة ليتزوجها قرشى ، ولكن الرسول نفسه يتزوجها بعد طلاقها فترقى إلى أعلى الدرجات ويؤمن الناس بالمبدأ الإسلامى الرشيد الذى وُضِعَ وضعا عمليا فى هذه القصة .

وبالإضافة إلى ذلك فإن الرسول كان قد تبنى زيدا ، وكان يطلق عليه زيد بن محمد ، وكان من عادة العرب ألا يتزوجوا زوجة الإبن المتبنى لاعتقادهم أن الابن المتبنى كالابن الحقيقى ، فأوحى الله لمحمد أن يتزوج زينب بعد أن طلقها زيد ليبطل الإسلام هذا التفكير عند العرب ، ويكون إبطاله عمليا حتى يكون أقوى ، لصعوبة رجوع العرب عن هذه العادة المتمكنة بدون إبطال عملى ، وقد قص القرآن الكريم قصة زينب فيما يلى : « وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك ، واتق الله ، وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ،

فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا »[١] .

جويرية : هى جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق ، وقد وقعت حرب بين بنى المصطلق وبين المسلمين ، وكان الحارث بن أبى ضرار والد جويرية قائدا لبنى المصطلق وانتصر المسلمون وقتل الحارث ، ولكن الانتصار لم يتم فلا يزال المرجل يغلى ، وقد وقع نساء بنى المصطلق سبايا فى أيدى المسلمين[٢] ، ومثل ذلك كفيل أن يزيد الحفيظة فى القلوب ، وأن ينمى الكراهية والعداء فى النفوس . وكانت جويرية بنت الحارث إحدى الأسيرات ، وقد وقعت فى سهم ثابت بن قيس فكاتبها على مال تؤديه فتعتق ، فجاءت إلى رسول الله تطلب منه العون ، ووجد الرسول الفرصة سانحة لتخفيف الأسى عن بنى المصطلق فعرض عليها أن يؤدى عنها ما طلب منها ويتزوجها فوافقت ، وتمّ الزواج الذى كان خيرا وبركة على بنى المصطلق ، فإن المسلمين خجلوا أن تظل نساء بنى المصطلق سبايا فى أيديهم ، وقالوا : أصهار رسول الله . وأعتقوهن . تكريما لهذا الزواج[٣].

وطيب الرسول بهذا الزواج قلب جويرية وهدّأ الثورة التى كانت لا تزال مشتعلة ضد المسلمين فى قلوب شباب بنى المصطلق .

أم حبيبة بنت أبى سفيان : كان أبو سفيان من أقسى أعداء الإسلام ، ولكن ابنته أم حبيبة دخلت الإسلام مع زوجها عبد الله بن جحش ، وقد تعرضت هى وزوجها إلى عنت قريش واضطهاد ذويها فاضطرت للهجرة للحبشة ، ولكن زوجها تنصّر وبقيت هى على الإسلام ، وهكذا فقدت أهلها وفقدت زوجها وهى مغتربة وعزّ عليها الملجأ ، ولكن قلب رسول الله ينفتح لها ويكلم جراحها ويكافئها اسمى مكافأة على موقفها الرائع

---

(١) الاحزاب ٣٧ .

(٢) ابن القيم : زاد المعاد جـ ٢ ص ١١٢ .

(٣) المرجع السابق ص ١١٣ .

فيتزوجها وهي بالحبشة ويصدقها النجاشي عنه أربعمائة دينار ، وتجد بيت الرسول مفتوحا لاستقبالها بعد أن فقدت بيت الوالد وبيت الزوج[١] .

والسيدة صفية بنت سيد بني قريظة خيَّرها النبي بين أن يردها إلى أهلها أو يعتقها ويتزوجها . فاختارت البقاء عنده على العودة إلى ذويها ولم يكن فيها ما يغرى فقد روى أنها كانت قصيرة حتى أن إحدى صواحبها عيَّرتها مرة بالقِصَر فغضب الرسول ونهاها عن أن تعود لمثل ذلك وطيب خاطر صفية .

وهناك زوجات تزوجهن الرسول لحمايتهن وليتكفل بمطالبهن بعد أن فقدن أزواجهن ، وأصبحن وليس لهن من يعولهن فاتسعت لهن نفسه الكريمة ، واتسع لهن بيته ومن هؤلاء سودة بنت زمعة التي مات زوجها وكان أهلها على الشرك فلم يرد الرسول أنه تعود إلى أهلها فيكرهوها على الردة ، ومنهن هند بنت أبي أمية (أم سلمة) وكان زوجها من شهداء غزوة أحد ويروى أنها كانت كهلة مسنة حتى أنها استعفت الرسول من زواجه بها لأنها أحست بأنه زواج إشفاق ، ولكن الرسول طيب خاطرها حتى قبلت . ومنهن كذلك زينب بنت خزيمة وكان زوجها أيضا من شهداء أحد ولم يتقدم أحد للزواج بها فتزوجها الرسول[٢] .

وهكذا إذا ذهبنا نبحث حالات زواج الرسول واحدة واحدة نجد فى كل منها سببا كريما ولكلى منها حكمة بالغة .

---

(١) ابن القيم : زاد المعادة ج ١ ص ٢٧ .

(٢) انظر مبادئ الإسلام وأباطيل خصومه للأستاذ العقاد ص ١٩٢ — ١٩٣ .

اليهود والمسلمون

سبق أن قلنا إن اليهود كانوا كلما تغلب عليهم عرب يثرب يقولون لهم إن نبيا آن له أن يبعث وسنتبعه ونقوى به عليكم ، وبعث محمد وأسرعت الأوس والخزرج بقبول دعوته حتى لا يسبقهم اليهود إليه ، وأما اليهود فقد حكى القرآن موقفهم بقوله « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به »[1] وربما نتساءل لماذا كفروا به مع أنهم كانوا ينتظرونه ؟ والجواب أنهم أرادوه أن يكون منهم ولهم ، وأن يُبْقِيَ سلطانهم على الناس ويعلى مكانتهم ، ولكن الإسلام جاء على يد رجل من العرب وليس من اليهود ، وسوى الإسلام بين الناس فلم يبقهم شعبا مختارا كما كانوا يأملون ، وأسرع عرب يثرب فدخلوا هذا الدين وكان اليهود يريدون الدين الجديد لينتصروا به على العرب ، فأما وقد دخله العرب قبلهم فلا فائدة فيه لهم بناء على تفكيرهم .

ومع هذا فقد أحسن المسلمون معاملتهم وعقدوا معهم المعاهدة التى سبق أن تحدثنا عنها ، وتركوا لهم حرية العبادة وأعطوهم نفس الحقوق التى للمسلمين وفى مقابل ذلك التزم اليهود بالتعاون مع المسلمين عسكريا لحماية وطنهم المشترك إذا تعرض لعدوان ، والتزموا كذلك بالتعاون ماديا إذا جدث ما يحتاج إلى التعاون المادى ، وكان روح المعاهدة هو العمل المشترك لهدف مشترك ، غير أن اليهود — كما أثبت التاريخ ذلك — لم يكونوا مخلصين فى عهدهم ولم يدخلوا فيه إلا ريثما يجدون لأنفسهم طريقا آخر ، إنهم أحسوا منذ اللحظة الأولى أن الدين الجديد ينتزع منهم القياد الذى طالما فخروا به وهو الصلة بالله عن طريق الوحى ، وهو كذلك الافتخار بكتاب مقدس من عند الله .

وزاد حقد اليهود حينما رأوا دين محمد ينمو نمواً واسعا فى أقصر مدة عرفها

---

(١) البقرة ٨٩ .

التاريخ ، فاليهود يعرفون كيف تعثرت اليهودية ، وكيف حوربت المسيحية عدة قرون ، ولكن انتصار محمد بدأ يتحقق فى حياته وبعد سنين قليلة من بدء دعوته وبخاصة عند ما تمت الهجرة وظهر الطريق ممهدا للنجاح .

وعقد اليهود العزم على المقاومة واتخذت مقاومتهم للإسلام عدة طرق كان من أولها الجدل الذى قصدوا به أن يشككوا الناس ويردوا المسلمين عن الإسلام ، وقد حكى القرآن ذلك الموقف بقوله « ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره »[١] .

ولكن هذا الطريق لم يأت بفائدة فلم يستطع اليهود أن يفتنوا مسلما عن دينه ، بل لم يستطيعوا أن يصدوا الناس عن دخول الإسلام ، ولذلك أدركوا أن الطريق للقضاء على الإسلام هو قوة الحسام وليس قوة اللسان ، وكان اليهود فى بدء الأمر قد اتجهوا إلى ترك قوة السيف إلى قريش ليقضى العرب على العرب وليتولى العرب إخماد هذا الصوت الجديد ، ثم ظهر لليهود أن قوة قريش اضمحلت وأن محمدا هاجر وأصبح ذا قوة وعصبية ، وأنه يستطيع أن يقاوم وأن يحمى دينه وأتباعه ، ولذلك وجد اليهود ألاّ مناص من أن يدخلوا ميدان النضال بأنفسهم ليرجحوا كفة قريش أو — عند اللزوم — ليحملوا هم عبء هذا الكفاح . وسنذكر فيما يلى مراحل الصراع بين المسلمين واليهود .

بنو قينقاع :

كان بنو قَيْنُقاع أقوى جماعات اليهود الذين شملتهم المعاهدة مع المسلمين ، وكانوا أول من نكث العهد ، ويروى فى ذلك أنه بعد غزوة بدر وانتصار المسلمين أبدى اليهود السخط والغضب ، وكان بنو قينقاع أكثر اليهود

---

(١) للبقرة ١٠٩ .

سخطا وغضبا ، وتمادوا فى ذلك فأخذوا يقللون من قيمة النصر الذى أحرزه المسلمون ، ولما كلمهم الرسول فى ذلك وأنذرهم قالوا فى استهتار ظاهر : يا محمد ، إنك تحسب أنا كقومك ، لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربتنا لتعلمن أنا نحن الناس . وكان هذا تهديدا ظاهرا ، وإنذارا بخيانة جسيمة ، ونزل بعد ذلك قوله تعالى « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء[1] » ويروى أن الرسول قال عندما نزلت هذه الآية : إنى أخاف بنى قينقاع ، وخرج لهم الرسول فى جمع من أصحابه وحاصر دورهم فقذف الله فى قلوبهم الرعب ، فما استطاعوا الظهور ، ونزلوا على حكم الرسول ، وحينئذ تقدم عبد الله بن أبىّ وكان حليفهم قبل الإسلام فقال للرسول : أمن فىَّ موالىَّ فتركهم الرسول له واكتفى بإبعادهم عن المدينة فخرجوا حتى نزلوا أذْرِعات الشام ولم يلبثوا حتى هلك أكثرهم ، وكانوا حوالى ستمائة وكانوا يشتغلون بالصياغة والتجارة[2] .

بنو النضير :

كان بين المسلمين واليهود — إلحاقا بالمعاهدة التى أشرنا إليها — حلف يقضى بالتعاون بين الفريقين ماديا عند الحاجة ، وحدث أن قتل أحد المسلمين رجلين خطأ فوجب على المسلمين أن يدفعوا الدية عنهما[3] ، وأثقلت الدية المسلمين لأنهم كانوا لم يستقروا بعد من الناحية المالية بسبب كثرة المهاجرين

---

(١) الانفعال ٥٨

(٢) ابن هشام ٢ : ١٢٠ والطبرى ٢ : ١٧٢ وزاد المعاد ٢ : ٧١

(٣) كان الذى قتلهما عمرو بن أمية الضمرى ، وهو الوحيد الذى نجا من القتل بعد أن قتل عامر بن الطفيل وأهل نجد جميع المسلمين الذين أرسلهم الرسول لدعوة أهل نجد للإسلام ، وكانت الموقعة عند بئر معونة ، وعندما كان عمرو بن أمية عائدا قابل رجلين من بنى عامر بينهما وبين الرسول عقد لم يعلمه عمرو فاغتالهما فالتزم الرسول بديتهما .

الذين فروا بدينهم تاركين أموالهم وثرواتهم بمكة ، ورأى الرسول أن يسأل بنى النضير أن يسهموا فى دفع هذه الدية عملا بالحلف السابق ، فذهب بنفسه إلى الحى الذى يسكنون فيه ، وذكر لهم الخبر فقالوا له : « نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه » وطلبوا منه الجلوس ريثما يدبرون له المال الذى طلبه ، فجلس الرسول بجانب جدار ومعه من أصحابه أبو بكر وعمر وعلى .

وذهب اليهود ليفكروا فيما يدفعون من المال ، ولكن سرعان ما هتف واحد منهم : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه .

وقال آخر : من منا يعلو هذا الجدار فيلقى عليه حجراً فيريحنا منه ؟

قال عمرو بن جحاش : أنا لذلك .

وصعد عمرو ، ولكن سرعان ما أوحى الله لمحمد أن اليهود يأتمرون به ليقتلوه ، وطلب منه الانسحاب فى صمت[١] . وانسحب الرسول ، وانتظره أصحابه وانتظر عمرو بن جحاش عودته ، ولكن هيهات ، فلحق أبو بكر وعمر وعلى بالرسول ، وسألوه عن السبب فى أنه تركهم فذكره لهم ، وأشيع خبر المؤامرة . وراح بعض اليهود يلوم البعض الآخر على هذه الجريمة الشنعاء ، وفى هذه الحادثة نزل قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همَّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكفَّ أيديهم عنكم »[٢] .

وأدرك المسلمون ألا مقام لبنى النضير بينهم . فقد كانت قريش تجمع جموعها للفتك بالمسلمين . فإذا كانت الجبهة الداخلية غير أمينة ، وإذا كان للمسلمين أعداء غادرون فى معقلهم الوحيد ، فلا أمل للمسلمين فى الانتصار . لذلك كان طبيعيا جدا أن يعمل المسلمون على إخراج بنى النضير من المدينة

---

(١) ابن هشام ٢ : ٤١ ، ١٧٦

(٢) المائدة ١١

حتى يأمنوا فى عقر دارهم وحتى يتفرغوا لعدوهم الأكبر الذى أخذ يعد جموعه فى مكة بعد غزوة أحد ليقضى على المسلمين قضاء مبرما .

وعلى هذا تهيأ المسلمون للخروج لبنى النضير . وسرعان ما التفَّتْ جيوش المسلمين حول حصون بنى النضير ودورهم . ولم يستطع بنو النضير أن يقابلوا المسلمين وجها لوجه محاربين، فتحصنوا بالحى الذى يسكنون فيه . وقفلوا المسالك عليهم . وحاصرهم المسلمون مدة ستة أيام . ثم ألقى الله فى قلوبهم الرعب ، فطلبوا من الرسول أن يسمح لهم بالخروج من المدينة ومعهم ما تحمل الإبل إلا الدروع[١] . فقبل الرسول منهم ذلك وخرجوا حيث نزل بعضهم خيبر ونزل آخرون الشام ، وكان من أشرافهم الذين نزلوا خيبر حُيَيٌّ بن أخطب وسَلاَّم بن أبى الُحقَيْق وكنانة ابن الربيع[٢] . وقد استطاعوا بشرفهم وثرائهم أن ينزلوا من خيبر فى مكان الرؤساء والأمراء ، وكانت حادثة بنى النضير هذه فى السنة الرابعة من الهجرة .

وهناك ملاحظتان هامتان نختم بهما حديثنا عن بنى النضير وهما :

١ ــ أن بنى قريظة لم يمسهم أى سوء لأنهم لم يشتركوا فى المؤامرة مع ما لهم من صلة ببنى النضير .

٢ ــ أن الاكتفاء من بنى النضير بالخروج من المدينة ومعهم ثرواتهم كان حكما فى منتهى التسامح إذا قيس بالعمل الإجرامى الذى دبره هؤلاء .

بنو قريظة :

قلنا آنفا إن الاكتفاء من بنى النضير بالخروج من المدينة ومعهم ثراؤهم الواسع كان عملا فى منتهى التسامح ، وقد تغلب الباعث الإنسانى الذى قضى

(١) فتوح البلدان ص ٣١

(٢) ابن هشام ٢ : ١٧٨

بهذا الحــكم على الحق القانونى وعلى الحرص اللازم لحراسة أمة ناشئة ودين جديد . وأننا فى الحقيقة ننظر إلى هذا التسامح فنجده سمحاً مبالغا فيه . لأنه مكّن بنى النضير من العمل بحرية كاملة بعيدين عن عين تنظر ، أو معاهدة تقيد ، أو منافس يراقب . ونستطيع أن نقارن موقف الرسول بموقف قريش عند ما اجتمعت قبيل الهجرة لتقرر مصير محمد . وعند ما رفضت دون تردد إخراجه من مكة خوفا من أن يعود إلى مكة مهاجماً بعد وقت قصير أو طويل . ونسأل : لماذا لم ينتفع الرسول صلوات الله عليه بهذه التجربة وبغيرها من الأحداث المماثلة فيحكم على بنى النضير بالقتل أو بحكم آخر أقسى من الإخراج ؟ ونجيب بأن عامل الرحمة كان قويا جدا فى نفس الرسول وبأنه لم يلجأ قط للقتل إلا عند ما لم يجد سواه سبيلا .

المهم أن بنى النضير لم يبرهنوا على أنهم جديرون بالعطف الذى عاملهم به الرسول ، إذ أنهم سرعان ما غدروا وأخذوا يجمعون الجموع ويثيرون الناس لمهاجمة المسلمين والقضاء عليهم ، وقد استجابت لهم جماعات كثيرة كان يربط بينها كراهية الإسلام والكيد له ، ومن أهم هؤلاء قريش وغطفان وبنو مرة وغيرهم ، وزحفت هذه الجماعات أو هؤلاء الأحزاب على المدينة فى الغزوة التى سميت بغزوة الأحزاب والتى سنتكلم عنها فيما بعد .

والمهم الآن أن نقول إن غزوة الأحزاب كانت من أشد ما عاناه المسلمون من ويلات ، لقد جاعوا فيها حتى ربطوا الحجارة على بطونهم ، وعاشوا فى سجن ضيق يحيط بهم الأعداء من كل جانب ، ثم — فى هذه الحالة الرهيبة — يتصل حيي بن أخطب أحد سادة بنى النضير الذين هاجروا إلى خيبر بكعب ابن أسد سيد بنى قريظة ، ويدعوه أن ينقض عهده مع المسلمين وأن ينضم هو وجماعته بنو قريظة إلى الأحزاب ، واستجاب كعب إلى هتاف حيي ، والأمل يراود الاثنين أن فى ذلك قضاء نهائياً على المسلمين[1] ، فقد أصبح

(١) ابن هشام ٢ : ١٨٩ — ١٩٠ .

جناحهم مهيضاً بالهجوم الشامل عليهم من الخارج ، ولم يبق إلا ضربة من داخل المدينة تنضم إلى هذه الضربات التى تنزل من الخارج فتقضى على هذا الدين الناشئ ، وقد صور القرآن الكريم حالة المسلمين أدق تصوير فقال : « إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا »(١) .

وهكذا غدر بنو قريظة فى أحرج الأوقات ؛ ووجد المسلمون أنفسهم بين عدو من الأمام وعدو من الخلف ، عدو من الخارج وعدو من الداخل ، ولن نستمر فى الكلام عن غزوة الأحزاب الآن ونتائجها فالكلام عن الغزوات له مكان آخر ، ولكنا هنا نواصل كلامنا عن بنى قريظة .

لما سمع الرسول بغدر بنى قريظة أرسل لهم سعد بن معاذ سيد الأوس ، وسعد بن عبادة سيد الخزرج ليريا الأمر ، ولينهيا بنى قريظة عن هذا الغدر الفاجر ، فذهب سيدا الأوس والخزرج ، وقابلا كعب بن أسد ، وسألاه وحذّراه ، فسخر منهما ، وأظهر لهما الخشونة والبغى ، ولم يسمع لرجاء منهما أو تحذير(٢) .

وانتهت غزوة الأحزاب وعاد المهاجمون دون أن يجنوا شيئاً ، وتركوا المدينة وفيها فريقان يشهر كل منهما سيفه فى وجه الآخر ، وأحاط المسلمون بمساكن بنى قريظة وشددوا عليهم الحصار ، وندم بنو قريظة على ما ارتكبوه ولات ساعة مندم ، واستمر الحصار خمسة وعشرين يوماً وعرض عليهم المسلمون أن يدخلوا الإسلام فيأمنوا على دمائهم وأموالهم وأبنائهم فأبوا(٣) ورضوا أن يسلموا بما يحكم به سعد بن معاذ فى أمرهم ، وجىء بسعد فسلم

---

(١) الأحزاب ١٠ — ١١

(٢) ابن هشام ٢ : ١٩

(٣) فيليب حتى : تاريخ العرب ١ : ١٦٢

له المسلمون واليهود زمام القضية ، وفكر سعد ، ولا بد أنه وضع نصب عينيه العوامل الآتية :

١ ـ لقد سمح المسلمون لبنى النضير بالخروج من المدينة ، وكانت نتيجة ذلك إهدار دماء المسلمين وتعريضهم وتعريض دينهم للخطر بسبب هجوم بنى النضير وتأليبهم الأحزاب ، فلا يمكن والحالة هذه أن يعفى عن بنى قريظة .

٢ ـ لقد كان ذنب بنى قريظة عظيما ولولا عون الله لهلك المسلمون .

٣ ـ رأى سعد بنفسه سخرية بنى قريظة منه ومن صاحبه عندما ذهبا إليهم راجين محذرين .

٤ ـ العفو عن بنى قريظة وإخراجهم من المدينة سيعنى بلا شك انضمامهم إلى بنى النضير حيث يتضاعف الخطر اليهودى على المسلمين .

لهذه الأسباب كان حكم سعد بديهياً : لقد حكم على الخونة الغادرين بالقتل ، قتل الرجال وسبى النساء والأطفال ، وكان ذلك فى العام الخامس للهجرة إثر غزوة الأحزاب .

خيبر :

« لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا »[1] صدق الله العظيم . وقد برهنت الأحداث طوال القرون على شدة عداوة اليهود للمسلمين ، لقد أساءوا ـ كما قلنا ـ حتى عندما أحسن إليهم ، ووجد الرسول أن جانبهم لم يعد مأموناً ، فلم يكن بُدٌّ من القضاء على هذا الخطر الداهم ، هؤلاء الذين سببوا غزوة الأحزاب ، والذين يمكن أن يدبروا مؤامرة أخرى للهجوم على المدينة بعد أن فشلوا فى غزوة الأحزاب ، ولذلك نجد الرسول يعد العدة للزحف على يهود وادى القرى وفدك وتيماء وخيبر ، وكانت خيبر أقوى حصون اليهود وأخطرها ، لقد كان بها يهود من

---

(١) المائدة ٨٢ .

قبل ، ثم انضم لهم مهاجرو بنى النضير ؛ فأصبحت خيبر أكثر بلاد اليهود فى الجزيرة العربيـــة عدداً وأعظمها قوة ، ثم كانوا موتورين لأن المسلمين أخرجوهم من ديارهم بالمدينة ، لذلك كانوا أكثر اليهود حنقا على المسلمين ، وقد فشلوا فى الغزوة التى دبروها ودعوا إليها : غزوة الأحزاب ، ولم يبق إلا أن ينالوا جزاء غدرهم فهاجمهم المسلمون فى السنة السابعة للهجرة بعد أن هدأت العداوة بين المسلمين وبين قريش وعقد بينهما صلح الحديبية الذى سنتكلم عنه فيما بعد ، وحاصر المسلمون خيبر وامتد الحصار وطال ، وأخذت حصون اليهود تتساقط بسهولة أو بصعوبة فى يد المسلمين[١] ، ولم يجد اليهود بداً من أن يستسلموا واتفق معهم المسلمون اتفاقاً سمحاً مرة أخرى ، فقد اكتفى الرسول بمقاسمتهم الزرع والثمار[٢] ، وكان يقصد من ذلك أن يكون له الإشراف عليهم حتى لا يعودوا إلى ألوان الغدر مرة أخرى .

ولما تهاوت حصون خيبر اتفق يهود فدك على النزول على الشروط التى نزل عليها يهود خيبر[٣] ، أما يهود وادى القُرَى وتيماء فقد امتنعوا وقاتلوا فهزمهم المسلمون ، ثم تركوهم على النخل والأرض على نظام خيبر[٤] ، وانكسرت بذلك شوكة اليهود وإن كانت الشوكة لم تزل نهائياً وبقيت كليلة حيناً ، ومدمية كلما وجدت سبيلا إلى الإيذاء .

نهاية اليهود فى الجزيرة العربية :

امتد الإسلام فى عهد الخلفاء الراشدين وتجاوز أرض خيبر حيث دخل فارس والروم ، وأصبح يهود خيبر فى ظهر المسلمين ؛ فخاف عمر خطرهم ،

---

(١) ابن هشام ٢ : ٢٣٩ – ٢٤٠ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٧ .

(٣) فتوح البلدان ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٤) البلاذرى ص ٤٧ .

وخشى أن يضربوا المسلمين من الخلف كما فعلوا من قبل ، ثم إن عمر رأى ضرورة ضمان السلامة والوحدة فى الجزيرة العربية قبل أن تزحف جيوشه خارج هذه الجزيرة ، ورأى أن الأوان قد آن لتنفيذ وصية الرسول صلوات الله عليه ألا يجتمع بجزيرة العرب دينان[١] وزيادة على ذلك يروى البلاذرى[٢] أن يهود خيبر « عاثوا فى المسلمين وغشوهم فألقوا ابن عمر من فوق بيت وفدغوا يديه » لكل ذلك استقر رأى عمر على إجلائهم فقوّم أرضهم ومساكنهم ونخيلهم ودفع لهم قيمتها وأجلاهم إلى الشام .

المستشرقون واليهود :

المستشرقون هم أولئك الغربيون الذين اشتغلوا بالدراسات الإسلامية ، وكثير من المستشرقين أدى لهذه الدراسات خدمات كبيرة ، وبخاصة فى طرق البحث التى سبقوا المسلمين فى معرفتها وإجادتها ، ولكن مع الأسف كان أكثر المستشرقين من اليهود ، ولم يستطع هؤلاء أن ينسوا عواطفهم وهم يبحثون فى الدراسات الإسلامية ، فاستعمل بعضهم أقسى الألفاظ وهو يتحدث عن الدين الإسلامى وعن الرسول محمد ، وهاجموا الإسلام فى جميع مسائله سواء منها ما اتصل باليهود أو لم يتصل بهم ، وكانت دراسة بعضهم سلسلة من النقد أو القذف أو الهجاء[٣] ، وليس لنا أن نجاريهم فى ذلك ، وإنما نقولها كلمة قوية قالها المنصفون من المستشرقين وهى أن مبادئ الإسلام تُعَدّ من أرقى الفلسفات فى شئون الدين وإدارة الدنيا ، وإن معاملة المسلمين لغير المسلمين كانت دائما سلسلة من التسامح واليسر ، وكان هذا طابعها حتى مع من فتكوا بهم واستحلوا دماءهم ، وليست الحروب الصليبية وموقف صلاح الدين الأيوبى من الصليبيين ببعيد .

---

(١) ابن هشام ٢ : ٢٤٩ .

(٢) البلاذرى ٣٨ ، ٤٢ .

(٣) ارجع لمقدمة هذا الكتاب ، وكنموذج لكتابة المستشرقين يراجع القارئ مؤلفات جولدزيهر .

القبلة :

هناك موضوع يتصل باليهود وجدالهم بالحق والباطل مع المسلمين ، وهذا الموضوع هو موضوع القبلة ، وفلسفة الإسلام تقضى بخلق روابط بين المسلمين ، فى أكثر أمور الدين والدنيا فهم جميعا يصومون شهر رمضان ، ويصلون صلوات موحدة ، ويحجون إلى بيت الله العتيق ، وهكذا ، ومن هذه الأشياء أن يتجه المسلمون جميعا إلى مكان واحد وقت الصلاة ، ليحصل التجانس بين صفوف المصلين وبخاصة فى صلاة الجمعة والجماعة لتطرد الوحدة التى عنى بها الإسلام ، أما المكان الذى اختير ليتجه له المسلمون فى بادئ الأمر ، فهو الكعبة لأنها بيت الله العتيق ، وبناء إبراهيم وموضع فخار العرب .

غير أن بعض العرب أساء فهم الحكمة من اختيار الكعبة وظن أن المكان نفسه معظم فأراد الله أن يعلمهم أن اتجاههم إنما هو فى الحقيقة لوجهه تعالى ، وأن اختيار الكعبة إنما هو تفضل من الله لرعايته حبهم لهذا المكان ولأن هذا المكان شهد دين إبراهيم وشهد عبادة الله منذ آلاف السنين ، ولكن إذ تعلق بعض العرب بالكعبة وإذ غفل بعضهم عن أن الاتجاه إنما هو لله ، فقد اتجهت حكمة الله أن يغير القبلة ، وأن يختار مكانا آخر ليختبر عمق إيمان المسلمين وطاعتهم ، وليثبت فى نفوسهم هذه الحقيقة الهامة التى ذكرناها من قبل ، وهى أن الاتجاه يجب أن يفهم على أنه لله تعالى . وفى هذا المعنى وردت الآية الكريمة :

« ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله »(١) وقد قال المفسرون فى تفسير هذه الآية : أنه لا يختص مكان دون مكان بخاصية ذاتية تمنع إقامة غيره مقامه(٢) .

وكانت هذه الآية — كما قال المفسرون — توطئة لنسخ القبلة ، كما

---

(١) البقرة ١١٥ .

(٢) انظر تفسير البيضاوى ص ٣٤ .

كانت تعليما للمسلمين بأن الاتجاه لله لا للمكان ، وأن اختيار المكان ، إنما هو مطابق لفلسفة الإسلام التى سبق ذكرها والتى تقضى بخلق روابط بين المسلمين ، فلو لم يحدد مكان واتجه كل مسلم حيث يريد لضاعت الرابطة التى يحرص الإسلام عليها .

ولهذه العوامل اختار الله للمسلمين قبلة جديدة عقب الهجرة وهى الاتجاه لبيت المقدس ، واستجاب المسلمون لإرادة الله وأدركوا حكمته تعالى ، ولكن ظهرت عوامل أخرى ، فقد كان بيت المقدس قبلة اليهود ، فإذا بهؤلاء يأخذون من اتجاه المسلمين إلى قبلتهم وسيلة للسخرية وانطلقوا يقولون : محمد لا يتبع ديننا ويتبع قبلتنا وشق على العرب أن يتجهوا إلى قبلة اليهود ، ولكنهم فى الحقيقة استجابوا بكل قوة وإيمان متحملين سخرية اليهود إرضاء لوجهه تعالى . وبقيت الحال على ذلك ستة عشر شهراً ثبت فى نفوس المسلمين أن الاتجاه فى الصلاة هو فى الحقيقة لله وأن المكان شىء يمكن تغييره .

وقد توقع الرسول ووقع فى روعه أن الله سيحوِّله إلى الكعبة مرة أخرى ، وكان الرسول يتطلع إلى الله فى صمت ودون دعاء آملا أن يحقق الله له ذلك إرضاء للمسلمين ورداً على سخرية اليهود ، وقد عبر الله تعالى عن ذلك بقوله : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء ، فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره[١] » .

وكان ذلك إذناً للمسلمين بالعودة إلى قبلتهم الأولى ، ويروى أن هذه الآية نزل بها الوحى والرسول يؤم الناس فى صلاة الظهر فى مسجد بنى سلمة ، وقد جاء نزولها بعد أن صلى الرسول ركعتين من الظهر متجهاً إلى بيت المقدس ، فتحول إلى الكعبة حيث صلى الركعتين الأخيرتين ، وتحول الناس خلفه[٢] .

---

(١) البقرة ١٤٤ .

(٢) انظر البيضاوى ص ٣٤ .

ولم يكن هذا نهاية الموضوع ، فإن اليهود بعد أن ترك الرسول قبلتهم راحوا يقولون : لو ثبت محمد على قبلتنا لكنا نرجو أن يكون صاحبنا الذى ننتظره ، وكانوا يقصدون بذلك أن يعود محمد إلى قبلتهم لا ليتبعوه ، ولكن ليحدثوا اضطراباً فى الفكر وبلبلة فى النفس ، ولذلك قطع الله أملهم وكشف سريرتهم بقوله :

« ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ؛ وما أنت بتابع قبلتهم ، وما بعضهم بتابع قبلة بعض[١] » .

---

(١) البقرة ١٤٥ .

الإسلام والقتال

هناك عنصران رئيسان للحديث عن الإسلام منذ الهجرة حتى وفاة الرسول ، وهذان العنصران هما :

١ – تكوين المجتمع الإسلامى .

٢ – حماية هذا المجتمع والدفاع عنه .

وقد تكلمنا عن المجتمع الإسلامى وعناصر تكوينه وسيأتى فيما بعد مزيد من الحديث عن المجتمع ، وعن التشريعات التى أدخلها الإسلام والتغييرات التى أحدثها فى معتنقيه .

أما حماية هذا المجتمع فقد تحدثنا عن حمايته من اليهود ، وسنتحدث الآن عن حماية أوسع ، وعن حروب كثيرة حصلت فى عهد الرسول وبعد وفاته ، وسنجعل سبيلنا فى الحديث – كما نحاول دائما – أن يكون بحثا عمليا نبرز فيه اتجاه الإسلام واتجاه المسلمين دون أن يكون هناك مجال للتعصب .

يعتقد بعض المستشرقين وبعض من لم تتح لهم الفرصة للتعمق فى الدراسات الإسلامية أن القوة كانت عاملا هاما فى انتشار الإسلام ، ويتخذون من الحروب التى حدثت فى حياة الرسول وبعد وفاته دليلا على ذلك ، ولهذا نسأل هنا سؤالين هامين :

١ – هل انتشر الإسلام بالدعوة أو بالقوة ؟ وما الدليل على ذلك ؟

٢ – وإذا كان انتشر بالدعوة فلماذا حدثت الحروب بين المسلمين وغيرهم ؟

وللإجابة عن السؤال الأول نقول فى قوة وإصرار : إن الإسلام لم ينتشر بالسيف وإنما انتشر بالدعوة ، ونضع البراهين الواحد بعد الآخر فى سلسلة من آيات القرآن ، ثم فى سلسلة من أحداث التاريخ بحيث لا يبقى للشك مجال .

فأما عن القرآن فهناك قوله تعالى :

« لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى »(١) .

« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة »(٢) .

« لكم دينكم ولى دين »(٣) .

« فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب »(٤) .

وأما سلسلة التاريخ فترينا بوضوح أن الإسلام سلك طريقه بالدعوة متبعا هذه الآيات البينات ومبتعداً كل البعد عن القوة . وإلى القارئ بيان ذلك .

١ – حينما كان الرسول فى مكة ، وحينما بدأ دعوته وحيدا لا سلاح معه ولا مال ، دخلها مجموعة من عظماء الرجال من أمثال أبى بكر وعثمان وسعد بن أبى وقاص وطلحة والزبير ثم عمر بن الخطاب وحمزة ابن عبد المطلب . . . . فهل يمكن أن نقول إن هؤلاء دخلوا بالقوة . وأين القوة فى ذلك الوقت ؟ .

٢ – واضطهدت قريش المسلمين اضطهادا قاسيا ، وأنزلت بمحمد وأتباعه ألوانا من العذاب ، وفى وسط هذا العناء حينما كان محمد والمسلمون معه بمكة مغلوبين على أمرهم مستضعفين ، كان أهل المدينة يسعون للإسلام فيعتنقونه ويدعون له ذويهم وأهليهم ، فهل يمكن أن نقول إن الإسلام انتشر بالقوة بين سكان المدينة ؟

٣ – جاء الصليبيون إلى الشرق إبان ضعف الخلافة العباسية لمحو الإسلام والقضاء عليه . وإذا بالإسلام يجذب جموعا منهم فيدخلونه ويحاربون فى

---

(١) البقرة ٢٥٦ .

(٢) النحل ١٢٥ .

(٣) الكافرون ٦ .

(٤) الرعد ٤٢ .

صفوف المسلمين . يقول توماس أرنولد : « لقد اجتذبت الدعوة المحمدية إلى أحضانها من الصليبيين عددا مذكورا حتى فى العهد الأول أى فى القرن الثانى عشر . ولم يقتصر ذلك على عامة النصارى بل إن بعض أمرائهم وقادتهم انضموا أيضا إلى المسلمين حتى فى ساعات انتصارات المسيحيين » ويقول بعض مؤرخى النصارى « إن ستة من أمراء مملكة القدس استولى عليهم الشيطان ليلة معركة حطين ، فأسلموا وانضموا إلى صفوف الأعداء دون أن يقهروا من أحد على ذلك ، فهل يمكن أن نقول إن الإسلام انتشر بين هؤلاء بالقوة ؟[١] .

٤ — فى القرن السابع الهجرى هاجم المغول العالم الإسلامى ، وكان هجومهم وحشياً قاسياً مدمراً ، سفكوا الدماء فسالت أنهاراً ، وحطموا الحضارة الإسلامية ، وهدموا القصور والمساجد ، وأحرقوا الكتب ، وقتلوا العلماء ، وامتدت أيديهم إلى الخليفة فقتلوه وقتلوا معه أهله . وأزالوا الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ ، وأصبحت للمغول اليد العليا ، وهوت أمامهم كل قوى المسلمين فى عاصمة الخلافة وما حولها ، ولكن سرعان ما جذب الإسلام إليه هؤلاء الفاتحين الغزاة ، وسرعان ما دخل المغول الدين الذى هاجموه وعملوا على تقويضه . فهل يمكن أن نقول إن الإسلام انتشر بين المغول بالقوة .

يقول سير توماس أرنولد فى ذلك « لا يعرف الإسلام من بين ما نزل به من خطوب وويلات خطباً أعنف قسوة من غزوات المغول ، فلقد انسابت جيوش جنكيزخان ، واكتسحت فى طريقها العواصم الإسلامية وقضت على ما كان بها من مدنية وحضارة ، على أن الإسلام لم يلبث أن نهض من رقدته وظهر من بين الأطلال ، واستطاع بواسطة دعاته أن يجذب أولئك الفاتحين البرابرة ويحملهم على اعتناقه[٢] »

---

(١) The Preaching of Islam P.P. 82—83

(٢) المرجع السابق ص ٧١ .

٥ – انتشر الإسلام فى أندونيسيا وفى أفريقية ، فأين القوة التى نشرته فى هذه البلاد الواسعة وجذبت له قلوب الملايين ؟

٦ – وهل كانت غزوات الرسول ذات بال من الناحية الحربية ؟ إن التاريخ يحدثنا أنّ أكثر غزوات الرسول أو كلها تقريبا انتصر فيها أعداء المسلمين(١) ، ولكن الإسلام كان ينتشر فى حالتى انتصار المسلمين وانهزامهم .

٧ – ويحدثنا التاريخ بصراحة ووضوح أن أهم فترة انتشر فيها الإسلام هى فترة السلم الذى تلا صلح الحديبية بين قريش والمسلمين كما سيأتى ، وكانت فترة السلم سنتين ويقول المؤرخون إن من دخل الإسلام فى خلال هاتين السنتين أكثر ممن دخلوه فى المدة التى تقرب من عشرين عاماً منذ بدء الإسلام حتى ذلك الصلح . وهذا يدلنا على أن انتشار الإسلام تبع السلم ولم يتبع الحرب .

وتجىء بعد ذلك إلى السؤال الثانى : لماذا حدثت الحروب بين المسلمين وغيرهم ؟

والإجابة عن هذا السؤال سهلة يسيرة أشرنا إلى بعضها فيما سبق . وسنذكر فيما يلى موجزاً شاملا لها :

١ – الدفاع عن النفس : يقرر التاريخ أن المسلمين قبل الهجرة لم يؤذن لهم بقتال وقد ضُرِب عمار وبلال وياسر وضرب محمد وأبو بكر . ومات ياسر تحت العذاب كما ذكرنا من قبل . ولم يرفع هؤلاء أيديهم لرد الاعتداء الذى وقع عليهم . ولكن المشركين أسرفوا فى ذلك : ووصلوا إلى حد تقرير قتل محمد . فلما أفلت منهم محمد وأفلت منهم المسلمون بالهجرة ، وضع المشركون خطتهم على أن يقضوا قضاء عاجلا على المدينة حتى تتخلص الجزيرة العربية من الإسـلام والمسلمين : فكان من الضرورى أن يدافع المسلمون عن أنفسهم . وقد أذن الله لهم بالدفاع بقوله : « أذن للذين يقاتلون

---

(١) اقرأ الباب الرابع من كتاب المجتمع الإسلامى للمؤلف .

بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله[١] » ويتضح من الآية للذى يمعن النظر أن الإسلام لا يحب القتال . فالفعل (أُذِنَ) مبنى للمجهول وفاعله عند ما كان مبنياً للمعلوم هو الله سبحانه وتعالى وقد بُنِيَ الفعل للمجهول لأن الله لم يرد – فيما أفهم – أن يُذكر اسمه الكريم متصلا بالإذن بالقتال . ثم إن نائب الفاعل محذوف تقديره : القتال ، أى أذِنَ لهم القتال ، ولم يذكر نائب الفاعل أيضاً لأنه كلمة (القتال) وبَدَلَ نائب الفاعل ذكر سبب الإذن وهو (بأنهم ظلموا) وقد دعا هذا بعض المسلمين أن يقولوا عند ما نزلت هذه الآية : إنها لا تكفى لنقاتل المشركين لأن روحها تميل إلى السلم ولو أن ألفاظها تأذن بالقتال . ولم يبدأ القتال الصحيح بين المسلمين وغيرهم إلا بعد أن نزلت آية أخرى هى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين »[٢] ومع أن الإذن هنا صريح إلا أنه مشروط بالدفاع ، وعدم الاعتداء ، فالاعتداء يسبب سخط الله .

وهكذا كان السبب الرئيسى للقتال هو الدفاع عن النفس والعرض والمال.

وهنا يبدو موضوع هام يتصل بالحبشة ، تلك البلاد التى ليست بعيدة عن الجزيرة العربية والتى للمسلمين بها عهد منذ مطلع الإسلام فقد هاجروا إليها كما سبق القول ، والسؤال المهم هو أن المسلمين لم يهاجموا الحبشة ، لأن الحبشة لم تمسهم بسوء ، ولو كان المقصود نشر الإسلام بالقوة لهاجموها ، فهى أقل قوة من الفرس والروم ، وقد يقال إن البحر يحميها منهم ، والجواب سهل ، فقد ملك المسلمون بحرية قوية هاجموا بها القسطنطينية وسيطروا بواسطتها على أهم جزر البحر الأبيض المتوسط ولكنهم لم يتجهوا للحبشة فما كانت أعمال المسلمين الحربية إلا دفاعا ورداً لاعتداء .

٢ – تأمين الدعوة وإتاحة الفرصة للضعفاء الذين يريدون اعتناقها :

---

(١) الحج ٣٧ .

(٢) البقرة ١٩٠ .

كانت الدعوة الإسلامية مهددة ، وكانت قريش تسلك كل السبل للقضاء عليها ، ثم كان هناك كثير من العرب يميلون للإسلام ويريدون الدخول فيه ، ولكنهم كانوا يخافون أن ينزل بهم ما نزل بمن سبقوهم إلى الإسلام من عذاب وإيذاء ، فأذن الله لرسوله وللمؤمنين أن يقاتلوا من قاتلهم ، وأن يردوا الاعتداء الذى قد ينزل بأحد منهم بقوة السيف .

٣ ـ المحافظة على الأمة الإسلامية من أن تدكها جيوش الفرس والروم : قبل الإسلام لم تكن هناك أمة عربية ، وإنما كانت هناك قبائل عربية متحاربة متنافرة ، ولذلك لم يكن الفرس والروم يقيمون حسابا للعرب ، إذ كان العرب داخل جزيرتهم يصطرعون صراعا يكاد يكون متصلا ، وعلى هذا غض الفرس والروم بصرهم عن الجزيرة العربية لأنها لم تكوِّن وحدة يمكن أن تصبح خطراً على الدولتين المجاورتين : الفرس والروم .

فلما جاء الإسلام آمن به بعض العرب وكفر به آخرون ، وقام نزاع عنيف فى الجزيرة العربية بين المسلمين وغير المسلمين (قريش واليهود) ، وفى هذه المرحلة لم يهتم الفرس والروم أيضا بهذا الدين الجديد ، وقالوا إنها حركة قام بها عربى وسيقتلها العرب واليهود ، وظنوا أنها نوع من الصراع بين القبائل العربية لا يلبث أن يموت .

ولكن سرعان ما بدأ الإسلام ينتصر وينتشر ، وسرعان ما تكونت فى الجزيرة العربية دولة قوية متحدة ، وبالإضافة إلى قوتها واتحادها كانت هناك مبادىء الدين الجديد الذى اجتمع العرب حوله ، هذه المبادىء التى جعلت العرب يعشقون الجهاد فى سبيل الله لملاقاة إحدى الحسنيين : أن يموت المجاهد شهيداً أو أن ينتصر مدافعاً عن الإسلام ، هذه المبادئ التى وحدت العرب وألزمتهم الطاعة لله والرسول وإلى أولى الأمر وأن يتركوا لهم الرأى عند النزاع قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول[1] » .

---

(١) النساء ٥٩ .

كل هذا أدخل الذعر والخوف فى نفوس الفرس والروم ، فقد أصبحت الجزيرة العربية منافساً خطيراً ، قويا متحدا وأصبحت دولة لها دين ولها مبادئ ، تعمل على نشر هذا الدين وإذاعة أخباره واكتساب الأنصار إليه ، من أجل هذا دخل الفرس والروم المعركة ، وقررتا ضرورة القضاء على الدولة الإسلامية الجديدة والقضاء على الوحدة التى تكونت عند العرب ، وقد بدأ ذلك والرسول صلى الله عليه وسلم لا يزال حيا . فقد وقعت فى حياته غزوة مؤتة . بين المسلمين والروم وقتل فيها مجموعة من خيرة القواد المسلمين . كما خرج الرسول لمواجهة الروم فى غزوة تبوك عندما بلغه أنهم تجمعوا لمهاجمة المسلمين ، وكان المسلمون يتوقعون هجوم الروم عليهم كل لحظة ، ومما يدل على ذلك أن صحابيا فى أثناء حياة الرسول دق باب عمر بن الخطاب فى ليلة وعمر نائم ، فهب عمر من نومه مذعورا وهو يقول : ما هو ؟ أجاءت غسان ؟

وكما تحرش الروم بالمسلمين تحرش بهم الفرس أيضا ، فالتاريخ يروى لنا أن القبائل الموالية للفرس كانت توالى الإغارة على أرض المسلمين ، ولم تكن حرب المسلمين مع الفرس إلا امتداداً للدفاع الذى قام به المسلمون ليحموا أنفسهم وذويهم من هؤلاء المغيرين .

وهناك فكرة هامة يجدر بنا أن نوضحها تماما ، ويجدر بالقارئ أن يتفهمها تلك الفكرة هى أنه لا علاقة بين انتشار الإسلام وبين حروب المسلمين مع الفرس والروم ، فقد كانت الحروب تشتعل ، وكان المسلمون ينتصرون ، ثم تتوقف الحروب وتتوارى السيوف . وحينئذ يتقدم الدعاة والمعلمون فيشرحون نظم الإسلام ومبادئه وفلسفاته (سيأتى الحديث عن فلسفة الإسلام ومبادئه فيما بعد) . وكانت هذه الدعوة السمحة تجذب لها الناس وبخاصة عندما رأت الشعوب المغلوبة الفرق الكبير بين حكم قيصر وطغيانه ، وبين بساطة عمر بن الخطاب وسماحته وتواضعه ، وبالدعوة

دخل الناس أفواجا فى الدين الجديد ، فمنهم من أسرع فى الدخول ومنهم من دخل بعد عام أو خمسة أعوام أو عشرة أو مائة .... ويقول Kirk[١] إن غالبية أهل الشام ومصر السفلى فى القرن التاسع الميلادى كانت لا تزال مسيحية على الرغم من أن الإسلام قد مضى عليه فى هذه البقاع أكثر من قرنين ، ومنهم من لم يدخل حتى الآن ، وتستطيع أن ترى اليوم الآلاف أو الملايين من المسيحيين فى الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العراقية وغيرهما من البلاد الإسلامية .

فالحرب فى الحقيقة لم تكن مع الشعوب ، وإنما كانت مع قيصر وكسرى وجيوشهما ، هؤلاء الجبابرة الطغاة الذين كانوا يقفون حاجزا يحول بين الناس وبين الدين الجديد ، فلما سقط هذا الحاجز أسرعت الشعوب التى كانت خاضعة مغلوبة على أمرها ، فدخلت الإسلام واستعذبت الحرية فى ظلاله .

ومبادئ الإسلام واضحة فى أن أى قتال إنما هو لرد عدوان كما سبق ، وينص القرآن على أن على المسلمين أن يلجأوا للسلم إذا لجأ له أعداؤهم ، قال تعالى « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله[٢] » وقد سار الرسول على هدى هذه الآية الكريمة فنراه يخرج لملاقاة الروم عندما بلغه أن جموعهم تجمعت على أطراف الجزيرة وأنها تريد الهجوم فلما وصل إلى تبوك ووجد أن جيوش الروم تراجعت لم يفكر فى مهاجمة الروم ، وإنما عاد أدراجه إلى المدينة .

بقى موضوع نحبُّ أن نحققه بإنصاف وعمق وهو مكانة الناحية الاقتصادية فى الفتوح ، وقد اهتم بهذه الناحية كثير من الباحثين ، وعدها بعضهم العامل الرئيسى فى التوسع الذى قام به العرب ، يقول الدكتور فيليب حتى[٣]

---

(١) A Short History of the Middle East p. 36

(٢) الأنفال الآية الواحدة والستون .

(٣) History of the Arabs vol. I pp. 195—196

إن الحاجة المادية هى التى دفعت بمعاشر البدو ، وأكثر جيوش المسلمين منهم ، إلى ما وراء تخوم البادية القفراء ، إلى مواطن الخصب فى بلدان الشمال ، ولئن كانت الآخرة أو شوق البعض إلى بلوغ جنة النعيم قد حبب لهم الوغى فإن ابتغاء الكثيرين حياة الهناء والبذخ فى أحضان المدنية التى ازدهر بها الهلال الخصيب كان الدافع الذى حبَّب لهم القتال .

هل هذا الكلام صحيح ؟ وهل كان البدوى تواقا إلى حياة الهناء والبذخ ، وهل ذلك كان الدافع لهذا البدوى أن يخرج ليهدم أكبر إمبراطوريتين عرفهما تاريخ العالم فى ذلك الوقت ؟

نحب أن نقرر أن فكرة ربط الدعوة الإسلامية بالرغبة فى الحصول على المال قديمة جدا بدأت منذ بدء الإسلام واتُّهم بها محمدٌ نفسه قبل أن يتَّهم بها الدكتور حتِّى معاشر البدو بمدة طويلة ، ووجدت أدلة كثيرة تقوِّض هذه التهمة ، ولكنها مع ذلك لا تزال حية .

لقد اتهمت قريش محمداً بأنه طالب مال وعرضت عليه من ثرواتها فصاح : لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى ما تركت ذلك الأمر . . . . . .

وافتقر محمد بعد غنى وافتقر أبو بكر بعد غنى وافتقر عمر الذى آل له السلطان على الإمبراطوريتين العظيمتين وظل يعيش فى تقشف ظاهر ، وافتقر عثمان بعد غنى عظيم ، ومع هذا بقيت التهمة بأن المسلمين حاربوا لأنهم كانوا طالبي مال وثراء ! !

وعند البدء فى غزو فارس برزت هذه التهمة فى عقل رستم قائد الفرس وظن أنه يستطيع أن يرضى هؤلاء البدو بحفنات من ذهب الفرس وينجو من قتالهم فطلب من سعد بن أبى وقاص أن يوجه إليه بعض أصحابه فوجه إليه المغيرة بن شعبة ، فقال له رستم : قد علمت أنه لم تحملكم على ما أنتم فيه إلا ضيق المعاش وشدة الجهد ونحن نعطيكم ما تشبعون به ونصرفكم

ببعض ما تحبون(١) . والعجيب أن الدكتور حتّى يذكر هذه القصة حجة لدعواه ونسى أن رأى رستم لا يمكن أن يكون دليلا على المسلمين ونسى كذلك باقى الرواية حيث سخر المغيرة من رستم ومن رأيه ومن ماله ، وحيث صاح به بألا مناص لكم من واحدة من ثلاث : الإسلام أو الجزية أو القتال .

والذى ظنه رستم ظنه فيما بعد ملك الصين عندما زحف قتيبة بن مسلم على هذه الأصقاع وأناب عنه هبيرة الكلابى لمقابلة ذلك الملك ، فقال له الملك : قل لصاحبك (يقصد قتيبة) إنى عرفت حرصه وقلة أصحابه فلينصرف وإلا بعثت عليه من يهلكه . فصاح به هبيرة : كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون وكيف يكون حريصاً من خلّف الدنيا قادراً عليها وغزاك ؟ وأما تخويفك إيانا بالموت فإن لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهه أو نخافه .

إذاً فهذه التهمة قديمة وردها أيضاً قديم كما ترى ، على أننا لانحاول أن ننكر أن بين المحاربين العرب من كان يحب المال أو يسعى إليه ، ولكن الذى ننكره بقوة وإيمان هو أن يكون الدافع لهذه الحروب هو المال ، ومعنى الدافع هو القوة التى ترسم الخطط وتوجّه وهو كذلك الإحساس الداخلى الذى يحث المحاربين على العمل لتحقيق الأهداف التى رُسمت لهم ، هذا الدافع كان إسلامياً صرفاً ، وإذا جاء المال فهو تابع له ولكنه لم يكن قط هدفاً لذاته ، ونضع بعض الأدلة لإبراز هذا الرأى :

أولا — صارع المسلمون الشرك فى قلب الجزيرة العربية أكثر من عشرين عاما سقط فيها آلاف من خيرة المسلمين فى الغزوات وحروب المرتدّين والمتنبئين ومانعى الزكاة ، وكانت كل هذه الحروب تدور فى البادية القفراء كما سماها الدكتور حتى بعيدة عن الأطماع فى الأرض التى سماها مواطن الخصب وحياة

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٦٥ .

الهناء بالشمال ، فما الدافع لكل هذه الضحايا ؟ أضف إلى ذلك أن المسلمين طالما حاولوا الانتصار دون حرب ودون غنائم كما سنرى فى فتح مكة ، وطالما ردوا غنائم حصلوا عليها إذا أسلم أصحابها كما سنرى فى غزوة حنين والطائف .

ثانياً — أى مال كان يمكن أن يتطلع إليه المسلمون والوصول إليه محفوف بالمخاطر ، وقد سبق أن أوردنا أن عمر بن الخطاب حينما دق بابه أحد الصحابة وهو نائم ليلا هب عمر مذعورا وهو يقول : ما هو ؟ أجاءت غسان ؟ وقد عاش البدو آلاف السنين فى هذه الجزيرة القاحلة وكانوا يعرفون الخيرات فى الشمال ولكن أحلام أحدهم لم تصل إلى أن يطمع أن يدك عروش أن يجعلها تخضع لسلطان البدو الذين لا سلاح لهم ولا دربة ولا عدد فى حين كان للروم وللفرس جيوش جرارة وعتاد قوى ونظام كامل . وقد كان العرب لذلك يخافون حرب الروم وسنرى الهزيمة التى ستقع بهم فى غزوة مؤتة وسنرى ترددهم فى غزوة تبوك ، وقد عبر عمر بن الخطاب وهو من هو قوة ويقيناً عن قوة الروم بقوله : إنها الروم وبنو الأصفر ؛ عزم حديد وبأس شديد .

ثالثاً — لقد حافظ المسلمون قبل أن تكتسحهم الأطماع الدخيلة على حياة التقشف والزهد ، وعندما حاصروا حصن بابليون بعد أن فرغوا من الشام وفارس كانوا لا يزالون على بساطتهم وصفائهم ، وقد أرسل لهم المقوقس رسلا ليتعرفوا له أحوالهم فعاد الرسل إلى المقوقس وقالوا له : رأينا قوماً الموت أحب إليهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لأحد منهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة ، جلوسهم على التراب ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف كبيرهم من صغيرهم ولا السيد فيهم من العبد ...

رابعاً — طال حرب المسلمين مع البربر فى شمال إفريقية وامتد وسقط فيه كثير من الضحايا ، وليس فى شمال إفريقية ما يغرى وليست إلا شبيهة ببادية العرب .

خامساً – لقد وقعت معارك شنيعة فى داخل صفوف المسلمين بدأت بموقعة الجمل واستمرت بعد ذلك وسقط آلاف الضحايا فى هذه المعارك وما كانت تضيف أرضاً خصبة ولا حياة هناء وبذخ .

ما الدافع الحقيقى لهذه الحروب ؟

إنها العقيدة التى رخص من أجلها كل شىء ، وهانت من أجلها كل تضحية ، لقد كانت هناك أطماع مالية ، ولكن هذه بدأت متأخرة وكانت عند من لم يتعمق الإيمان فى نفسه ، وكانت على العموم عاملا ثانوياً ، ومن ذا الذى يحمل رأسه على يده ويقابل بها أقوى جيوش الدمار والفتك لينال من بذخ العيش فى أحضان الهلال الخصيب ؟ والتاريخ الإسلامى مملوء بقصص البطولة ، وبهؤلاء الذين نسميهم بالفدائيين الذين يلقون بأنفسهم فى مراكز الخطر ليهلكوا وينجو الإسلام وترتفع راية هذا الدين . أين المال والرخاء لهؤلاء الشهداء ؟

وقد استمرت الحروب دائرة بين الفرس والروم أربعمائة سنة ، وكانت حروب أطماع ودنيا ، ولكن هؤلاء أو أولئك لم يستطيعوا أن يحرزوا نصراً مؤزراً لشىء واحد هو قلة العقيدة ، فلما هاجمهم البدو بسلاح العقيدة فلّ كل سلاح وتهاوت جيوش الفرس والروم تحت أقدامهم .

* * *

والآن بعد أن أوضحنا براءة الإسلام من تهمة انتشاره بالقوة ، وأوضحنا أن العامل الاقتصادى لم يكن هدف المسلمين وسبب انتصارهم ، وأوضحنا السبب فى الحروب التى قام بها الرسول وأصحابه من بعده ، نخطو خطوة جديدة لنعطى موجزاً عن الحروب التى تمت فى عهد الرسول ، ثم نتبعها فيما بعد – عند الكلام عن الخلفاء الراشدين – بالحديث عن الحروب التى وقعت ضد الفرس والروم .

الغزوات والسرايا

تطلق الغزوة على الجيش الذى قاده الرسول بنفسه لمقابلة عدو سواء حصل قتال أو لم يحصل ، أما السَّرِيَّة فتطلق على الجيش الذى وكل الرسول عنه نائباً لرياسته ، وهذا اصطلاح غالب ، فقد تطلق كلمة « غزوة » على ما هو فى الحقيقة سرية ، كغزوة مؤتة .

وكتابة تاريخ الغزوات أو تدريسها يختلف باختلاف ثقافة القارئ أو الطالب فإذا كانت الكتابة بالمجلات العسكرية أو كان التدريس بالكليات العسكرية فإن الاهتمام يتجه إلى المواقع الاستراتيجية والتكتيك الحربى والحيل التى يقوم بها كل فريق رجاء النصر ، كما يتجه لدراسة التدريب والأسلحة والإمدادات وغير ذلك ، ولكن كتابة تاريخ الغزوات والسرايا أو تدريسها للمدنيين يختلف عن ذلك لأنه يتجه إلى دراسة نتائج المعركة لا سيرها ، ويعنى بإيضاح ما ترتب على النصر أو الهزيمة من نظم وحضارات ، أما سير المعركة فليس كبير الخطر بالنسبة لهؤلاء ، وسنُعنى فى دراسة الغزوات والسرايا هنا بالاتجاهين جميعاً مولين أهمية أكبر إلى ما ترتب على التوسع الإسلامى من سير الإسلام وانتشار حضارته ، أما دراسة الجيش الإسلامى وتكوينه وأسلحته .. فستأتى عند دراسة « الحياة العسكرية فى الإسلام » فى الحضارة الإسلامية .

ويقول المؤرخون إن الرسول اشترك فى سبع وعشرين غزوة وقاتل فى تسع منها ، وإنه أرسل ما يقرب من ستين سرية ، ولا نزاع أن بعض هذه لم يكن بعيد الخطر ولم يذكر عنه المؤرخون معلومات كافية ، ولذلك سنكتفى هنا بالحديث عن الغزوات والسرايا ذات الأثر فى سير الإسلام وتقدم المسلمين(١) : (انظر الخريطة رقم ٣)

---

(١) أورد ابن القيم معلومات كافية منظمة عن مغازى الرسول وبعوثه ، انظر زاد المعاد الجزء الثانى والثالث ، وانظر جملة الغزوات والسرايا فى ابن هشام ٢ : ٣٥٤ وما بعدها .



(خريطة رقم ٣)

أشهر الغزوات

غزوة بدر الكبرى

زمنها : فى السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة .

مكانها : عند بئر بين مكة والمدينة ، وكانت هذه البئر مملوكة لرجل اسمه بدر فسميت باسمه[1] .

سببها :

أخرجت قريش المسلمين من مكة ، وأصبح المهاجرون فى المدينة وقد فقدوا دورهم وأموالهم ، وفى الوقت نفسه كانت قريش تدبر القضاء على المسلمين بالمدينة حتى لا يهددوا تجارتهم وحتى لا يستمروا فى ذم آلهتهم ، فوجد المسلمون أنه لا بد من مقابلة القوة بالقوة ، ولا بد من النيل من تجارة قريش كفاء ما حرمت قريش المسلمين أملاكهم وثرواتهم .

وكانت لقريش قافلة تجارية عائدة بتجارتها من الشام إلى مكة ، وكان أبو سفيان بن حرب يرأس هذه القافلة ، فقرَّر المسلمون أن يعترضوا طريقها ليثبتوا لقريش قوتهم ، ولينالوا من أموالهم إن أمكن ذلك نظير ما خسروا بهجرتهم من مكة كما سبق . فخرجوا لملاقاة القافلة وكان عددهم ٣١٤ رجلا ، ولكن أبا سفيان علم بذلك فأرسل إلى مكة يطلب من قريش أن يسعوا له لحماية أموالهم التى يريد المسلمون أن يأخذوها ، فخرج جيش قريش وكان عدده حوالى الألف ، فيهم أبطال قريش وعظماؤها ، وفى الوقت نفسه استطاع أبو سفيان أن يغير الطريق الذى قصده المسلمون وأن يسير محاذيا البحر وينجو بتجارته .

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ٢ : ١٢٨

الجيشان والمعركة :

أفلتت تجارة قريش كما قلنا ولكنها فى الحقيقة لم تكن الهدف الأساسى الذى تحرك له الجيشان ، ولو كانت الهدف الحقيقى لعادت قريش بعد أن نجت تجارتها ، ولعاد المسلمون بعد أن يئسوا من الاستيلاء على هذه التجارة . وعلى كل حال فقد أفلتت القافلة التجارية ولكنها تركت فى وادى بدر جيشين على أهبة القتال ، وكل من هذين الجيشين تدفعه عوامل عميقة ليعمل جاهدا رجاء أن يقضى على الجيش الآخر ، وكل من هذين الجيشين يدرك ألا طمأنينة له ولا هدوء وهناك الجيش الآخر يتربص له ، حتى أن المسألة أصبحت قضية حياة أو موت . تعال بنا نستعرض بإيجاز الدوافع الحقيقية التى كانت وراء كل من هذين الجيشين .

فمن ناحية قريش أصبحت شكوكهم حقائق مؤلمة ؛ لقد كانوا يخافون هجرة المسلمين ظنا منهم أن المسلمين سيعترضون طريق تجارتهم ويهددون حياتهم الاقتصادية ، فأصبح هذا الشك حقيقة واقعة ، فإن محمدا ما كاد يستقر بأصحابه فى المدينة حتى خرج بهم يهدد القوافل التجارية ويحاول الاستيلاء عليها ، وإذا حبسهم المسلمون فى جنوب الجزيرة فالويل لهم والبوار لتجارتهم ، ولذلك لم يكن هناك بد من أن تحارب قريش المسلمين لتقضى عليهم ولتعيد الأمن لطرقها التجارية .

ولا يزال هتاف الأصنام يدوّى فى عقول قريش ، ويحثهم على الانتقام لآلهتهم التى أوشك أن ينتصر عليها إله المسلمين .

وكان أبو جهل من القادة فى جيش قريش . وعداوة أبى جهل للإسلام قديمة وعميقة ، وثروة أبى جهل ضخمة تحدث عنها القرآن الكريم فى الآيات : « ... وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا »(١) فمن الضرورى لأبى جهل أن يحرس ماله وثراءه . وأى حراسة أهم من

---

(١) المدثر ١٢ — ١٤

القضاء على العدو الذى جثم فى الطريق يهدد التجارة الهابطة والصاعدة ؟

وفى المعسكر الآخر بوادى بدر كان يقف المسلمون الذين كظموا الغيظ سنين طويلة ، واحتملوا الاعتداء المتصل المتلون بمكة ، ثم هاجروا إلى المدينة تاركين المال والأهلين . وإذا بجيوش قريش تلاحقهم .

هل كان من الممكن أن يرتد هذان الجيشان مع هذه الدوافع دون قتال ؟

الجواب : لا ، وهذا ما كان .

وتحدثنا الروايات التاريخية عن بعض الجهود التى بذلها حكيم بن حزام وآخرون لمنع الحرب[1] ، ولكن هذه الجهود توقفت بسبب إصرار أبى جهل على الحرب[2] وسرعان ما برز من قريش ثلاثة يعدون من خيرة أبطالهم ، وهم ينتسبون إلى محتد رفيع وأرومة عريقة ، وهم فى الوقت نفسه أساطين بيت واحد ، أولئك كانوا : عتبة بن ربيعة وابنه الوليد وأخوه شيبة ، وعتبة هذا جد معاوية بن أبى سفيان لأمه ، فهو أبو هند ، والوليد أخوها ، وشيبة عمها . وانخلع هؤلاء الأبطال من معسكر قريش ، واتجهوا إلى الفراغ الذى يفصل بين الجيشين وصرخوا فى المعسكر الإسلامى : مَنْ يبارز ؟

ولم يكن من الممكن أن يحتمل المسلمون هذا التحدى ، وهم الذين هانت عليهم الدنيا ، وضحوا بأغلى ما فيها ، بالمال والبنين ، من أجل العقيدة . وحينئذ اختار الرسول من معسكره ثلاثة قريبى الصلة به وقدّمهم للمبارزة ، وكان هؤلاء عبيدة بن الحارث وحمزة وعليا ، ودار صراع عنيف بين هؤلاء الأبطال الستة ، وثار الغبار وكثف ، حتى لم يعد الناس يستطيعون رؤية المتبارزين ، وكان لمعان السيوف يبدو للناس كأنه البرق بين الغمام ،

---

(١) ابن هشام ٢ : ٦٧ وابن القيم : زاد المعاد ٢ : ٨٨

(٢) المرجعان السابقان .

وكانت صيحات الأبطال تشق الفضاء الصامت حولهم بعد أن خيم على الناس الوجوم والحذر ، ثم انجلت الموقعة عن قتل المشركين الثلاثة : قتل على قرنه الوليد ، وقتل حمزة قرنه عتبة ، وسقط شيبة بسيوف الثلاثة ، وعاد حمزة وعلى سالمين وأصيب عبيدة بجراح بليغة مات بها[١] .

وصارت تلك المبارزة عاملا كبيرا يدعو للحرب ، فرؤية الدم أثارت الحمية والحماسة فى الجانبين ، وهزيمة أبطال قريش كانت العار كل العار ، وبنو عبد شمس أصحاب العير والنفير الذين يضرب بهم المثل فى القوة ما كان لهم أن يعودوا فى ذلك الجو من الخزى والهزيمة .

وعلى هذا التقى الجيشان ، ودار صراع مرير ، بين القوة فى جانب قريش والعقيدة فى جانب المسلمين ، بين اعتداء المشركين ودفاع المسلمين ، أو قل بين جماعة قريش التى تستطيع أن تعيش إن انهزمت أو انتصرت وبين المسلمين الذين كانوا يدركون أنهم إن انهزموا فمعنى ذلك فناؤهم والقضاء عليهم وعلى الدين الذى اعتنقوه ، وفى ضوء هـــذه الدوافع سجل المسلمون انتصارا باهرا ، ومزقوا شمل عدوهم وقتلوا سبعين من خيرة أبطالهم فيهم القائد المعاند أبو جهل ، أما المسلمون فسقط منهم أربعة عشر شهيدا . وأسر من المشركين جملة من عظمائهم فدوا أنفسهم بالمال وغير المال صاغرين ، وكانوا على وشك أن تضرب رقابهم لولا سماحة محمد وشفاعة أبى بكر[٢] .

أهمية غزوة بدر :

من الممكن أن نقول إن غزوة بدر هى الغزوة الوحيدة التى انتصر المسلمون فى معاركها انتصاراً حقيقياً ، وقد هزم المسلمون فى غزوة أحد ،

---

(١) ابن هشام ٢ : ٦٧ .

(٢) اقرأ موضوع أسرى بدر فى كتاب المجتمع الإسلامى للمؤلف ، واقرأه كذلك فى زاد المعاد لابن القيم ٢ : ٦٧ .

وأحاطت بهم الأحزاب فى غزوة الخندق حتى أصابتهم ألوان من العناء ، وهزموا فى غزوة مؤتة وغير ذلك ، ولكن هزائمهم هذه لم تضعف شوكتهم بعد أن رسخت أقدامهم بالانتصار الذى أحرزوه فى غزوة بدر ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يدرك أهمية هذه الغزوة تمام الإدراك ولذلك كان يهتف منادياً ربه والمعركة تدور : يارب ، إن تهلك هذه الطائفة فلن تعبد فى الأرض(١) .

ومن هنا تتضح أهمية هذه الغزوة ، تلك الأهمية البالغة التى كانت أساساً متيناً لمستقبل الإسلام ، ولذلك يسميها المسلمون « غزوة الفرقان » لأن الله فرق بها بين الحق والباطل ، ومن أجل هذا اهتم المسلمون بذكر هذه الغزوة ولا يزالون يحتفلون بها فى كثير من بلدان العالم الإسلامى حتى اليوم ، وقد سمى كل من حضرها من المسلمين « بدريا » وكانت هذه التسمية شرفاً لا يعدله شرف ، ولو هزم المسلمون فى هذه الغزوة لكان من المحتمل أن يتغير وجه التاريخ ، وقد كان عون الله أكبر أسباب النصر الذى أحرزه المسلمون ، وقد سجل القرآن الكريم عون الله فى الآية الكريمة « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة »(٢) .

ومن أهم آثار غزوة بدر أن اليهود أزعجهم انتصار المسلمين فأخذوا يصغِّرون من شأن هذا الانتصار حتى لا يغترَّ به المسلمون ، وقد أدى ذلك إلى إخراج بنى قينقاع كما سبق القول ، كما أدرك اليهود أن هزيمة قريش تحتم على اليهود أن يدخلوا الميدان محاربين بعد أن ضعف أملهم فى أن قريشاً ستستطيع وحدها القضاء على الإسلام والمسلمين فبدأوا يدبرون المكائد للقضاء على الرسول وعلى الدين الذى جاء به كما ذكرنا آنفاً .

---

(١) ابن هشام ٢ : ٦٨ .

(٢) آل عمران ١٢٣ .

غزوة أحـــد

زمنها : فى منتصف شعبان من السنة الثالثة للهجرة .

مكانها : سفح جبل أحد الذى يقع فى الشمال من المدينة .

سببها :

كانت هزيمة قريش فى غزوة بدر كارثة قاسية عليهم ، وقد عقدوا العزم منذ ذلك التاريخ على الأخذ بالثأر ، ولذلك نجدهم يرصدون جميع أموال القافلة التجارية التى سببت غزوة بدر ليستعينوا بها فى حرب المسلمين[1].

وقد كانت قريش تخاف أن تتكرر هزيمة بدر ، ولذلك نجدهم يستعدون لغزوة أحد استعداداً كبيراً ، فيجمع أبو سفيان حوله ثلاثة آلاف من المقاتلين من قريش ومن عرب تهامة ومن الأحابيش ، والأحابيش هم بنو الحارث وبنو الهون من كنانة وبنو المصطلق من خزاعة والكلمة مأخوذة من تحبشوا أى تجمعوا[2] وقد سبق شرحها . كما صحب أبو سفيان نساء كبرائهم حتى يكنّ حائلا دون فرار الرجال كما كانت تقضى بذلك عادة العرب[3] .

ولما سمع الرسول بقدوم هذا الجيش استشار أصحابه فيما يفعل ، فأشار الشبان ومن لم يحضر بدرا عليه بالخروج لملاقاة جيش الأعداء ، وأشار بعض الصحابة أن يتحصن المسلمون بالمدينة وأن يتولوا الدفاع من دورها وحاراتها ، وكان الرسول يميل إلى هذا الاتجاه ، ولكن الاتجاه الأول حظى بتأييد أغلب المسلمين وبخاصة من لم يحضر بدراً رجاء أن ينالوا ما ناله

---

(١) ابن هشام ٢ : ١٢٦ وتاريخ الطبرى ٢ : ١٨٧ .

(٢) للروض الأنف ٢ : ٢٣١ .

(٣) ابن هشام ٢ : ١٢٦ – ١٢٧ وابن القيم ٢ : ٩١ .

البدرويين من شرف ، وعلى هذا خرج الرسول ومعه ألف مقاتل ؛ ولكن سرعان ما عاد عبد الله بن أبيّ بن سلول ومعه جماعة من المنافقين وكان هؤلاء حوالى ثلث الجيش ، وكانت حجة عبد الله فى عودته هى أن الرسول عصاه ، واتبع رأى الولدان الذين أشاروا بمواجهة الأعداء خارج المدينة ، وسارت المئات الباقية ولكن فى تثاقل ظاهر سببه هذا الانقسام الذى أحدثه المنافقون(١).

ووصل الرسول بجيشه إلى جبل أحد ، وأخذ ينظم هذا الجيش تنظيما دقيقاً واعياً ، واهتم اهتماماً كبيراً بظهر المسلمين خوفاً عليهم من خالد بن الوليد أن يلتف ومعه فرسان قريش الذين كانوا تحت إمرته فيضرب المسلمين من الخلف ، ولذلك اختار الرسول عدداً من خيرة الرماة ، وأمّر عليهم عبد الله بن جبير ، وأوقفهم لحماية ظهر المسلمين من خالد بن الوليد وأتباعه ، وأوصى الرسولُ عبدَ الله بقوله : انضح الخيل عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك ، لا نُؤتَيَنَّ من قِبَلِكَ(٢).

المعركة :

وبدأت المعركة بالمبارزة كالعادة ، فخرج من قريش طلحة بن أبى طلحة فبرز له علىٌّ فقتله ، فتبعه أخوه عثمان فصرعه حمزة ، فخرج أخوهما أسعد فقتله علىّ ، فتقدم الأخ الرابع مسافع فقتله عاصم بن ثابت ، ثم بدأت المعركة الشاملة ، وأظهر المسلمون فى مطلعها بطولة رائعة ، وزحزحوا قريشاً عن أمكنتها ، وحاول خالد بن الوليد أن يلتف حول المسلمين ولكن المسلمين ردوه(٣).

وظهرت طلائع النصر ، وتراجعت قوات قريش ، وبدأ المسلمون يجمعون بعض الغنائم من الضحايا أو من الفارين الذين يلقون متاعهم

---

(١) ابن هشام ٢ : ١٢٧ – ١٢٨ .

(٢) تاريخ الطبرى ٢ : ١٩٢ .

(٣) المرجع السابق ص ١٩٣ .

ويولون ، ولكن النصر لم يكن قد كمل ، وأخطأ الرماة فأخلوا أمكنتهم ظناً منهم أن المعركة قد انتهت ، وحرصاً منهم على أن يأخذوا نصيبهم من الغنائم[١] ، إذ كانت الغنائم التي يجمعها الجندى فى ذلك الوقت هى مرتّبهُ أو أهم مورد له ، وكانت كثرتها دليل بطولة المقاتل وخوضه المعمعة ، أما الذى لا يحصل منها على نصيب كبير فكان يعد متخاذلا لم يخض غمارها ولم يندمج فى نارها .

وقد أعطى خطأ الرماة فرصة لخالد بن الوليد الذى كان يترقب أن يخلو الطريق إليه ليدور ويضرب المسلمين من الخلف ، فلما أخلى الرماة أماكنهم نفذ خالد تدبيره وكانت هذه المفاجأة بعيدة الأثر فى صفوف المسلمين ، فاضطربوا ، واختلط عليهم الأمر ، وعم الذعر حتى قتل بعضهم بعضاً[٢] .

وأصيب الرسول بجرح فى وجنته وشج فى رأسه ، وكسرت رباعيته ، وسقط فى حفرة من الحفر وقد خضبته الدماء[٣] ، وصاح صائح قريش إن محمداً قد قتل ، ولعل المشركين صدقوا ذلك فاكتفوا بهذا ووقف القتال ، وقد حاول كعب بن مالك الأنصارى أن يعلن أن محمداً لم يمت ولكن الرسول أسكته خوفاً من أن تستمر المعركة فتزيد الضحايا من المسلمين[٤] .

وقد قتل فى هذه المعركة أكثر من سبعين من المسلمين فيهم البطل حمزة عم النبى ، وقد مثّلت هند بنت عتبة (الذى قتله حمزة يوم بدر) وزوجة أبى سفيان بجثة حمزة وشقت بطنه وأخرجت كبده ، وحاولت أكلها[٥] . وقاتل حمزة غلامٌ حبشى اسمه وحشى كان يجيد قذف النبال ، وقد أغراه بقتل حمزة سيده جبير بن مطعم ، وقال له : إن قتلت حمزة بعمى

---

(١) ابن قتيبة : المعارف ص ٧٩ .

(٢) ابن القيم : زاد المعاد ٢ : ٩٣

(٣) تاريخ الطبرى ٢ : ١٩٨ وابن هشام ٢ : ١٣٥

(٤) ابن هشام ٢ : ١٣٦ – ١٣٧ وابن القيم ٢ : ٩٤

(٥) ابن هشام ٢ : ١٣٩

طعيمة بن عدى فأنت حر ، فخرج حبشى وأخذ يتربص فرصته حتى لاحت له فأطلق نباله خلسة فخر حمزة صريعاً ، وقد أسلم وحشى بعد ذلك واشترك فى حرب المتنبئين ، ويروى أنه قتل مسيلمة الكذاب ، ولذلك كان يقول : قتلت شر الناس وقتلت خير الناس بعد الرسول[١] .

بعد المعركة :

كانت هذه الغزوة ذات أهمية كبيرة ، فقريش سرّها انتصارها العظيم وتريد أن تتبعه بانتصار آخر تقضى به على المسلمين قضاء نهائياً ، وهانت قيمة المسلمين عند قبائل العرب الأخرى ، وأعلن اليهود سخريتهم بالمسلمين واستهانتهم بهم ، وكان على المسلمين فى نفس الوقت أن يُبعدوا عن أنفسهم أثر هذه المحنة الكبيرة ، وأن يظهروا للناس فى مظهر قوى سليم ، ولذلك نجد الفترة بين أحد والأحزاب فترة صراع يريد المسلمون أن يستعيدوا كيانهم ، ويريد غير المسلمين متعاونين أن يكملوا النصر الذى حققته قريش فى أحد ؛ وفى هذا الجو النفسى المضطرب جاءت غزوة الأحزاب .

---

(١) ابن هشام ص ١٢٧ و ١٣٢

غزوة الأحزاب أو الخندق

زمنها : شوال من السنة الخامسة للهجرة .

مكانها : حول المدينة وبخاصة من الشمال .

سببها :

غزوة الأحزاب معروفة من اسمها ؛ إنها تجمُّعات من هنا ومن هناك تقصد القضاء على قوة الإسلام والمسلمين ، وكان يهود خيبر وبخاصة بنو النضير الذين طردوا من المدينة ، هم الذين جمَّعوا هذه الجموع وحزبوا الأحزاب على رسول الله ؛ يروى ابن هشام[1] أنهم خرجوا حتى قدموا مكة على قريش فدعوهم إلى حرب محمد وقالوا إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله . . . . . . ثم خرج هؤلاء اليهود إلى غطفان وبنى مرة وأشجع وأثاروهم كذلك .

وكانت قريش تدرك أن هذه الغزوة ستكون آخر محاولة جدِّيَّة بين مكة والمدينة بعد أن طال النضال عدة سنين ولذلك حشد لها أبو سفيان كل قواه ، وعمل لها كل حيلة رجاء أن تنجح .

وتجمعت قوى الأحزاب فى جيش هائل ، لعل الجزيرة العربية لم تشهده من قبل إذ كان عدده يربو على عشرة آلاف مقاتل[2] .

واتخذ المسلمون فى هذه الموقعة موقف دفاع ، فأشار سلمان الفارسى على الرسول أن يحفر خندقاً عميقاً واسعاً شمال المدينة ويلتف حولها من الغرب ، وأن يشبك أبنية المدينة ويسد مسالكها حتى تصبح حصناً واحداً ،

---

(١) ابن هشام ٢ : ١٨٧ – ١٨٨

(٢) المرجع السابق ص ١٨٩

وأن يخرج الرجال ليحموا المدينة خلف الخندق ، وقبل الرسـول رأى سلمان واشتغل بنفسه فى حفر الخندق مع المسلمين ، وتمت التحصينات ، ومن الممكن أن نفهم أن المسلمين اتخذوا هذا الرأى عودا إلى الفكرة التى عرضت قبيل غزوة أحد بأن يبقى المسلمون فى المدينة ويكون الدفاع من الداخل ، وقد هزم هذا الرأى فى غزوة أحد ، ولكن هزيمة المسلمين فى أحد رجحت هذا الرأى عند تجمعات الأحزاب .

ولما وصلت جموع قريش وحلفائها وجدوا الخندق يحول بينهم وبين الالتقاء بالمسلمين ، فعسكر الجيشان متقابلين ، وتراميا بالنبال والسهام أياما دون نتيجة تذكر . وكان جيش المسلمين حوالى ثلاثة آلاف مقاتل وقد حاول أفراد من جيش المشركين أن يقوموا بمجازفة عبر الخندق ، ولكن المسلمين كانوا يحرسونه بقوة وإصرار ولقد لقى بطل قرشى اسمه عمرو حتفه على يد علىّ بن أبى طالب حينما قام بهذه المحاولة ، وأراد عكرمة بن أبى جهل أن يكرر المحاولة فتصدى له علىّ وضيق عليه الخناق فلم يجد عكرمة بدا من الرجوع والفرار(١).

وطال الحصار ووجد الكلام سبيله إلى المتحالفين . فقـد جاءوا معاً ليعملوا السيف فى رقاب المسلمين فحال بينهم الخندق ، وعسكروا حوله ، وطالت أيامهم ونقصت مؤنهم ، وصدرت أوامر متناقضة ، وكل هذا أظهر حقيقة هامة هى أن الجيش المهاجم تفككت وحدته وظهر بينه النفور وأعلنت المنافسة ، وكان أبو سفيان يعد نفسه القائد العام ، ولكن أى سلطان لأبى سفيان على طلحة بن خويلد ، وعتيبة بن حصن ، والحارث بن عوف وغيرهم من الأبطال الذين كانوا يقودون قبائلهم للاشـتراك فى هذه المعركة .

وأوشك الخلاف أن يظهر وبخاصة بين هؤلاء الذين لم تكن لهم مصلحة

---

(١) انظر ابن هشام ٢ : ١٩١ – ١٩٢ وابن القيم ٢ : ١١٨

حقيقية فى هذا القتال ، إذ كان واضحاً أن قريشاً واليهود هما وحدهما الجماعتان اللتان تهتمان كل الاهتمام بالقضاء على الإسلام والمسلمين ، ولما أدرك حيي بن أخطب قرب وقوع الانقسام بين صفوف الأحزاب أسرع إلى كعب ابن أسد زعيم بنى قريظة وأغراه بالانضمام إلى الأحزاب وبأن يضرب المسلمين من الخلف ، وحذره من العاقبة إن تراخى ، فتلك آخر فرصة إن أفلت منها المسلمون قويت شوكتهم(١). فاستجاب كعب ونقض العهد على ما ذكرنا آنفا .

وحينئذ عظم البلاء على المسلمين « إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر (٢)» .

وفى غمرة الآلام والشدة بدأت مظاهر النصر ، فقد جاء زعيم من زعماء العرب هو نعيم بن مسعود مسلما ، وأبدى استعداده للقيام بأى عمل يشترك به فى الدفاع عن المدينة ، فطلب منه الرسول أن يخفى إسلامه وقال له : خذِّلْ عنا فإن الحرب خدعة ، فذهب نعيم إلى بنى قريظة وقال لهم إن قريشاً لو عادت لسبب من الأسباب إلى مكة لكان جزاؤكم قاسياً من المسلمين ، وأشار عليهم أن يطلبوا رهائن من سادة قريش ليتأكدوا أن قريشاً لن تدعهم وحدهم لمواجهة جيش المسلمين ، ومضى نعيم أيضاً إلى قريش فذكر لهم أن بنى قريظة اصطلحوا مع المسلمين سراً وأنهم سيطالبون برهائن من قريش ليقدموها إلى محمد . وحذر نعيمُ قريشاً من مكر اليهود ، وسرعان ما طلب اليهود الرهائن من قريش مما أكد لقريش صحة ما قاله نعيم . فلما رفضت قريش تسليم الرهائن تأكد بنو قريظة من عدم إخلاص قريش(٣)، وهكذا وقع الشقاق بين الأحلاف مما أنذر بالنهاية الفاشلة .

---

(١) ابن هشام ٢ : ١٨٩ .

(٢) الأحزاب ١٠ .

(٣) ابن هشام ٢٢ : ١٩٣ وابن القيم ٢ : ١١٨

وجاء العون من الله ، ذلك العون العظيم الذى يحكيه القرآن الكريم فى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جاءتكم جنود ، فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا[(١)] » . وقوله « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزاً[(٢)] » .

وكانت هـــذه الريح التى أرسلها الله عاتية ، كفأت القدور ونزعت الخيام ، وملأت الحلوق والعيون بالرماد ، لقد كانت قوة هائلة مميتة ، ولم يكن فى طاقة الأحزاب أن يحاربوها ، ولم يجدوا وسيلة إلا أن يتنادوا بالرحيل فى خيبة أمل ظاهرة بعد أن استمر الحصار مدة شهر .

أثر هذه الغزوة :

لقد عانى المسلمون فى غزوة الأحزاب ألوانا من العناء والجوع من أثر الحصار الطويل ، ولذلك نجد الرسول يغير من خطته الحربية بعد هذه الغزوة ، فلا يكتفى بالدفاع لأن اكتفاءه بالدفاع أوشك أن يقضى على المسلمين ، ولكنه فى الوقت نفسه لا يريد الهجوم لأنه لم يؤذن له إلا بالدفاع فقط ، ولذلك نجده يعمد إلى ما يسميه العسكريون « الدفاع الهجومى » أى أن يهجم — مدافعاً — على تكتلات الأعداء التى تستعد للزحف على المسلمين ، وكانت هذه هى خطة المسلمين بعد ذلك فيما قاموا به من حروب .

---

(١) الأحزاب ٩ .

(٢) الأحزاب ٢٥ .

الحديبية بين الحرب والسلم

مرت شهور بعد غزوة الأحزاب ، ودخلت السنة السادسة للهجرة ، وسنوات ست كانت طويلة على المهاجرين ، لم يروا خلالها من تخلف بمكة من أهليهم ، ولم تكتحل عيونهم بديارهم ، وحرموا زيارة الكعبة التى يحنون إليها ، ويتوجهون من بُعدٍ للصلاة نحوها ، وأحس الرسول بما أحس به باقى المسلمين من شوق لمسقط الرأس ورغبة فى زيارة الكعبة .

والبيت الحرام معظم قبل الإسلام وبعده ، وهو معظم عند المسلمين وعند قريش ، والأشهر الحرم لا يجوز فيها الحرب ولا القتال ، فلماذا لا يقدم محمد وأصحابه معتمرين ؟ وبأى حق تمنعهم قريش من دخول مكة للزيارة ثم العودة ؟ وليبق العداء بعد ذلك أو فليتوقف ، وهكذا تحت تأثير هذه العوامل أذّن محمد فى أصحابه بالرحيل إلى مكة ففرحوا واستجابوا وبدءوا رحلتهم وكانوا حوالى الألف .

ستقول قريش إن المسلمين جاءوا للقتال ، وإنهم يدّعون الاعتمار ولا يقصدونه ، وإذاً فليبرهن المسلمون لقريش على حسن نيتهم بأن يلبسوا ملابس الإحرام قبل أن يبعدوا عن المدينة ، ويتركوا آلات الحرب إلا السيوف فى القرب للحراسة والدفاع طول الطريق .

ولكن كل ذلك لم تستسغه قريش ، فإن دخول المسلمين عليهم مدينتهم تحت أى اسم من الأسماء هو انتصار للإسلام وهزيمة للمشركين ، ومع هذا فرَدٌ معتمر محرم يعتبر عند العرب اعتداء صارخاً . ما الحيلة ؟ الحيلة هى أن يردوا المسلمين قبل أن يقربوا من مكة ، وعلى هذا أرسلت قريش خالد بن الوليد على رأس مجموعة من الفرسان ليصدوا المسلمين عن غايتهم[١] ، ولكن المسلمين تحاشوا طريق خالد[٢] ، واندفعوا فى طريق

---

(١) ابن هشام ٢ : ٢٢٦ .

(٢) ابن القيم : زاد المعاد ٢ : ١٢٣ .

آخر قادهم إلى الحديبية على بعد بضعة أميال من مكة ، ودخل الشهر الحرام فأصبح القتال محظوراً

وكانت مشكلة ، وبدأت الوساطة تلعب دورها للعثور على حل . فأرسل الرسول عثمان إلى مكة ليفاوض قريشاً ، فاحتجزته قريش ، وأشيع بين المسلمين أنه قتل(١) فأدرك المسلمون أنه لا بد من القتال ، وتمت « بيعة الرضوان » التي أقسم فيها المسلمون على الحرب حتى الموت أو النصر(٢) ، وقد أثنى الله على هؤلاء المتبايعين بقوله « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً(٣) » ولكن عثمان سرعان ما عاد بعد أن نجح في تهدئة قريش والقضاء على مخاوفهم ، وبعد أن ألان جانبهم نحو المسلمين .

وبدأت بعد ذلك مفاوضة ترمى لإيجاد حل لهذه المشكلة ، وقد ظهر واضحاً من الاتصالات والمحادثات أن أهم نقطة تعنى بها قريش هي عودة المسلمين هذا العام دون أن يقتحموا مكة على سكانها حفظاً على كرامتهم وخوفاً من أن يعيرهم العرب(٤) . ولما وافق الرسول على هذا المبدأ أصبح من السهل أن تبدأ مفاوضة شاملة هدفها وضع حد للعداء بين قريش وبين المسلمين ، ومثل قريشاً في هذه المفاوضات وفد على رأسه سهيل بن عمرو ، وتم صلح الحديبية بعد أن أحاطت غيوم كثيرة بالموقف ، وبعد أن كانت الحرب قاب قوسين أو أدنى .

وأسس هذا الصلح هي :

١ — أن تكون هناك هدنة بين الطرفين مدتها عشر سنوات .

---

(١) ابن هشام ٢ : ٢٢٩ .

(٢) ابن هشام ٢ : ٢٢٩ .

(٣) الفتح ١٨ .

(٤) انظر ابن هشام ٢ : ٢٢٩ وزاد المعاد ٢ : ١٢٥ .

٢ – يرد المسلمون من يأتيهم من قريش مسلماً بدون إذن وليه .

٣ – لا ترد قريش من يعود لها من المسلمين .

٤ – من أراد أن يدخل فى عهد قريش دخل فيه ، ومن أراد أن يدخل فى عهد محمد من غير قريش دخل فيه .

٥ – ألا تتم عمرة المسلمين هذا العام ، بل تؤجل إلى العام القادم ويدخل المسلمون مكة فى العام القادم بعد أن تخرج منها قريش ، وليس مع المسلمين من السلاح إلا السيوف فى القرب ، ويبقى المسلمون بمكة ثلاثة أيام بلياليها[1] .

نظرة فى هذه الشروط :

لقد كان المسلمون قريبين من مكة ، فمنعتهم هذه الشروط من دخولها ، ولذلك تغلبت عليهم – فيما أعتقد – الناحية العاطفية فاستاءوا لهذه النتيجة ، وعدوا أنفسهم مغلوبين أذلاء ، وكانت نفوسهم تغلى بالألم ، وكان عمر جريئاً كعادته ، ولذلك نجده يترجم ما فى نفسه وما فى نفوس المسلمين من ثورة فى المحاورة التى دارت بينه وبين الرسول والتى ننقل نصها فيما يلى :

عمر ألست رسول الله ؟

الرسول : بلى ؟

عمر أولسنا بالمسلمين ؟

الرسول بلى

عمر أوليسوا بالمشركين ؟

الرسول بلى

عمر : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟

الرسول إنى عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى[2] .

---

(١) انظر هذه الشروط فى ابن هشام ٢ : ٢٣٠ – ٢٣١ وزاد المعاد ٢ : ٧٦ ، ١٢٥

(٢) ابن القيم : زاد المعاد جـ ٢ ص ١٢٥ .

على أن الباحث المنصف يدرك أن هذه المعاهدة كانت عظيمة الخير للمسلمين كبيرة النفع لهم ، وأن الرسول كان فى منتهى الحكمة عندما قبلها وعقدها ، وقد دلت الأحداث التى ظهرت بعد ذلك على هذه النتيجة الطيبة ، وفيما يلى إيضاح لما فى هذه المعاهدة من مزايا :

١ – اعترفت قريش فى هذه المعاهدة بكيان المسلمين ، فالمعاهدة دائماً تكون بين ندّين ، ولم يعد محمد وأصحابه ثائرين ، وإنما أصبحوا هيئة لها وجود ولها حقوق .

٢ – أعطت هذه الهدنة فرصة لنشر الدعوة والتفرغ لتعليم الناس ، وعندما مشت الدعوة مرتبطة باستسلام قريش دخلها الناس وحدانا وجماعات ، حتى قال المؤرخون إن من دخلوا الإسلام من تاريخ المعاهدة إلى فتح مكة أى فى مدة سنتين أكثر من دخلوا الإسلام فى جميع السنين التى سبقت ذلك الصلح ، وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك الصلح بكلمة « الفتح » فى قوله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما ، وينصرك الله نصرا عزيزا »[1] .

وقد نزلت هذه الآيات عقب صلح الحديبية ، ويقول المفسرون إن المقصود بالفتح هو الانتصارات التى تلت هذا الصلح ، وجعلت خلقا عظيما يدخلون الإسلام .

٣ – وفى فترات النضال بين قريش وبين المسلمين لم يدع النضال وقتا للتفكير ، ولذلك نرى أنه عندما تمت الهدنة ، وعندما بدأ الإسلام فى أثناء هذه الهدنة ينتصر وينتشر ، بدأ كثيرون من أبطال قريش يفكرون فى الإسلام ومبادئه وتقدمه ، فأسرعوا إلى المدينة معلنين إسلامهم ، ومن هؤلاء البطل العظيم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة ، وقد كان ذلك نذيرا باستسلام مكة .

---

(١) الفتح ١ – ٣ .

٤ ــ أعطت هذه المعاهدة للمسلمين فرصة ليتفرغوا لليهود وليتخلصوا منهم بعد أن فرقت هذه المعاهدة بين قريش وبين اليهود ، ولذلك غزا الرسول بعدها خيبر (سنة ٧ هـ) وانتصر كما ذكرنا من قبل ، ويقول بعض المفسرين إن المقصود بالفتح فى الآية السابقة هو فتح خيبر وفدك .

٥ ــ والباحث المدقق يرى أن دخول المسلمين مكة فى العام القادم بعد خروج قريش منها إنما هو مزيد من الانتصار لا يعدله أن يدخلوا مكة والحذر يملأ قلوبهم ؛ لقد دخلوا مكة آمنين ، وانطلقت جموعهم تهتف بقوة وإيمان : لا إله إلا الله وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، وقد رأت قريش من مخيماتها حول مكة جموع المسلمين وسمعت أصواتهم التى تحمل التكبير والإيمان ، فاهتزت قريش لما رأت ، ووصل هتاف المؤمنين إلى قلوب الكثيرين .

٦ ــ فى هذا الهدوء الذى أعقب العاصفة خطا التشريع الإسلامى خطوات مباركة ورسم الرسول للمسلمين حياتهم فى مختلف النواحى .

٧ ــ عد المسلمون من الانهزام الواضح أن يلزموا بإعادة من يأتى لهم مسلما من قريش بدون إذن وليه ، فى حين لا تلتزم قريش برد من يَرِدُ لها من المسلمين ، ورأوا فى هذا الشرط عدم تكافؤ ، ولكن الأحداث برهنت على بعد النظر فى قبول هذا الشرط ؛ فإنه لا خير فيمن يرتد عن دينه ويعود لقريش بعد الإسلام ، وأما هؤلاء الذين جاءوا من قريش مسلمين وردهم الرسول فقد برهنت الأحداث السريعة على أن هؤلاء دافعوا عن أنفسهم وأصبحوا خطرا على قريش نفسها ، لأن الرسول عندما ردهم ــ وفاء بالعهد ــ والتأثر ظاهر عليه ، لم يَعُدْ هؤلاء إلى مكة وإنما عسكروا فى فى طريق قوافل قريش وأخذوا يعتدون عليها اعتداء متصلا حتى طلبت قريش من الرسول أن يضمهم إليه(١) .

---

(١) ابن هشام ٢ : ٢٣٣ .

٨ ــ وكان مما أثار المسلمين أن سهيل بن عمر رفض أن يكتب فى عهد الصلح محمد رسول الله ، وقال : لو كنا نعترف أنك رسول الله ما خالفناك . وقد قبل الرسول أن يحذف هذا الوصف واكتفى باسمه ، ولكن هل غير هذا من الحقيقة شيئاً ؟ ألم يستمر محمد رسول الله كما كان ؟(١)

وهكذا كان هذا الصلح فتحا مبينا كما وصفه القرآن الكريم .

---

(١) انظر بعض الحكم التى تضمنتها الهدنة فى زاد المعاد جـ ٢ ص ١٣٠ - ١٣٢ .

غزوة مؤتة

زمنها : فى السنة الثامنة للهجرة .

مكانها : قرية فى شمال الجزيرة العربية فى حدود الشام .

سببها :

قلنا إن مهادنة قريش أعطت المسلمين فرصة للدعوة للإسلام وقد شملت هذه الدعوة كتباً أرسلها الرسول إلى الملوك والرؤساء يدعوهم إلى دخول الإسلام ، ويبيِّن لهم فيها مبادئ الإسلام وقواعده[1] ، وقد بعث محمد — فيمن بعث — رسولا إلى الغساسنة هو الحرث بن عمير الأزدى ، ولكن هؤلاء قتلوا رسول محمد وسخروا بمن أرسله . وكان ضرورياً أن يأخذ المسلمون بالثأر ، وألا يرضوا بالذلة والمهانة ، فأرسل الرسول جيشاً عدده ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة زيد بن حارثة ولكن الروم انضموا إلى حلفائهم الغساسنة ؛ وفوجئ المسلمون بجيش جرار قيل إنه كان مائتى ألف مقاتل ، ووقف المسلمون ليدبروا شأنهم ، وعرض القائد الأمر على جنده للاستشارة ، وطرأت فكرة العودة بالجيش إذ لا أمل فى النصر . ولكن

---

(١) بعض المؤرخين لا يوافق على أن الرسول كتب للأباطرة والملوك يدعوهم للإسلام ، وحجة هؤلاء المؤرخين أن كتب الرسول لم توجد فى سجلات هؤلاء الملوك ، واعتقادى أن ذلك لا ينهض دليلا ، فقد يكون هؤلاء الملوك استهانوا بهذه الكتب فلم يشاءوا أن يثبتوها فى سجلاتهم وقد تكون نالتها يد التدمير فى الاضطرابات الكثيرة التى تلت عهد إرسالها . على أن بعض هؤلاء المستشرقين يذكر هذه الكتب ويعترف بها ومن هؤلاء Wells فى كتابه موجز تاريخ العالم (انظر ص ١٩٦ ، ٢٠٢ من الترجمة العربية) ولماذا نتردد فى تصديق ذلك الخبر وقد أوردته لنا المصادر الرئيسية العربية الموثوق بها ؟ وهل سجلات الروم أكثر صدقا من السجلات العربية التى أفاضت فى الحديث عن هذه الكتب ؟ (انظر صحيح مسلم ، وانظر التفاصيل التى أوردها ابن القيم عن هذه الكتب وحامليها ونتائجها . زاد المعاد جـ ١ ص ٣٠ — ٣١) .

حماسة المسلمين حالت دون ذلك ، وأشارت الأغلبية باللقاء . وفى المعركة خر القائد فحمل الراية عبد الله بن أبى رواحة فخر ، فحملها جعفر بن أبى طالب فلحق بصاحبيه ، فحملها خالد بن الوليد الذى أدرك أن فى استمرار المعركة فناء لجيشه دون طائل ، فانسحب بعملية باهرة إذ أثار الغبار خلف جيشه فأوهم الروم أن مدداً ضخمة جاء من المدينة فلم يتبع الروم الجيش المنسحب(١) .

ومنذ ذلك التاريخ أحس المسلمون أن هناك عدواً عنيداً فى الشمال ، وأن الإسلام لا أمن له إلا بالقضاء على هذا العدو العنيد ، وهكذا كانت هذه المعركة أول حلقة فى النضال للفتوحات الإسلامية خارج جزيرة العرب .

(١) ابن هشام حـ ٢ ص ٢٥٨ وابن القيم حـ ٢ ص ١٥٥ - ١٥٦ .

غزوة الفتح

زمنها : السنة الثامنة للهجرة .

مكانها : مكة المكرمة .

سببها :

مهدت لفتح مكة ظروف كثيرة أشرنا لبعضها فيما سبق ؛ فقد قضى المسلمون فى فترة الهدنة على أقوى وأوفى نصير لقريش وهو اليهود ، وأخذ نفوذ المسلمين يمتد فأحاط بمكة من كل جانب ، انضمت لهم كثير من بلاد الجنوب وتبعهم كثير من القبائل فى الشمال ، وبقيت مكة فى منتصف الجزيرة وحدها — تقريباً — على الشرك ، ولكن أهل مكة الآن غيرهم فى الماضى فقد مضت إحدى وعشرون سنة ومكة تناضل ، ناضلت قبل الهجرة وناضلت بعدها ، وآن لها أن تستسلم ، لقد خرَّ فى الحروب عدد كبير ممن كان يدعو للقضاء على محمد ، كأبى جهل وعتبة وشيبة ، وكان هناك أبطال مغاوير تعتمد عليهم مكة عند النفير كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ولكن كثيرين من هؤلاء لحقوا بمحمد وخلَّفوا مكانهم خالياً . وأهل مكة الباقون على الشرك هزتهم انتصارات المسلمين . وأوشكوا أن يهتفوا معهم من مشارف مكة حينما كان المسلمون يرفعون أصواتهم مهللين ملبِّين عند طوافهم بالبيت بعد أن أخلت قريش مكة لهم ، ونشأ جيل جديد سمع بالإسلام منذ المهد ونعومة الأظفار فلم تتعمق عبادة الأصنام فى نفسه ، وأحس كثير من أهل مكة بالعقوق ، فالدين الذى نبع من مكة اعتنقه أكثر بلدان العرب إلا مكة ، ومحمد القرشى أصبح حظياً عند أكثر العرب ولكن القرشيين يعادونه . يا للعار ! ! !

وأكثر من ذلك : لقد رأت قريش نفسها تقف وجهاً لوجه ضد العرب

أجمعين تقريباً ، وأدركت قريش أن وفود الحجاج التى لم تنقطع عن مكة منذ عهد إبراهيم سيقطعها عداء قريش للعرب ، واستمرار قريش على عبادة الأوثان فى حين دخل أغلب العرب فى دين الله ، وفطنت قريش إلى أن تجارتها لا يمكن أن تستمر فى أمن إلى الشمال أو الجنوب بعد أن امتد نفوذ المسلمين إلى جميع هذه الجهات .

وهكذا وقفت مكة تتهادى على وشك السقوط مما جعل محمداً يوقن أن دخول مكة ليس إلا كما يقول العسكريون «عملية إنزال جنود» لن يحدث فيها حرب ولا قتال ، وأتيحت للمسلمين الفرصة لدخول مكة فقد نقضت قريش عهدها مع المسلمين ، إذ حدث قتال بين بنى بكر وخزاعة ، وبنو بكر حلفاء قريش وخزاعة حلفاء المسلمين وانضمت قريش لحلفائها فى هذه الحرب واستنجدت خزاعة بالمسلمين(١) .

وأعد الرسول جيشاً عظيما ، لم تشهده الجزيرة العربية من قبل ، إذ كان عدده عشرة آلاف شخص ، يسيرون فى طاعة مطلقة لقائدهم العظيم ، وسمعت قريش بأنباء هذا الجيش — وهى على حالها الذى وصفناه آنفا — فأصبحت إلى اليأس والاستسلام أقرب منها إلى الأمل فى نجاح المقاومة ، وحرص الرسول — من جهته — على أن يتم فتح مكة دون قتال ، فاستعمل سلاح الإرهاب ، وعسكر بجيشه الصاخب بالقرب من مكة حيث استقبل عمه العباس الذى أعلن إسلامه ثم استقبل أبا سفيان بن حرب الذى فقد كل أمل ، والذى لم يعد يهتم إلا بأن يمنع الأذى والذل عن قومه ، وهتف به الرسول : ألم يأن لك يا أبا سفيان أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟

قال أبو سفيان : بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنى شيئا(٢) .

---

(١) ابن هشام ٢ : ٢٦٣

(٢) ابن القيم : زاد المعاد ٢ : ١٦٣

وآمن أبو سفيان ولكن الرسول لم يتركه يعود إلى مكة حتى شهد بنفسه موكب الجيوش الإسلامية ، فرأى أبو سفيان ما لم يخطر له ببال ، حتى إذا انتهى العرض العسكرى اللجب تُرك أبو سفيان ليعود إلى مكة ، وكان أبو سفيان هناك لسانا يحدِّث الناس عن الزحف الذى لا يستطيع أحد إيقافه ، فقتل كل أمل فى المقاومة[١] .

ودخلت جيوش المسلمين من جهات أربع ، ونادى منادى الرسول : من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه عليه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن[٢] .

واستسلمت مكة .

وطاف المسلمون بالكعبة ، وأزالوا منها التماثيل والصور وحطموا الأصنام وهم يهتفون : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا[٣] .

هل عرف التاريخ جماعة حانقة غُلبت على أمرها وطردت ، فلما استطاعت العودة إلى الوطن لم تمتد لهم يد ، ولم يحاولوا أن يأخذوا بثأر ؟

وهل عرف التاريخ عدوين يلتقيان بعد طول صراع مخضَّب بالدماء فلا يكون فى لقائهما شحناء ولا بغضاء ؟

إنها روح الإسلام ، وسيطرة القائد الأعلى على أتباعه ، ورحمته بمن كانوا بالأمس أعداءه ، فلقد اجتمعوا حوله حيث هتف فيهم : ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم . قال محمد : اذهبوا فأنتم الطلقاء[٤] .

وكان هذا هو كل الحساب بين الجيش الزاحف من المدينة وبين أهل مكة المستسلمين .

---

(١) أنظر ابن هشام ٢ : ٢٦٩

(٢) المرجع السابق والبلاذرى ص ٥٢

(٣) ابن القيم : زاد المعاد ٢ : ١٦٥ وانظر الأصنام لابن الكلبى ص ٣١ وما بعدها

(٤) ابن هشام ٢ : ٢٧٤ وانظر أيضاً البلاذرى ص ٥٥

بعد الفتح :

كان من الطبيعى أن استسلام مكة مهد الطريق لاستسلام الجزيرة العربية كلها ، لقد همد الخصم العنيد وألقى السلاح ، وأصبح المسلمون سادة الكعبة وحماة البيت الحرام وسارت سيرتهم فى البر وحسن المعاملة مع الوافدين والركبان .

وكان هدف الرسول بعد استسلام مكة تطهير الجزيرة العربية كلها من أعداء الإسلام حتى يخلق منها وحدة لها ثقافتها ولها دينها ولها مبادئها ونظمها ، حتى يستطيع — بوحدة الجزيرة العربية واستقرارها — أن يواجه عدوه فى الشمال ، ذلك العدو الذى يتحرش بالمسلمين ، ويعد العدة للتدخل فى شئون الجزيرة العربية ، ولذلك سارع الرسول بإخضاع قبائل البدو المتناثرة هنا وهناك ، كما أخضع مسيحى نجران وأمراء الجنوب الذين لم يكونوا قد انضموا للإسلام بعد : على أن أهم المعارك التى خاضها المسلمون بعد الفتح هى معركة حنين وغزوة الطائف وسنتكلم عنهما فيما يلى بشىء من التفصيل .

غزوة حنين والطائف

مقدمة :

تعتبر غزوة الطائف امتدادا لغزوة حنين ، ذلك لأن جموع هوازن التي كانت تنتشر بطونهم انتشارا واسعا فى نجد ، وجموع ثقيف التى كانت تسكن الطائف المدينة الغنية التى تقع فى الجنوب الشرقى من مكة ، هؤلاء وأولئك بعد أن انهزموا فى وادى حنين تقهقروا ولجئوا إلى الطائف وتحصنوا بها ، ولحق المسلمون بهم حيث استمرت المعركة ، ومن هنا كان الحديث عن معركة حنين ومعركة الطائف تحت عنوان واحد ، وسيأتى تفصيل ذلك .

الزمن : السنة الثامنة للهجرة .

المكان : وادى حنين ومدينة الطائف .

السبب :

سبق أن قلنا إنه كانت هناك قوى كثيرة تعارض الإسلام وتعمل على القضاء عليه ، وأن هذه القوى ظهرت الواحدة تلو الأخرى ، فهناك قوى بكرت فى الظهور ، فلما أخفقت ظهرت قوى أخرى :

كانت قريش تعتقد أن الدعوة الإسلامية خرافة لا تلبث أن تموت من تلقاء نفسها ولذلك لم تر داعيا أن تقاومها فى بدء أمرها فلما لم تمت من نفسها هبت قريش فى وجهها للقضاء عليها .

وكان اليهود يظنون أن قريشا كفيلة بالقضاء على الإسلام ، فلما أفلت الإسلام من مكة وهزمت قريش فى بدر انضم اليهود إلى المناضلين .

ولما بدأت هزائم اليهود بإخراج بنى النضير تجمعت قوى الأحزاب للقضاء على الإسلام .

وقضى على اليهود ، واستسلمت مكة ، فهبت هوازن و ثقيف للوقوف فى وجه الإسلام .

فلما استسلمت الجزيرة العربية كلها هب الفرس والروم للقضاء على القوة الهائلة الناشئة فى شبه الجزيرة العربية .

فلما انتصر الإسلام فى كفاحه ضد الفرس والروم هبت أوربا تحت راية الصليب فيما يسمى بالحروب الصليبية للقضاء على الإسلام .

وانهزم فرسان الصليبيين واندكت ممالكهم ، فبدأ الاستعمار الأوربى يزحف على العالم الإسلامى ليقضى على الإسلام بالقوة أو بوسائل أخرى حديثة كالتبشير والتشكيك ونشر الإباحية والخلاعة باسم المدنية والحضارة .

وانتصر الإسلام فى جميع الميادين ولا يزال ينتصر .

ونحن هنا نتحدث عن حلقة من حلقات هذا النضال ، عن نضال المسلمين ضد هوازن وثقيف فى وادى حنين ومدينة الطائف .

لقد استسلمت مكة ودخلها محمد مرفوع الرأس منتصرا ، وامتد سلطانه إلى الكعبة البيت المقدس عند العرب جميعا وخضع لنفوذه أغلب الجزيرة العربية فى الشمال والجنوب ، ولم يبق خارجا عليه إلا هوازن وثقيف ، وللقبيلتين تاريخ مجيد فى الحروب وميادين القتال ، وفيهما صلابة وشدة ، ومن هنا أدركت هوازن وثقيف أنه لم تبق قوة تستطيع الوقوف فى وجه المسلمين إلا قوتهما ، وأحست هوازن وثقيف بهتاف اللات والعزى ومناة يدوى فى القلوب المظلمة ويحثها على الثأر للأوثان التى كسرها المسلمون بالكعبة ، وللأصنام التى كبها المسلمون على الوجوه .

وهبت هوازن وثقيف بقيادة مالك بن عوف[١] (من بنى نصر من هوازن) ولم يكن قد مضى على فتح مكة غير بضعة عشر يوما كما جاء فى رواية أو بضعة وعشرون يوما كما جاء فى رواية أخرى[٢] .

(١و٢) ابن هشام ٢ : ٢٨٧

ولم يشمل المسلمون بالنصر الذى أحرزوه بفتح مكة ، ولذلك سرعان ما أعد الرسول جيشا كبيراً يبلغ عشرة آلاف أو يزيد ، ومشى الجيش ولكن فى شيء غير قليل من الزهو ، لقد همدت قريش العدو الأكبر للمسلمين ، وهاهم القرشيون يلحقون بجيش المسلمين لمحاربة هوازن وثقيف ، وقد همدت أنفاس اليهود أقسى أعداء المسلمين ، فماذا عسى أن تكون هوازن ؟ وماذا عسى أن تكون ثقيف ؟

وأدرك مالك بن عوف أن هذه آخر محاولة يقوم بها عبدة الأوثان ضد الإسلام ، ولذلك نجده يعمل الحيلة للحصول على النصر ، فاختار للموقعة أرضا جبلية بها مرتفعات ولها مسالك ولا يعرفها أغلب المسلمين ولايجيدون القتال فيها ، وحشد مالك خلف الجند النساء والأطفال حتى يدرك المحارب أن هزيمته ستكون فناء لأهله وماله وبذلك يستميت فى القتال حتى النصر[١] ، وتمت حيلة مالك حينما عسكر بجنده فى شعاب الجبال مشرفين على الطرق الضيقة حيث يمر جيش المسلمين .

وبينما كان جيش المسلمين يعبر المسالك الضيقة بجبال تهامة والزهو يشيع فيهم بسبب ضخامة العدة وكثرة العدد ، انقض عليهم العدو من مكامنه فى الشعاب والمرتفعات ، وفوجئ المسلمون بالضرب ينصب عليهم انصبابا فاضطربوا وتفرقت جموعهم وغلبوا على أمرهم وولوا متقهقرين ، وقد حكى القرآن الكريم هذه الهزيمة بقوله « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت . ثم وليتم مدبرين[٢] » .

وننقل فيما يلى عبارة ابن إسحق فى ذلك الموضوع قال : حدثنى عاصم ابن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه جابر بن عبد الله قال : لما استقبلنا وادى حنين انحدرنا فى واد من أودية تهامة أجوف حطوط إنما

(١) ابن هشام ٢ : ٢٨٧

(٢) التوبة ٢٥ .

ننحدر فيه انحدارا ، وفى عماية الصبح وكان القوم قد سبقونا إلى الوادى ، فكمنوا لنا فى شعابه وأجنابه ومضايقه ، قد أجمعوا وتهيئوا وأعدّوا فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدوا علينا شدة رجل واحد ، وانشمر الناس راجعين لا يلوى أحد منهم على أحد[1] .

ولم يكن انتصار هوازن وثقيف حاسما ، ولم يكن إلا أثراً للمفاجأة التى لم يتوقعها المسلمون ، وإذا كانت جموع المسلمين قد فرّت وكتبت على نفسها الهزيمة ، فإن الرسول وقف مكانه كالطود الشامخ الذى لا يعرف الفرار ، ووقف مع الرسول جماعة من المهاجرين والأنصار فيهم العباس عم النبى . ولعل وقفة هؤلاء الرفقاء لم تكن طلبا للنصر وإنما كانت ليموتوا مع الرسول أو يعيشوا معه فلا معنى للفرار وتركه وحده أيا كانت نتائج المعركة « ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنينَ وأنزل جنودا لم تروها »[2] .

وهكذا سرعان ما بدأ الاستعداد لمعركة حقيقية ، فهتف الرسول بأصحابه ونادى المهاجرين والأنصار ، وأمر عمه العباس أن ينادى وكان صوته قويا ففعل[3] ، واجتمع المسلمون حول قائدهم وواجهوا الأعداء ، وتوقف الجيش المنتصر عن تعقب المهزومين ليقابل المحاربين ، ونظر المسلمون الفارّون خلفهم فلم يجدوا أحدا يتعقبهم ، بل رأوا معركة تدور وسمعوا صياح العباس يهتف بهم ، فارتدوا للمعركة وتكاثروا ، وحاربوا بشجاعة فائقة فانقلبوا من مدافعين إلى مهاجمين ، وتقدم البطل العظيم على بن أبى طالب إلى صاحب راية المشركين فعقر جمله فهوت الراية ، ثم قتل حامها ، واضطرب المشركون وتفرق جمعهم وولوا الأدبار ، وقد غنم المسلمون فى هذه الموقعة غنائم كثيرة وسبايا عظيمة[4] .

---

(١) ابن هشام ٢ : ٢٨٩ .

(٢) التوبة ٢٦ .

(٣) ابن هشام ٢ : ٢٩٠ وابن القيم ٢ : ١٨٧

(٤) ابن هشام ٢ : ٢٩٠

أما المشركون فقد فارقوا أرض المعركة متفرقين ، فاتجه بعضهم إلى سهل أوطاس واتجه آخرون إلى نخلة ، كما ارتد مالك بن عوف وجمهرة أتباعه إلى الطائف حيث نزلوا مع ثقيف فى مدينتهم الحصينة الغنية ، وقد تتبعت وحدات من جيش المسلمين أولئك الفارين ، واتجه الرسول ومعه أغلب الجيش لحصار الطائف[١] .

وحول الطائف بدأت معركة جديدة لها ظروف خاصة ، فالطائف مدينة حصينة قوية الجدران ، وهى مدينة غنية كثيرة الخيرات تستطيع أن تمد المحاصَرين بمئونة وافرة لمدة طويلة ، ويقول البلاذرى[٢] إن أهل الطائف رمُّوا حصنهم وجمعوا فيه الميرة . ثم إن أهل الطائف لهم خبرة عظيمة بالرمى بالنبال ، وردّ أولئك الذين يحاولون أن يتسللوا إليهم أو يقتحموا عليهم مدينتهم .

وللمسلمين خبرة واسعة فى الحصار ، فقد حاصروا بنى قريظة وخيبر من قبل ، وانتهى حصارهم بالنجاح الذى أرادوه . ولكن قوة الطائف وقوة أهل الطائف كانت تفوق اليهود ومدن اليهود بدرجات كثيرة . ولذلك كان على المسلمين أن يقترحوا وسائل جديدة للنجاح فى الحصار . وكان على هوازن وثقيف أن تجد السبل التى تردُّ بها وسائل المسلمين ، ولذلك نجد ما يمكن أن نسميه حرباً فكرية ، فالمسلمون يستعملون المنجنيق وهو أداة ترمى الحجارة على الأعداء وتقوض الجدران . ولكن جدران الطائف كانت أقوى من أن تهتز لهذه الضربات ، فاستعمل المسلمون الدبابة وهى أداة مصنوعة من الخشب أو الجلود يدخل المسلمون فيها ويتحركون معها إلى الهدف ، فإذا وصلوا الأسوار نقبوها فى حين يحميهم سطح الدبابة من نبال الأعداء[٣] . ولكن أهل الطائف ألقوا على المهاجمين قطع الحديد الملتهب

---

(١) المرجع السابق ٣٠١

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٦٧

(٣) المرجع السابق

فتعرضت الدبابة للاحتراق ، فتغلب المسلمون على ذلك بأن غطوا ظهر الدبابة بألواح من الحديد أو الصفيح ، فألقى المحاصرون عليها حجارة ثقيلة دمرت بعضها وحاول المسلمون أن يحرقوا كروم الطائف ، وهى أغلى ما يعتز به أهل الطائف فأرسل هؤلاء إلى الرسول يخبرونه ألا يحرق الكروم ويخبرونه أن يأخذها لنفسه أو يدعها لله والرحم[١] .

أما إذ تكلم أهل الطائف عن الله والرحم فقد أخذت عريكتهم تلين ، ثم إن الأشهر الحرم قد قرب دخولها ، والحصار قد طال مداه حتى كرهه المسلمون وبخاصة عندما تأكدوا من كثرة المئونة داخل الطائف ، وبَعُدَ الأمل فى الاستسلام القريب ، وإزاء هذه الظروف لجأ الرسول إلى حل آخر هو حصار الطائف حصارا أوسع ، فهل تستطيع الطائف أن تعيش وحدها على الوثنية بعد أن دخلت الجزيرة العربية كلها فى الإسلام ؟ وهل تستطيع الطائف أن تقف موقف العداء من العرب جميعاً ؟

ورفع الرسول الحصار عن الطائف وعاد إلى الجعرانة حيث كانت تنتظره السبايا والأسلاب التى حصل عليها المسلمون عند هزيمة هوازن ، وفى الجعرانة جاءه وفد من هوازن مسلمين تائبين وطلبوا أن يرد الرسول إليهم أموالهم وأهليهم فنزل لهم الرسول عن حقه وحق بنى عبد المطلب فى المال والسبي وحبب الرسول للمسلمين التنازل عن حقوقهم ، ووعد من غلبه الحرص بجزاء أوفى مما قد يجد من غنائم ، فاقتدى المسلمون بالرسول ونزلوا عن حقوقهم فى الأموال والسبايا[٢] .

وأعلن الرسول أن مالك بن عوف لو جاء مسلما لعفا عنه ورد إليه أهله وماله ، فخرج مالك من الطائف وقصد الرسول وأعلن إسلامه واسترد ماله وذويه[٣] .

---

(١) ابن القيم : زاد المعاد ٢ : ١٩٧

(٢) ابن هشام ٢ : ٣٠٦

(٣) المرجع السابق ص ٣٠٧

أما الطائف فسرعان ما أدركت قوة الحصار الواسع الذى فرضه عليها المسلمون ، وقد عبر بعضهم عن هذا الحصار بقوله « أفلا ترون أنه لا يأمن لكم سرب ، ولا يخرج منكم أحد إلا اقتُطع[١] » ولذلك كونت ثقيف وفدا جاء إلى الرسول وأعلن إسلام أهل الطائف ودخول ثقيف فيما دخل فيه العرب جميعاً[٢] .

ومن الطرائف التى يجدر ذكرها هنا أن بنى ثقيف حاولوا أن يشترطوا أو أن يلتمسوا أن تبقى لهم إلاهتهم « اللات » ولو فترة من الزمن ، ولكن هذا الالتماس قوبل بالسخرية فليس فى الإسلام سبيل لاجتماع الوثنية والتوحيد وأمر الرسول من حطم هذا الصنم كما تحطمت أصنام مكة من قبل[٣] .

وهكذا أصبحت الجزيرة العربية لأول مرة فى التاريخ دولة متحدة قوية ، لها مبادئ ولها حضارة ، ولم يبق فى الجزيرة العربية إلا دين واحد التف حوله الناس من الشمال إلى الجنوب .

---

(١) ابن هشام ٢ : ٣٢٥

(٢) ابن القيم : زاد المعاد ٢ : ١٩٧ والبلاذرى ص ٦٢

(٣) انظر كتاب الاصنام لابن الكلبى فى عدة مواضع .

غزوة تبوك

زمنها : السنة التاسعة للهجرة .

مكانها : مدينة تبوك فى شمال الجزيرة العربية .

سببها :

سبق أن تحدثنا عن غزوة مؤتة ، وقررنا أنه سقط فيها عدد من المسلمين فيهم القادة الثلاثة الذين تولوا إمارة الجيش ، الواحد بعد الآخر ، وقلنا إنه لما تولى خالد بن الوليد قيادة جيش المسلمين استطاع أن يحتال حتى عاد بالجيش دون أن تقع به هزيمة كاملة . مَن الذى هزم فى هذه المعركة ؟ من الواضح أن المسلمين هم الذين حاقت عليهم الهزيمة فى المعركة ، ولكن الباحث يدرك أن الروم هزموا فيها أيضاً هزيمة كبيرة ؛ فإنهم لم يكملوا نصرهم مع استطاعتهم ذلك ، وأرعبتهم حيلة ابن الوليد فلم يتبعوا الجيش المنسحب ، ولو أنهم فعلوا لكان من الممكن القضاء عليه ، وأحس الروم بالهزيمة لأن جيش المسلمين مع صغره وقلة معداته استطاع أن يفلت من جيش الروم العظيم الذى قيل إن هرقل نفسه كان يقوده .

ثم إن الجزيرة العربية أصبحت قوة هائلة متحدة لها دين تعمل على نشره ، وقد تجرأ محمد فأخذ يرسل الكتب للملوك والأمراء يدعوهم إلى الدخول فى الدين الذى يدعى أنه أرسل لتبليغه ، ولم يكتف محمد بذلك بل أخذ يقود الجيوش يبطش بأعدائه والخارجين عليه ، وإذاً فمن واجب الروم أن تقضى على الدين وعلى من جاء به بعد أن استسلمت قبائل العرب ولم يعد هناك أمل فى أن يتولى العرب القضاء على الإسلام ، فجمعت الروم

جموعاً كثيرة بالشام ، ورزق هرقل أصحابه أجر حسنة مقدماً ، وأجلبت مع هرقل لخم وغسان وغيرهما[١] .

وزحف ذلك الجيش إلى أطراف الجزيرة العربية ، وجدّ الرسول فى إعداد جيش يقابل به جيش الروم ، ولكن الظروف هذه المرة كانت غير الظروف فى الحروب السابقة ، ونستطيع أن نقرر شيئاً لم يذكره كثير من المؤرخين ، وهو أن العرب أرعبهم أن يقفوا وجها لوجه أمام الروم ، فالروم قوم غير العرب فى معداتهم وحصونهم وتدريبهم ، والعربى مدرب على القتال ولكن تبعا لوسائل الحرب فى الجزيرة العربية ، ثم إن الهزيمة التى لحقت بجيش مؤتة كانت لا تزال عالقة بالأذهان فخاف العرب من تكرارها ، والروم بلاد بعيدة عن قلب الجزيرة العربية ، والوصول إليها شاق عصيب يتعب الراحل وينال منه ، ويجعله بعيدا عن مراكز التموين والإمدادات والمساعدات ، ثم إن الوقت كان شديد الحرارة ، وكان وقت حصاد[٢] ، وكل هذه الظروف جعلت الرسول يعلن أصحابه قبل الخروج بهدفه حتى يستعدوا ، وكان من عادته أن يخرج بهم دون أن يخبرهم إلا بعد الخروج[٣] . وكل هذه الظروف أيضا جعلت المنافقين يعلنون نفاقهم ويتخلفون عن ركب المجاهدين ، بل جعلتهم يثبطون الهمم ويضعفون العزائم ، وقد أورد القرآن الكريم ظروف هذه القصة فى آيات كثيرة من سورة التوبة نورد منها الآيات الآتية :

« يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل »[٤] .

---

(١) ابن القيم : زاد المعاد ٣ : ٢

(٢) ابن هشام ٢ : ٣١٦ وابن القيم ٣ : ٢

(٣) المرجعان السابقان

(٤) التوبة ٣٨ .

« لو كان عرضا قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ، ولكن بعدت عليهم الشقة ، وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم أنهم لكاذبون »[١] .

« فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وقالوا لا تنفروا فى الحر ، قل نار جهنم أشد حرًّا لو كانوا يفقهون ، فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون ، فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا أنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين »[٢]

وبينما كان هناك عرب يرعبهم أن يقفوا فى وجه الروم ، وبينما كان هناك منافقون ينشرون الخوف ويتلمسون الحيل حتى لا يلحقوا بجيش المسلمين . كان هناك مسلمون امتلأت قلوبهم بالإيمان ، يستجيبون إذا دعوا ، ويعرضون نفوسهم وأموالهم لخدمة الإسلام دون تردد أو خوف ، هؤلاء الذين أدركوا أنه « لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ، ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين ، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون[٣]. وكان عثمان بن عفان من أهم من أنفق واحتسب فى هذه الغزوة ، فقد روى أنه قدّم مئات من الإبل بأقتابها وعدتها وبعض الخيول وألف دينار[٤].

---

(١) التوبة ٤٢

(٢) التوبة ٨١ – ٨٣

(٣) التوبة ١٢٠ – ١٢١ .

(٤) تختلف الروايات فى تقدير عدد الإبل التى قدمها عثمان ولذلك آثرت أن أذكرها هكذا مجملة (انظر زاد المعاد ٣ : ١ وتهذيب الأسماء للنووى ١ ، ٢٢٣ وابن هشام ٢ : ٣١٦ ، ٣٥٢)

ومن هؤلاء الأبطال تكوّن جيش المسلمين فى هذه الظروف الحرجة ، وقد سمى هذا الجيش « جيش العسرة » للصعوبات التى أحاطت بتكوينه وحظى أفراد هذا الجيش برضا الله « لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة »(١) .

وزحف الجيش مستعدا للفداء ، وإن جل الفداء ، وكان تعداده ثلاثين ألفا ، وقيل أربعين وقيل سبعين ولم يكن الروم ينتظرون أن يستجيب هذا العدد الضخم من المسلمين للحاق بالجيش فى فترة الحصاد وزمن الحر القاسى ، ولذلك راعهم أن يقدم لهم هذا الجيش الكبير يقوده أبطال لا يعرفون الانهزام ، من أمثال أسيد بن حضير والحباب بن المنذر وخالد ابن الوليد ، ولذلك نجد جيش الروم يتقهقر ليتخذ مكانه داخل بلاده مدافعا بعد أن كان يريد الهجوم .

والرسول لا يهجم وليس فى دين الإسلام إلا الدفاع ، وإذاً فليعسكر الرسول بجيشه عند تبوك حيث أرهب الأعداء ، وعمل بعض المعاهدات مع سكان الحدود بين الجزيرة العربية والشام ، وقد شملت هذه المعاهدات سكان تبوك وأيلة ، كما أرسل النبى خالد بن الوليد مع فريق من الجيش إلى دومة الجندل فخضعت له(٢) .

وانتهت بذلك غزوة تبوك وهى آخر غزوات الرسول صلوات الله عليه .

---

(١) التوبة ١١٧

(٢) ابن هشام ٢ : ٣١٩

عام الوفود

قال ابن إسحق أول من دون السيرة النبوية : لما افتتح رسول الله مكة ، وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف وبايعت ، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه ، ولذلك سمى العام التاسع للجرة عام الوفود[1] :

ويذكر ابن هشام[2] هذه الوفود ويقتبس مما ألقاه خطباؤها وشعراؤها ، ومن هذه الوفود وفد بنى تميم ، وبنى عامر ، وبنى سعد بن بكر ، ووفد عبد القيس ، وبنى حنيفة ، ووفد طيئ ، وبنى زبيد وكندة ، ووفد همدان ، وغيرها ، وهكذا يلاحظ الباحث أمرا عجبا ، فى عشر سنوات — وما أقصرها فى عمر الدول — نرى الرجل الذى كان يعرض نفسه على القبائل ، قد أصبح يجلس فى داره حيث تفد له وفود القبائل التى تقطن قريبا من المدينة أو بعيدا عنها ، ونجد الإسلام الذى كان محدود الانتشار قليل الأتباع يصبح دين الجزيرة العربية كلها . ويصبح لأتباعه صولة وكلمة مسموعة ، ونرى الرجل الذى خرج من مكة فى جنح الظلام متسللا والأعداء يحيطون به من كل جانب يعود إلى مكة منتصرا فى جيش عظيم ، وتقف له مكة تحسن استقباله وتتبع دعوته . وهكذا عمت الدعوة الإسلامية شبه الجزيرة العربية ، ونعم محمد بأن رأى زرعه يثمر . ودين الله ينتشر على يديه .

تمام الدعوة :

يروى المؤرخون أنه عندما نزلت سورة النصر « إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك

(١) ابن هشام ٢ — ٣٣٣ .

(٢) المرجع السابق ٣٣٣ — ٣٥٠

واستغفره ، إنه كان توابا » ، عند ما نزلت هذه السورة بكى بعض من سمعها ، قيل : ما يبكيك ؟ قال : إن معنى هذه السورة قرب وفاة الرسول ، فقد جاء نصر الله وفتحت مكة ، وجاءت أفواج الناس تدخل فى دين الله ، وأمِرَ محمد بالاستغفار بعد ذلك ، ومعنى هذا أن مهمة الرسول قد تمت بنجاح ، وبإتمام مهمته العظمى يطلب الله منه أن يستغفر لذنبه وأن يستعد للقائه .

ومثل هذا ما قيل فى الآية الكريمة التى كانت خاتمة القرآن الكريم : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا »(١) فقد دلت على كمال الدين وتمام القرآن ، وأصبحت بذلك إشارة للرحيل .

حجة الوداع :

تمت حجة الوداع فى السنة العاشرة للهجرة ، وقد خرج الرسول لها فى مائة ألف مسلم أو يزيدون ، وخطب الرسول فى هذا الجمع الكبير من المسلمين خطابه الخالد ليشهدهم على أنفسهم بأنه بلَّغ وأوفى ، ومما جاء فى خطابه قوله : أيها الناس اسمعوا قولى فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا ، أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلا بحقها ، وإن كل ربا موضوع ، ولكم رءوس أموالكم لا تظلمون ، ولا تظلمون ، وإن كل دم كان فى الجاهلية فهو موضوع ، وإن الشيطان يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ولكنه يطمع فيما سوى ذلك فاحذروه ، أيها الناس إن ربكم واحد وأباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى(٢) .

---

(١) سورة المائدة ٣

(٢) انظر الخطبة فى ابن هشام ٢ : ٣٥٠

مرض الرسول ووفاته :

بعد حجة الوداع بحوالى ثلاثة شهور مرض الرسول بالحمى ، واشتد عليه المرض فلم يستطع أن يخرج للصلاة بالناس ، فأمر أبا بكر أن يصلى بهم(١) ، وقد أحس الرسول بجزع المسلمين لمرضه وتوقع وفاته ، وعرف أنهم أحاطوا بالمسجد محزونين فخرج إليهم متوكئا على عمه العباس وابن عمه على بن أبى طالب ، وجلس على أول مرقاة من المنبر وأحاط به المهاجرون والأنصار فخطب فيهم قائلا : (أيها الناس ، بلغنى أنكم تخافون موت نبيكم ، هل خلد نبى قبلى فأخلد فيكم ؟ ألا إنى لاحق بربى وأنتم لاحقون بى) ثم أوصى المهاجرين بالأنصار وأوصى الأنصار بالمهاجرين ، ولم يطل مرض الرسول بعد ذلك ، فانتقل لجوار ربه فى يوم الاثنين الثالث عشر من ربيع الأول سنة ١١ هـ ، وكان صلى الله عليه وسلم فى الثالثة والستين من عمره .

وقد وقع خبر وفاة الرسول وقعا شديدا على المسلمين على الرغم مما قاله الرسول منذ مدة وجيزة ، وكان مفاجأة لم يصدقها الكثيرون منهم(٢)، ووصل الجزع إلى الأبطال المغاوير ، فنرى عمر بن الخطاب يصرخ قائلا : زعموا أن محمدا قد مات ، وإنه والله ما مات ، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى ، والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم(٣) . . . وعلم أبو بكر بخبر الوفاة فحضر على عجل ، ودلف إلى حجرة الرسول فرآه مسجى ، فكشف عن وجهه وقبله وقال : طبت حيا وميتا ، ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفدنا عليك ماء الشئون . ثم خرج أبو بكر إلى الناس فأيقظهم من غفلتهم ورد لهم أحلامهم بخطابه الرائع الذى جاء فيه : أيها الناس ، من

---

(١) ابن هشام ص ٣٧٠

(٢) ابن الأثير : الكامل ٢ : ٢١٩

(٣) ابن هشام ٢ : ٣٧٢

كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ، « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً »(١) . وأفاق الناس وأفاق عمر حتى ليروى أن عمر قال : والله لظننت أنه ليس فى القرآن آية كهذه حتى ذكرنيها أبو بكر .

وصلى الناس على الرسول أفواجا ودفن فى المكان الذى توفى فيه ، صلى الله عليه وسلم .

ومات محمد بعد أن أرسى معالم النور فى عالم كان مليئا بالظلمات ، ونشر العدالة فى دنيا كان العادل فيها يُعدُّ ضعيفا مغلوبا على أمره ؛ ونادى بالمساواة حيث كان نظام الطبقات أساس حضارة العالم : مات محمد ولكن تعاليمه حية خالدة ، تنساب من مكان إلى مكان ، فتهدى الضال وترشد التائه ، وتمر السنون ودين الإسلام يشع جلالا وعظمة ويفيض بأسمى المبادئ التى تعد غذاء لأرقى الحضارات .

لمحة من صفات الرسول :

قلت فى كتابى « المجتمع الإسلامى : أسس تكوينه ، أسباب تدهوره ، الطريق إلى أصلاحه » إن أخلاق الرسول وصفاته الشخصية كانت من أهم العوامل التى ساعدت على نجاح المجتمع الإسلامى الأول ، فقد كانت أخلاقه رخاء وسماحة وصفاء ، وحسبك أن الله سبحانه وتعالى وصفه بقوله « وإنك لعلى خلق عظيم »(٢) ، ووصف الرسول نفسه بقوله : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » وقد كانت هذه الأخلاق من الأسباب التى جمعت الناس حول محمد « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك »(٣) .

(١) آل عمران ١٤٤

(٢) القلم ٤ .

(٣) آل عمران ١٥٩ .

وأخلاق الرسول السمحة بدأت قبل البعثة ، فلم يسجد لصنم قط ، وكان معروفا بين أهله وقومه بالصادق الأمين ، ولم يشترك فيما تعود شبان قريش أن يقوموا به من عبث ومجون .

وبعث محمد وتبعه بعض الناس وعاداه آخرون ، ولكن أعداءه لم يستطيعوا أن يجدوا فى أخلاقه مطعنا ، ولم يستطيعوا أن يزعموا أن فيه نقيصة ، أو ثلمة .

وعظم شأن الإسلام وانتشر ، وكبر سلطان محمد باعتباره الرئيس الدينى والرئيس السياسى ، ولكن مظاهر السلطان لم تعرف طريقها إليه ، فقد ظل يحلب شاته ، ويرقع ثوبه ، ويخصف نعله ، ويخدم نفسه ، ويأكل مع الخادم ، ولم ير أصحابه فيه إلا رائدا وصديقا ، كان ينهاهم عن الوقوف له إذا أقبل عليهم ، وكان يجلس معهم كواحد منهم ، وإذا قدم وهم جالسون اتخذ مكانه حيث انتهى به المجلس ، وكان يمازحهم ويداعب صبيانهم ويجلسهم فى حجره ، ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ، ويعود المرضى فى أقصى المدينة[١] .

ولم تقف سماحة نفسه عند أتباعه ، بل امتدت إلى أهل الكتاب ، فكان يقبل دعوتهم ، ويحسن استقبالهم ، وقد فرش عباءته لنصارى نجران عندما وفدوا عليه وطلب منهم الجلوس عليها ، وكان يزور مرضاهم ويشيع جنازاتهم .

وكان زاهدا فى الدنيا ، يؤثر على نفسه ولو كانت به خصاصة ، وكان لا يدخر شيئا لغده ، حتى لقد توفى وقد رهن درعه عند يهودى فى قوت عياله ، وكان شديد الزهد فى الحياة المادية ؛ اتخذ فراشا خشنا ، وطعاما بسيطا ، بل لقد عانى الجوع أكثر من مرة ، وكان زهده فى اللباس كزهده فى الطعام .

---

(١) أفاض الإمام الغزالى فى وصفه لأخلاق الرسول فى أكثر من موضع بكتاب الإحياء ، انظر كذلك زاد المعاد ١ : ٣٤ – ٤٧

وكان لامع الذكاء ، عميق التفكير ، سريع البديهة ، وكانت تحيط به أحيانا مشكلات جسيمة ولكنه لم ينهزم أمام واحدة منها ، بل كان يبحث عن الحلول فى وقت تقف فيه العقول عن التفكير ؛ وحسبك أن تذكر موقفه عندما حلت به الهزائم فى غزوة أحد ، وخر صفوة من أتباعه ، وتشتت شمل جيشه ، ومسه هو الضر وسقط فى حفرة والدم ينزف منه ، ونادى منادى قريش أن محمدا قد مات ، فأراد أحد المسلمين أن يكذبه ، وأن يصيح بأن محمدا لا يزال حيا ، ولكن الرسول أسكته فقد أدرك — وهو فى حاله تلك — أن خبر موته سيوقف نشاط المنتصرين ، ويضمن السلامة لكثير من أتباعه . وهذا ما كان .

ومحمد — ككل مصلح وكل رسول — كان له أعداء . ولا يزال له أعداء ؛ ولكن أحدا من هؤلاء لم يستطع أن يجرِّح أخلاقه ، أو أن يجد فى صفاته ما ينال منه . وكثير من المستشرقين الحانقين على الإسلام يذكر أن نجاح محمد كان نتيجة — لا لصدق دعوته — بل لذكائه ، وخلقه ، وحسن معالجته للأمور ، وتفوُّقه الذهنى والخلقى على رجالات عصره .

ومن خصائص الدين الذى جاء على يد محمد التوحيد المطلق الذى لا هوادة فيه ، وخلوه من التعقيدات اللاهوتية ، وبعده عن الكهنة والقرابين ، وقد اتخذ محمد كل الاحتياط ليحول دون تأليهه بعد مماته ، كما أن من أهم خصائص هذا الدين إصراره على أن المسلمين جميعا إخوة متساوون تماما مهما اختلفت ألوانهم أو أصولهم ومراكزهم[١] .

رحم الله محمدا ! لقد كان نفحة سماوية أمدها الله بالتأييد ، وحباها بكريم الصفات ونبيل السجايا ، ومنح العالم على يده ديناً جديرا بأن يكون خاتم الأديان لما يكفله لمعتنقيه من تنظيم أمور الدين وأمور الدنيا .

---

(١) Wells موجز تاريخ العالم ص ٢٠٢

الخلفاء الراشدون

١١ – ٤٠ هـ = ٦٣٢ – ٦٦١ م

أبو بكر الصديق

١١ – ١٣ هـ = ٦٣٢ – ٦٣٤ م

تعريف به :

هو عبد الله بن أبي قحافة التميمى ، كان اسمه فى الجاهلية : عبد الكعبة ، فسماه الرسول : عبد الله ، وكنيته : أبو بكر ، قيل لأنه بكّر فى دخول الإسلام ، ولقبه : الصديق ، لأنه بادر بتصديق الرسول فى مواقف كثيرة حرجة ، وبخاصة فى حادثة الإسراء والمعراج .

وكان فى الجاهلية يشتغل بالتجارة ، وكانت تجارته واسعة ، فلما دخل الإسلام اتجه لخدمته ونشره ، ولم يوجه عناية للتجارة إلا بمقدار ما يكسب به قوته وقوت أهله ، وقد عرف فى الجاهلية بالأمانة والعفة ، ولما جاء الإسلام بادر بدخوله ، ثم قام بدعاية ناجحة له ، فأسلم على يديه مجموعة من أبطال الإسلام سبق أن ذكرناهم ، وهاجر مع الرسول إلى مكة وكان « ثانى اثنين » لجآ للغار ليلة الهجرة ، ولعل من الحق أن نقرر أن طول الصحبة ، وإخلاص أبى بكر ، وصفاء نفسه ، جعلته أكثر المسلمين انتفاعا بروح الإسلام واتجاهاته .

بيعته :

بعد وفاة الرسول أراد الأنصار أن يكون الخليفة منهم ، وطمع على ابن أبى طالب فى الخلافة ، لمكانته من الإسلام وإصهاره للرسول وقرابته

إليه[1] ، ولكن الأغلبية الساحقة اتجهت إلى أبى بكر وبايعته خليفة[2] ، وسرعان ما اجتمع حوله مَنْ تردد فى بادئ الأمر فى مبايعته . وعقب بيعته ألقى أبو بكر خطابه الرائع الذى أعلن فيه سياسته ، ومما جاء فى هذا الخطاب من المبادئ السامية قوله : أيها الناس ، إنى وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فتابعونى وإن أسأت فقومونى ، القوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ منه الحق ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم .

المشكلات التى واجهها أبو بكر :

رأينا فى حديثنا عن الغزوات وانتشار الإسلام أن الإسلام بدأ ينتشر بعد صلح الحديبية ، أى بعد السنة السادسة للهجرة ، وأنه بعد هزيمة هوازن وثقيف بدأت الوفود ترد إلى الرسول تعلن إسلامها : وكان ذلك فى العام التاسع ، ومن هذا يتضح أنه عند وفاة الرسول لم يكن الإسلام قد تعمق فى قلوب جميع العرب ، فمنهم من دخله مع الداخلين دون دراسة ودون إيمان ، ومنهم من رأى الحروب ولم يفهم أنها دفاعية فدخل الإسلام تجنبا لخوض الحروب ضد المسلمين ، ومنهم من دخل الإسلام طمعا فى مغنم أو جاه ، فلما توفى الرسول ارتد كثير من هؤلاء عن الإسلام ، وضعافُ الإيمان هؤلاء كانوا يُظهرون عدم ولائهم للإسلام كلما سنحت لهم فرصة ، كما فعل المنافقون فى غزوة تبوك ، وكالأعراب الذين وصف القرآن إيمانهم فى الآية : « قالت الأعراب آمنا . قل لم تؤمنوا ولكن

---

(١) ابن الأثير : الكامل ٣ : ٩٨

(٢) للاطلاع على الاتجاهات المختلفة حول اختيار الخليفة عقب وفاة الرسول ، يراجع كتاب « المجتمع الإسلامى » للمؤلف ص ١٣٩ وما بعدها . واقرأ أيضا ابن هشام ٢ : ٣٧٢ – ٣٧٣ ، وستأتى تفاصيل وافية لهذا الموضوع عند الكلام عن الناحية السياسية فى الحضارة الإسلامية .

قولوا : أسلمنا . ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم »[١] ، ولكن وفاة الرسول كانت أعظم فرصة لهؤلاء ليظهروا ما أخفوا وليعلنوا ارتدادهم .

وقد حارب الإسلام العصبية ودعا لتكوين أسرة واحدة هى أسرة الإسلام ، ولكن العصبية كانت تتجدد من حين لآخر ، وكان الرسول عدو العصبية يهجم عليها بعنف كلما ظهرت ، ومع ذلك لم تمت العصبية بل ظلّت تظهر كلما أتيحت لها فرصة ، وكان كثيرون من العرب يرون فى الإسلام وسيلة فرَضت عليهم سلطان قريش ، فلما مات الرسول ، وظهر للعرب أن قريشا أخذت السلطة ولن تدعها ، قويت هذه الحركات واشتدت ، فظهر فى كثير من القبائل من ادعى النبوة وأيده قومه باسم العصبية ، مع أنه كان واضحا لهم كذبه وبهتانه .

وهناك فريق ثالث أساء تأويل بعض آيات القرآن ، أو أساء فهمها ، فضلّ واتبع طريقا غير طريق المسلمين .

ولهذه الأسباب نجد الجزيرة العربية تنقلب على عقبيها بعد وفاة الرسول ، ونجد الإسلام يواجه أزمة قاسية أوشكت أن تقوض أركانه ، فهنا جماعة ارتدوا عن الإسلام ، وهناك آخرون أعلنوا أنهم أنبياء وتبعهم حواريون وأشياع ، وفريق ثالث منعوا الزكاة ، وتمردوا على ما سموه الإتاوة والضريبة .

وهكذا ظهر المرتدون والمتنبئون ومانعو الزكاة ، وشمل هؤلاء أغلبَ الجزيرة العربية ، ولم يبق تابعا لدين الإسلام إلا مكة والمدينة والطائف ، وقد قامت هذه المدن بواجبها خير قيام ، ولم تبخل بشىء لإعادة مجد الإسلام وإعلاء شأنه . وحملت قريش أكبر العبء فى ذلك .

وكان التنبؤ ظاهرة تدعو لسخرية الباحث بهؤلاء المتنبئين ، ذلك لأن العرب وجدوا أنه فى رحاب النبى محمد تحققت معجزة لم يصل لها خيال

---

(١) الحجرات ١٤ .

العرب ، وهى وحدة العرب وتآلفهم ، ولذلك ظهر المتنبئون متخذين ادعاء النبوة وسيلة لجمع الناس حولهم ، وقد بدأ ذلك الاتجاه فى أواخر حياة الرسول عندما بدأ نجاح رسالته يظهر ، وقَوِىَ ذلك الاتجاه بعد وفاة الرسول وانتشار الفتن فى الجزيرة العربية .

ومن أكثر المتنبئين خطراً مسيلمة الكذاب فى بنى حنيفة باليمامة ، وقد بدأ ادعاءَه فى حياة الرسول ، إذ كتب إليه يقول : من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، أما بعد فإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولكن قريشا لا ينصفون والسلام عليك . فكتب له الرسول يقول :

بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب ، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . والسلام على من اتبع الهدى(١) .

وهناك عوامل ساعدت على ازدياد خطر مسيلمة وهى :

١ — قوة بنى حنيفة وبطولتهم الحربية .

٢ — استطاع مسيلمة أن يخدع الرجّال بن عنفوه الذى أرسله إليه محمد ليعظه ويرده عن غيّه ، ولما خُدِع الرجّال كَذَبَ وأعلن أن محمداً أشرك مسيلمة فى الأمر .

٣ — تزوج مسيلمة من امرأة تدعى سجاح كانت قد ادعت النبوة أيضاً فى بنى تميم ، الذين كانت ديارهم على مقربة من الحدود الفارسية ، وكانت مطاعة فيهم فانضم أتباعها إلى أتباع مسيلمة(٢) .

ويروى ابن طباطبا(٣) قصة هذا الزواج ، ولا بأس من إيراد هذه القصة

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٩٧ — ٩٨

(٢) المرجع السابق ص ١٠٨ ، وقد دخلت الإسلام بعد أن قتل مسيلمة ، انظر كذلك الكامل لابن الأثير ٢ : ٢٣٩

(٣) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٥١ — ٥٢

هنا لطرافتها مع حذف بعض الكلمات الصريحة التي أوردها ابن طباطبا متصلة بالعلاقات الجنسية ، قال ابن طباطبا :

وظهرت امرأة من العرب اسمها سجاح ادعت أيضاً أنها نبيـّة وأن الوحى ينزل عليها ، وتبعها بنو تميم وهم قبيلتها ، ثم سارت لقتال مسيلمة ، وكانت جموعها أكثر من جموعه ، فلما علم مسيلمة بمسيرها إليه فكـّر ، وكان داهية ذكيا ، فأرسل لها وقال : ينبغى أن نجتمع أنا وأنت فى موضع ونتدارس ما نزل إلينا من الوحى ، فمن كان على الحق تبعه الآخر ، فأجابته إلى ذلك ، وأمر مسيلمة أن تضرب قبة من أدم ، ويستكثر فيها من العود والبخور وقال إن المرأة إذا اختلت برجل بين العود والبخور نشطت أنوثتها ، وهذا ما كان ، ففى هذه الخلوة الشاعرية أصبحا رجلا وامرأة بعد أن كانا نبياً ونبيـّة ، واتفقا فى النهاية على أن ما ورد لهما من الوحى يصدر عن معين واحد ، وأنها تعلن تصديقها له ، ويعلن هو رغبته فى الزواج منها ليقوما معاً بأداء الرسالة ، وأعلنا ذلك للقوم ، وقدم مسيلمة المهر لأصهاره ، وكان ذلك المهر إعفاءهم دون الناس من صلاة العصر . ويقول ابن طباطبا إن كثيرين من بنى تميم لا يصلون العصر حتى الآن ، فقد توارثوا هذه العادة منذ ذلك الحين ، ومنهم من يعلن أنه لا يصلى العصر لأنه مهر فتاة القوم .

وقد أعطت وفاة الرسول الفرصة — كما سبق القول — لأتباع مسيلمة ليزداد أملهم فى النصر .

ومن الذين ادعوا النبوة أيضاً عبهلة ذو الحمار باليمن وهو المعروف بالأسود العنسى ، وطليحة بن خويلد فى بنى أسد ، وكان من أتباع هؤلاء الأنبياء المزيفين كثيرون أدركوا ضلال المدعين ولكنهم انضموا إليهم ليقووا بهم ضد قريش التى تريد أن تستأثر بالحكم فيهم ، كما انضم لهؤلاء أيضاً كثيرون من المرتدين ليستعينوا بهم فى الوقوف فى وجه الإسلام .

وهناك مرتدون آخرون لم ينضموا إلى أحد من المتنبئين ، ولكنهم اكتفوا بترك الإسلام ومن هؤلاء سكان البحرين .

أما مانعو الزكاة فأغلبهم من اليمن واليمامة وعمان ، وقد منعها بعضهم عنادا ورأى فيها ضريبة إجبارية لم يُرِدْ أن يخضع لها ، ومن هؤلاء فيما يبدو مالك بن نويرة سيد بنى حنظلة ، وقد اتهم أيضا بأنه يساعد سجاح ويؤيدها[١] ، ولكن أغلب مانعى الزكاة أساءوا فهم الآية الكريمة « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها »[٢] وظنوا أن الرسول وحده – والخطاب فى الآية له – هو الذى يجوز له أن يأخذ الزكاة ففى ذاك تطهير وتزكية لهم ، وقد نسى هؤلاء التفسير الدقيق للآية الكريمة ، كما نسوا الآيات الأخرى التى تقرر أن للفقير حقا فى مال الغنى ، مثل قوله تعالى « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم »[٣] .

واستشار أبو بكر الصحابة والمسلمين فيما يفعل أمام هذه المشكلات العظام ، فرأى أكثر المسلمين ألا طاقة لهم بحرب العرب أجمعين ، كما رأى بعضهم أنه لا داعى لحرب مانعى الزكاة ما داموا ثابتين على إيمانهم ، ولكن أبا بكر صاح مُقْسِماً ليحاربن الجميع حتى يثوب الجميع إلى الحق أو حتى يموت أبو بكر مجاهدا فى سبيل إعلاء كلمة الله ، فاستجاب أغلب المسلمين أو كلهم إلى اتجاه أبى بكر[٤] ، ووضعت قريش أفلاذ أكبادها تحت إمرته ، وبدأ يعمل ، فكوّن أحد عشر جيشا يقود كلا منها بطل من أبطال العرب المشاهير ، مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة ابن أبى جهل وشرحبيل بن حسنة وغيرهم ، وقد هزت هذه الجيوش

---

(١) قتل خالد بن الوليد مالك بن نويرة هذا ، وقصة خالد مع مالك وزواج الأول بزوجة الثانى بعد قتله من الموضوعات التى أفاض المؤرخون المحدثون فى شرحها ، وهناك فيها اتجاهان مختلفان : يمثل الدكتور هيكل أحدهما فى كتابه « الفاروق عمر » فيدين خالد ويمثل الأستاذ صادق عرجون الاتجاه الثانى فى كتابه « خالد بن الوليد » فيدافع عن خالد ويبرئه .

(٢) التوبة ١٠٣ .

(٣) المعارج ٢٤ ، ٢٥ .

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٠٤ .

الجزيرة العربية ، وقبل أن يوجهها أبو بكر فى اتجاهاتها المرسومة أرسل كتابا للخارجين يجيب لهم عن الشبه التى تكون قد خطرت لهم ، ويدعوهم إلى العودة إلى رحاب الإسلام ، وينذرهم إن استمروا على غيهم ، وقد نجحت الكتب مع بعض الناس ، وبقى آخرون على ضلالهم ، فاتجهت لهم الجيوش وكانت جولة هذه الجيوش ناجحة مظفرة ، فلم تلبث أن دكت الأرض حولهم . ومن أهم المعارك التى خاضها المسلمون ضد المتنبئين معركتهم ضد أربعين ألفا[١] من بنى حنيفة وأتباعهم التفوا حول مسيلمة ، ولما التقى الفريقان سرعان ما سقط الخائن الرجال بن عنفوه ، ثم شد المسلمون على أعدائهم فتقهقروا ، وأراد مسيلمة أن يحتمى بحديقة فسيحة لها سور مرتفع فتراجع لها ونادى أصحابه أن يلحقوا به ولكن المسلمين تسوروها عليهم ودارت بها معركة عنيفة سقط فيها الآلاف من الفريقين حتى سميت « حديقة الموت » وقتل فيها مسيلمة على يد وحشى قاتل حمزة ، وقيل على يد معاوية وقيل اشترك فى قتله جماعة من المسلمين[٢] ، وكان قائد جيش المسلمين البطل الخالد خالد بن الوليد .

وانهزمت كذلك جيوش طليحة بن خويلد وفر النبى المزعوم واختفى ثم أسلم فى عهد عمر وحسن إسلامه[٣] . أما الأسود الذى كان يلقب نفسه رحمان اليمن فكان قد قتل قبل ذلك غيلة[٤] . وعلى كل حال فقد جالت الجيوش الإسلامية جولة فى الجزيرة العربية أعادت خلالها الثائر إلى الاستسلام والضال إلى الهدى ، وعادت الجيوش إلى المدينة وقد عادت للجزيرة العربية وحدتها وتمسكها بالدين الحنيف بعد أن زالت الشبهات والترهات بالحكمة عند من عرف الحكمة ، أو بالسيف عند من دفعته العصبية الضالة إلى السيف ولم تعرف الحكمة إلى نفسه سبيلا .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ٢ : ٢٤٤
(٢) المرجع السابق ص ٩٨
(٣) ابن الأثير الكامل ص ١٠٥
(٤) ابن الأثير الكامل ص ١١٤

التوسع الإسلامى فى عهده :

وانتفاض الجزيرة العربية جدد الأمل عند الفرس والروم بأن العرب سيقضون على الإسلام ، وقدمت الفرس والروم للعرب فى هذه المرة بعض المساعدات وآوت المتمردين ، ولذلك لم يكد المسلمون يعيدون الجزيرة إلى وحدتها حتى كان الأوان قد آن للزحف نحو الشمال لمواجهة العدوين الكبيرين اللذين يتربصان بالإسلام ، ويعملان على القضاء عليه ، ومات أبو بكر والمعارك دائرة ، وظهرت ثمرة هذا العمل فى عهد عمر ، ولذلك سنرجئ الكلام على هذا التوسع الذى تم فى عهد الخليفتين لنتحدث عنه عند الحديث عن الخليفة عمر .

وفاة أبى بكر :

ومرض أبو بكر وتوفى بعد أن أمضى فى الخلافة عامين وبضعة شهور ، وهى فترة وجيزة ولكنها حاسمة فى تاريخ الإسلام ، لقد واجه أبو بكر فيها أحرج المواقف ، ويمكن القول أنه فى فترة منها كان يقف وحده[1] ، ولكنه بإيمانه ويقينه سرعان ما ضم المسلمين إلى رأيه ، ثم سار بهم يدك صروح الشرك ، ويقوض الشكوك والأوهام ، بل سار بهم يحطم قصور كسرى وقيصر ، ولا نكاد نجد موقفا عظيما فى الصدر الإسلامى إلا واسم أبى بكر بارز فيه ، رحم الله أبا بكر لقـــد تمثلت فيه كل المعانى الإسلامية الرائعة .

---

(١) ذلك عند إصراره على محاربة المرتدين والمتنبئين ومانعى الزكاة فى حين اتجه باقى المسلمين إلى المسالمة قائلين : كيف نحارب الجزيرة العربية كلها ؟

عمر بن الخطاب

١٣ – ٢٣ هـ (٦٣٤– ٦٤٤ م)

تعريف به :

هو عمر بن الخطاب بن نفيل القرشى من بنى عدى الذين كان لهم بين قريش قبل الإسلام وبعده شرف ومجد ومكانة عظيمة . وكان عمر يشتغل بالتجارة ، وفى الجاهلية كان سفير قومه إذا اشتدت الأمور بينهم وبين الآخرين ، واشتهرت عنه قبل إسلامه وبعده شجاعة لا تعرف الخوف وعزيمة لا تعرف التردد .

وكانت الدعوة الإسلامية فى مطلعها ضعيفة تحتاج إلى قوة ، ولذلك أثر عن الرسول أنه قال : اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين (عمرو بن هشام أو عمر بن الخطاب) وقد استجاب له الله فأسلم عمر فى السنة الخامسة للدعوة ، وكان إسلامه فتحا مبينا . وروى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : كان إسلام عمر فتحا ، وكانت هجرته نصرا ، وكانت إمارته رحمة ، لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلى فى البيت خوفا من قريش ، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا فصلينا ، وقصة إسلام عمر مشهورة ، وسنتحدث عنها عند كلامنا عن أثر القرآن فى انتشار الإسلام فى الكلمة الختامية التى سنوردها بعد نهاية الحديث عن الخلفاء الراشدين .

توليته الخلافة :

شهد أبو بكر الخلافات التى حدثت عقب وفاة الرسول ، والأطماع التى أوشكت أن تفرق كلمة المسلمين ، وقبيل وفاة أبى بكر كانت الجيوش الإسلامية تخوض أقسى المعارك التى عرفها التاريخ فى ذلك الحين ، إذ كانت الحروب دائرة بين المسلمين من جهة وبين الفرس والروم من جهة أخرى ،

والجيوش فى ميدان القتال تحتاج إلى عون متصل من العاصمة ، عون بالرأى والسلاح والرجال وغير ذلك ، ورأى أبو بكر أنه لو ترك المسلمين بلا خليفة فإنهم قد يختلفون اختلافا كثيرا أو قليلا ، واضطراب العاصمة سيؤدى إلى هزيمة كبيرة للجيوش المحاربة ، وقد يمتد الخلاف إلى الجيوش نفسها فيؤيد قائدٌ مرشحاً ، ويؤيد قائدٌ آخرُ مرشحاً آخرَ ، فتنقلب الحروب إلى معارك داخلية وهزائم قاتلة . ومن أجل هذا أصر أبو بكر أن يعين خلفه بعد أن يستشير الناس ، أو أن يستشير الناس ويعيِّن لهم من يرتضونه ، وكان عمر هو مرشح الخليفة ومرشح الناس ، ومَنْ غير عمر لهذا المكان وهناك عمر ؟ ولذلك عين أبو بكر عمر وكتب له وثيقة التعيين قبل موته .

التوسع الإسلامى فى عهدى أبى بكر وعمر :

تحدثنا من قبل عن أسباب تفكير المسلمين فى محاربة الفرس والروم ، ونريد هنا أن نتتبع مراحل هذا التوسع ، وقد بدأ النضال بين المسلمين من جانب والغساسنة ومعهم أحلافهم أو سادتهم الروم من جانب آخر فى غزوة مؤتة التى كان يقودها زيد بن حارثة مولى الرسول ، وقد قتل فيها هو واثنان توليا القيادة بعده ، ثم جاءت غزوة تبوك ولكن المسلمين لم يثأروا فيها لقتلاهم بسبب انسحاب جيش الروم وعدم وقوع حرب كما سبق .

فلما تمت انتصارات الإسلام فى الجزيرة العربية ، ولما كانت مكايد الفرس والروم مستمرة ، فقد أعد الرسول جيشا عظيما ولى أسامة بن زيد قيادته ليثأر لأبيه ولقتلى المسلمين ، ولكن الرسول مات قبل أن يسير هذا الجيش ، فسيره أبو بكر(١) .

ولكن تسيير أبى بكر لهذا الجيش كان عملا سياسيا أكثر منه حربيا ، فليس من الطبيعى أن يرسل خليفة المسلمين جيشا لمحاربة الروم فى حين تنتفض

---

(١) ابن هشام ٢ : ٣٦٥ وابن الأثير ٢ ، ١٩٢

عليه أغلبية العرب ، ولذلك رأى أبو بكر أن إرسال هذا الجيش سيجعل المتمردين يحسون أن بالمسلمين قوة كبيرة لولاها ما أقدموا على حرب الروم فى هذه الظروف ، ونجحت سياسة أبى بكر ، فإرسال هذا الجيش خوّف الروم وخوّف الثائرين العرب وحقق هذا الجيش انتصارات طيبة فى الغارات السريعة التى شنها على الروم ، والتى كانت فاتحة المعارك الطويلة بين المسلمين وبين الفرس والروم ، تلك المعارك التى سنوجزها فيما يلى :

الفرس والروم قبيل الزحف الإسلامى وعوامل انتصار المسلمين :

سبق أن قلنا إن قبيلتى هوازن وثقيف فى حربهما مع المسلمين حشدتا النساء والأموال خلف الجيوش ، حتى يعرف المحارب أن هزيمته معناها فناء أسرته وماله ، ويفهم النقاد من ذلك أن هؤلاء الجنود لم يكونوا مخلصين فى المعارك التى يخوضونها . ولو كانوا مخلصين لحاربوا من أجل العقيدة بشجاعة أكثر من محاربتهم من أجل النساء والأموال ، وقد حارب المسلمون من أجل عقيدتهم ، فكسبوا انتصارات حاسمة فى مختلف الميادين ، دون أن يكون خلفهم نساء ولا أموال ، وفى ضوء ذلك نحب أن نعرف شعور الجندى الفارسى أو الجندى الرومى وهو فى هذه المعارك الطاحنة يحارب المسلمين .

لقد مضى على ظهور الإسلام حينذاك حوالى ربع قرن ، وقد سمع عنه الفرس والروم ، وسمعوا عما حققه من انتصارات ، وسمعوا عن مبادئه السمحة ، ولأول مرة يسمعون عن دين سوى بين الملك والسوقة ، ولأول مرة يسمعون عن حكام فقراء يرقعون الثياب ويخصفون النعال ، وبينما كانوا يسمعون عن ذلك ويعرفونه كانوا يعيشون فى حياة بعيدة كل البعد عن هذا ، كانت دولهم دولا شاخت وآن لها أن تزول ، عظماؤهم أضعفهم التنافس على السلطان وهدهم البذخ ، وشعوبهم أضعفتها الخلافات الدينية واستبداد الملوك وظلم الحكام ، وكان الجندى يدرك أنه يدافع عن شيء

لا حق له فيه ، يدافع عن وطن يملكه السادة ويستمتع به الملوك ، فلماذا يبذل نفسه ؟ ولماذا يريق دمه ؟ ولقد كان الفرس يدركون أن جنودهم يحاربون دون عقيدة ولا رغبة حتى اضطر القائد الفارسى فى إحدى مواقعه مع المسلمين أن يقيد جنوده بالسلاسل حتى لا يفروا ، وقد سميت هذه الموقعة « موقعة ذات السلاسل » وسيأتى الكلام عنها وكان قائد المسلمين فيها البطل العظيم خالد بن الوليد ، وقد فعل الروم مثل ذلك أيضا ؛ يروى البلاذرى[١] أن الروم فى موقعة اليرموك تسلسلوا لئلا يطمعوا أنفسهم فى الهرب .

وانتشر فى فارس مبدأ الحق المقدس ، وذلك يجعل الملوك ظل الله على الأرض ، ويبعد الهوة بينهم وبين شعوبهم[٢] .

ثم كانت الفرس والروم فى معارك تكاد تكون متصلة ، وكان الفرس أو كان الروم ينالون النصر ، ولكن الحرب تضنى المهزوم والمنتصر .

والإمبراطورية الرومانية كانت واسعة تمتد من شبه جزيرة ايبريا إلى الشام ومصر وشمال أفريقية . وهى بذلك تشمل عدة دول وعدة أجناس ، وأباطرة الرومان قساة محتلون ، تثور عليهم الدول الخاضعة لهم من حين إلى آخر ، فيقسون فى تأديبهم ، يريقون دماءهم ويأخذون أموالهم إذا انتصروا عليهم ، وإذا لم تثر هذه الدول فمعنى ذلك أن الثورة كامنة ، إنها نار تتأجج فى صدورهم ضد الاستعمار والاستبداد والضرائب الفادحة التى كانت تؤخذ على الرءوس والملابس وأثاث المنازل بل على الأموات .

وكان السكان يضجون من حكم الرومان ، ولذلك كثيرا ما رحبوا بحكم المسلمين وانضموا إليهم فى الكفاح ، روى البلاذرى[٣] أن المسلمين . بعد أن أخذوا حمص أعدَّ لهم الرومان جيشا كبيراً ليستعيدوا به هذه المدينة ،

---

(١) فتوح البلدان ص ١٤١

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٣١

(٣) فتوح البلدان ص ١٤٣

ولكن أهل حمص انضموا للمسلمين وقالوا : لَولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة معكم ، وأقسموا ألا يدخل عامل هرقل المدينة إلا إذا غلبوا .

وحسبك أن تعرف أن مصر كانت تُعرَف عند الرومان بمزرعة القمح ، حيث يَزرَع المصريون وتنبت أرض مصر ، ويحصد المصريون ، ثم يُؤخذ منهم نتاجهم دون عدل أو رحمة . وقبل أن يزحف المسلمون على الروم كانت الإمبراطورية بدأت تتصدع فقد أغار القوط على أسبانيا وأخذوها وهاض الجناح الغربى ، وأوشك الجناح الشرقى أن يتحطم على يد العرب .

ويقول Kirk[1] : إن عمار أهل المدن والريف فى دول الشرق الأوسط الخاضعة للروم كانوا يعيشون فى ضنك من جراء ثقل الضرائب الباهظة وفساد الموظفين ، فلم يدينوا بشيء من الولاء لهذا الحكم ، ومن جهة أخرى نجد الكنيسة المسيحية باصطباغها بالصبغة الرسمية دخلت فى دور الجمود المستولى على رجال الحكم ولم يبق فى الكنيسة شيء من الإخاء الذى امتاز به صدر المسيحية ، وحصل انشقاق فى الكنيسة كان عامل الوطنية من أسبابه ولو أنه اتخذ شكلا دينياً حول تفسير طبيعة المسيح ، ولم تثمر محاولات التقريب بين الطوائف المسيحية لأن الكنائس المحلية بدول الشرق الأوسط كانت تبغض الأباطرة وحكوماتهم فكانت النتيجة أن توقفت محاولات الأباطرة لاسترضاء شعوب الشرق الأوسط وحلت محلها اضطهادات شنيعة وحشية فاتسعت الهوة بذلك بين الفريقين إلى الأبد وتطورت الأمور فى بلاد شرقى البحر الأبيض المتوسط حتى بلغت الحد الذى يجعلها لقمة سائغة لأى فاتح يعرض عليهم من الحرية فى شئونهم ما لم ينالوه على يد أباطرة الرومان .

وكانت الفرس دولة واحدة ولكن الاضطهاد الدينى كان على أشده ، وضَعُفَ سلطان الساسانيين الذى امتد حوالى أربعة قرون ، وآل الحكم

---

(١) موجز تاريخ الشرق الأوسط ص ١٤ – ١٦ بتصرف

إلى يزدجرد الثالث آخر ملوكهم . وكان شاباً فى الحادية والعشرين قليل التجارب ، ورث دولة ضعيفة لا يستطيع المسير بها فى ركب الحياة .

وفى ضوء هذه الاعتبارات قامت الحروب بين المسلمين وبين الفرس والروم . وآذنت دولة الباطل بالخضوع ، وقد كان هجوم المسلمين على الفرس والروم فى وقت واحد لوناً من الإرهاب ساعد فى الحصول على النهاية الطيبة . وسنرسم فيما يلى سير الحملات الحربية ونذكر أهم المواقع الحاسمة فى إيجاز . وقبل أن نشرع فى هذا يجدر بنا أن نشير إلى أن الذى يقرأ كتب الفتوح مثل فتوح الشام للواقدى ، وفتوح الشام للأزدى ، وفتوح مصر لابن عبد الحكم ، وفتوح البلدان للبلاذرى يرى اختلافا كبيراً فى الروايات التى توردها هذه الكتب ، أو حتى يوردها الكتاب الواحد منها ، وهذا الاختلاف يتصل بالتواريخ وبتسلسل الفتوح وغيرها ، ولن نعنى كثيراً بهذا الاختلاف إذ لا أرى كبير فائدة فى معرفة ما إذا كانت دمشق فتحت قبل اليرموك أو بعدها ، وأى أجزائها فتح على يد خالد وأيها فتح على يد أبى عبيدة ، وأى أجزائها فتح صلحاً وأيها فتح عنوة وهكذا ، وهناك بلاد يرد ذكرها على أنها فتحت فى عهد عثمان ثم ترد مرة ثانية على أنها فتحت فى عهد معاوية وترد مرة ثالثة على أنها فتحت فى عهد الوليد ، ولعل ذلك يرجع إلى أن فتحها الأول كان صلحاً على جزية ، ثم توقف السكان عن دفع الجزية فأعيد فتحها وهكذا .

المهم مرة أخرى أن هذا الاختلاف قليل الغناء ، وربما تظهر له فائدة عند دراسة خراج الدولة الإسلامية مثلا ، لنرى دخل الدولة ومصروفاتها ، ولذلك آثرت أن أكتفى هنا بإيراد الفتوح مسلسلة حسبما استطعت أن أفهمها من التوفيق بين الروايات المختلفة التى وردت فى الكتب السابقة وغيرها ، أما الروايات التى سأوردها هنا فأكثرها مستقى من البلاذرى ، فهو أكثر هذه الكتب دقة وشمولا .

العراق وفارس :

جرت المناوشات الأولى بين العرب والفرس على يد المثنى بن حارثة الشيبانى ، وكان ذلك فى مطلع عهد أبى بكر وبتكليف من الخليفة(١) ، ولكن أبا بكر بعد أن شاهد نجاح المثنى مع قلة ما معه من العدة وقلة من معه من العدد أرسل إليه جيشاً عظيما يقوده سيف الله خالد بن الوليد ، وكتب أبو بكر للمثنى يأمره بتلقى خالد والسمع والطاعة له(٢) ووصل خالد العراق فأخذت مدنه تصالحه وتخضع له وتدفع له الجزية وتعده على أن تكون معه على الفرس ، وأهم البلاد التى صالحها خالد أرض الحيرة(٣) .

وسار خالد من الحيرة إلى الأنبار فحاصرها ، ولكن مقاومتها لم تطل فطلبت الصلح واستسلمت(٤) ، وكذلك استسلمت « عين التمر » بعد فترة من القتال والحصار ، وقد وجد خالد فى عين التمر مجموعة من العرب أسرهم الفرس وأودعوهم كنيسة فى هذه المدينة فأطلق خالد سراحهم(٥) .

ومن أهم المعارك التى خاضها خالد بفارس موقعة ذات السلاسل التى ربط الفرس أنفسهم فيها بالسلاسل(٦) حتى لا يفروا من المعركة ، ولكن ذلك لم يغنهم شيئاً ، فقد فرَّ منهم من وجـد حيلة للفرار وسقط الباقون صرعى ، وقد ترتب على هذه الموقعة الاستيلاء على ميناء الأُبُلّة على الخليج الفارسى(٧) .

وبينما كان خالد فى تقدمه ذاك كانت الحملة على الروم تجتاز مرحلة

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٤٢

(٢) المرجع السابق

(٣) المرجع السابق ص ٢٤٦

(٤) المرجع السابق ٢٤٧

(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٤٨

(٦) ابن الأثير الكامل ٢ : ٢٦٢

(٧) ياقوت معجم البلدان ١ : ٨٩

صعبة ، فحول أبو بكر خالد بن الوليد إلى الروم ، وبذلك لم يقو جيش المثنى على الوقوف فى وجه الفرس فارتد إلى أطراف الجزيرة العربية .

وفى عهد عمر كانت كفة المسلمين قد رجحت على الروم بعد انتصارهم فى معركة أجنادين ، فاتجه عمر إلى معاودة الزحف على بلاد الفرس . وفيما يلى فكرة سريعة عن أهم المعارك الحربية التى دارت بين المسلمين وبين الفرس والتى وضعت حداً لمقاومة الفرس وأدخلتها إلى الأبد جزءاً من العالم الإسلامى .

يوم الجسر : حدثت هـــذه الموقعة سنة ١٣ هـ ، وكان يقود جيش المسلمين فيها أبو عبيد بن عمر الثقفى أبو المختار بن أبى عبيد المشهور ، ومعه سليط بن قيس الأنصارى ، وكتب عمر للمثنى أن يكون فى طاعة أبى عبيد ، وكان يقود جيش الفرس قائد عظيم اسمه مردانشاه ويقال إن اسمه رستم ، وتنسب هذه المعركة إلى جسر عند الحيرة عبره المسلمون والتقوا بجيش الفرس ، وانتصر الفرس فى هذه المعركة وقتل أبو عبيد وسليط(١) .

يوم مهران أو يوم النخيلة : استمر عمر عاماً بعد يوم الجسر لا يغزو فارس ، ولما دخلت سنة ١٥ بدأ يعاود غزوها ، فأرسل لها جيشاً يقوده جرير بن عبد الله مع المثنى بن حارثة ، وكان يقود جيش الفرس قائد اسمه مهران ، وقد ثأر المسلمون فى هذه الموقعة لقتلاهم فى يوم الجسر ، وقتل مهران وكثير من أتباعه(٢) .

القادسية : حدثت موقعة القادسية فى السنة السادسة عشرة ، وكان قائد المسلمين فيها سعد بن أبى وقاص ، وبلغ جيش المسلمين حوالى عشرة آلاف ، وكان قائد الفرس رستم ذا الحاجب ، ويتكوّن جيشه من مائة وعشرين ألف مقاتل ، وقد مات المثنى بن حارثة قبل المعركة ، ومن القادة الذين كانوا يساعدون سعد بن أبى وقاص المغيرة بن شعبة وقيس بن هبيرة وطليحة

---

(١) البلاذرى ص ٢٥٢

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ٢٥٣ — ٢٥٤

ابن خويلد الذى كان قد ادعى النبوة ثم تاب وأناب ، وقبيل المعركة تمّ اتصال بين المسلمين و الفرس رجاء الوصول إلى اتفاق يمنع الحرب ، ولكن هذا الاتصال لم يسفر عن نتيجة ، فقامت المعركة ، وهى من المعارك الهامة فى تاريخ الحروب بين المسلمين والفرس ، فرّ فيها رستم وعشرات الآلاف من جنوده ، وغنم المسلمون فيها مغانم كثيرة ، وقد استمرت هذه المعركة عدة أيام[1] .

ومن الأحداث الهامة التى وقعت فى هذه المعركة أن أبا محجن الثقفى أحد مشاهير الأبطال شرب الخمر فى عسكر سعد ، فضربه سعد وحبسه ، ولما قامت المعركة حزن أبو محجن لأنه لم يشترك فيها ، فتقدم إلى زبراء وهى أم ولد لسعد وطلب منها أن تطلق سراحه وتعيره فرسا لسعد ليشهد المعركة وحلف لها أن يعود إلى سجنه عقب المعركة ، فأطلقته وأعطته الفرس .

ورأى المسلمون فارساً مغواراً يشق الصفوف ويطعن فى العدو يمنة ويسرة فلا تخطئ طعنته . قال سعد : لولا أن أبا محجن فى السجن لظننت أن هذا الفارس هو أبو محجن ، وقبيل انتهاء المعركة انسحب أبو محجن وأعاد الفرس إلى مربطه وعاد هو إلى سجنه ، وعرف سعد فيما بعد ذلك الخبر فأتى على أبى محجن وقال له : والله لاضربتك فى الخمر بعد ما رأيت منك ، قال أبو محجن وأنا والله لا أشربها أبدا[2] .

المدائن : كان انتصار المسلمين فى القادسية دافعا لهم أن يستمروا فى زحفهم ، واتجهوا فى تقدمهم إلى القلب ليضربوه ، إلى العاصمة طيسفون[3] التى أسماها العرب « المدائن » لكثرة ضواحيها حتى بدت للعرب وكأنها مدائن لا مدينة واحدة ، وتقع المدائن على ضفتى نهر دجلة ، واستطاع

---

(١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ٢ : ٣٠٩ ، ٣٣٥

(٢) انظر فتوح البلدان للبلاذرى ٢٥٥ — ٢٥٩

(٣) ياقوت : معجم البلدان ٦ : ١٣٤

المسلمون أن يستولوا على الجانب الغربى من المدينة فأسرع الفرس وأخذوا السفن للجانب الشرقى كما هدموا الجسور حتى لا يستطيع العرب عبور النهر ، ولكن المسلمين سرعان ما عبروا النهر بخيولهم ، فاضطرب الفرس وقالوا : والله ما هؤلاء إلا جنٌ . وحاقت عليهم الهزيمة وهرب يزدجرد بن شهريار إلى حلوان ومعه وجوه قومه وأسرته وما خفَّ من متاعه .

وسقطت العاصمة الفارسية العريقة فى أيدى المسلمين بما تحويه من فن وزخائر ، ولا شك أن سقوط العاصمة آذن بالانهيار الكامل لبلاد الفرس كلها ، وكان سقوط العاصمة فى العام السادس عشر(١) .

جَلُولاء : أعد يزدجرد عدته ليقابل المسلمين ، وبعث إلى كل النواحى يطلب العون فانهالت عليه الإمدادات وعسكر بمنطقة جلولاء وحفر الخنادق حول عسكره ، ولكن المسلمين اقتحموا عليهم خنادقهم ، ودارت معركة من أعنف معارك فارس يقول البلاذرى عنها(٢) أن المتحاربين استعملوا الرماح حتى تقصمت وتجالدوا بالسيوف حتى أنثنت ، ولكن المسلمين ثبتوا حتى كتب لهم النصر وفرَّ يزدجرد مرة ثانية من حلوان . وعقب الانتهاء من جلولاء دانت للمسلمين كل أرض السواد ، وكانت هذه الموقعة سنة ١٦ أيضا تبعا لرواية البلاذرى(٣) .

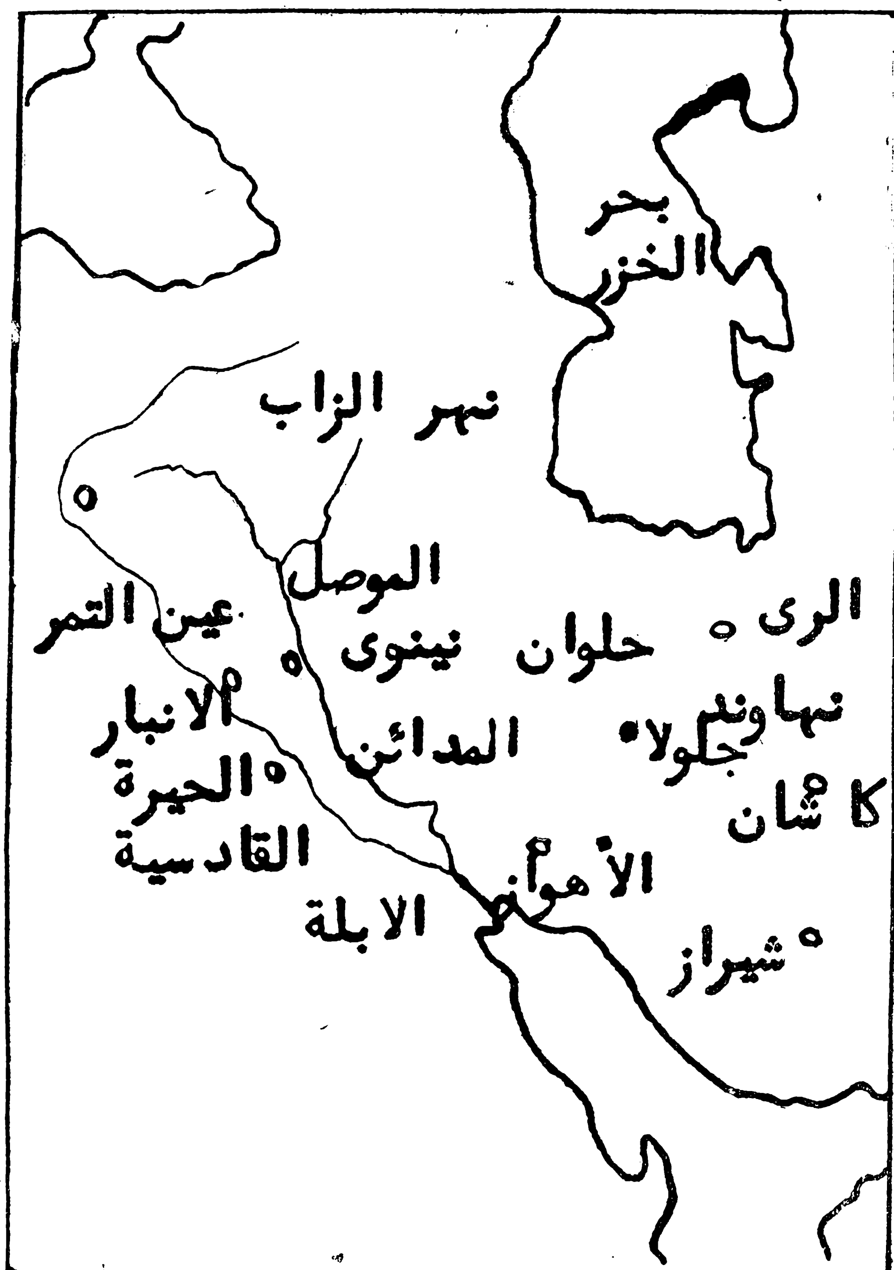
نِهاوند : موقعة نهاوند تسمى فتح الفتوح ، وقد أورد البلاذرى أنها وقعت سنة ١٩ ، قال البلاذرى ويقال أنها وقعت سنة ٢٠ أو ٢١ ، ويبدو أن نهاوند كانت آخر محاولة جدِّية يقوم بها يزدجرد ، فقد جمع لها جموعا يرى بعض المؤرخين أنها وصلت ١٠٠ ألف(٤) وولى قيادتها قائدا

(١) فتوح البلدان ٢٦٢ — ٢٦٣ وانظر أيضا ابن الأثير ٢ : ٣٥٤

(٢) المرجع السابق ص ٢٦٤

(٣) المرجع السابق ٢٦٣ — ٢٦٤

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٠٠



(الخريطة رقم ٤)

الجيش الإسلامى بالفرس

عظيما يسمى الفيرزان وحرص على ألا يهرب المحاربون فقيّدهم بالسلاسل[١] ، وقد استمات الفرس فى الدفاع والحرب ولكن المسلمين هزموهم ، وكان قائد المسلمين فى هذه المعركة النعمان بن مُقَرِّن المزنى الذى ولاه عمر بعد أن عزل سعد بن أبى وقاص الذى لم يرض عمر عن بعض تصرفاته بالكوفة[٢] ، وقد سقط النعمان فى مطلع المعركة فتولى مكانه حذيفة بن اليمان وتم على يده النصر[٣]

بعد نهاوند : سار المسلمون بعد نهاوند فاستولوا على الأهواز ثم استولوا على قم وكاشان ، وكانت هذه الانتصارات الباهرة سببا فى إضعاف الروح المعنوية عند الفرس ، فاستسلم صلحا عدد كبير منهم ، واستسلم آخرون عنوة ، ولم يستطع يزدجرد أن يقابل المسلمين بعد ذلك مقابلة ناجحة ، وظل أمره فى نقصان حتى قتل بخراسان سنة ٣١ هـ فى عهد عثمان وبموته زالت دولة آل ساسان .

الروم :

كان اهتمام المسلمين بغزو الروم يفوق اهتمامهم بغزو فارس لأن شَغَبَ الروم على المسلمين سبق شَغَبَ الفرس . ولأن الشام ومصر وفلسطين دول محتلة ليست مخلصة للروم وأمّل المسلمون أن يجدوا من الأهلين بعض المساعدة لطرد هؤلاء المستعمرين القساة ، وقد جمع أبو بكر جيوشا عظيمة وجهها نحو الروم فى فيالق أربعة كبيرة يقودها :

١ – أبو عبيدة بن الجراح الذى لقبه الرسول بأمين الأمة[٤] ويتجه لغزو حمص وله القيادة العامة .

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٠١

(٢) ابن سعد ٣ / ١ ص ٧٩

(٣) البلاذرى ٣٠٠ – ٣٠١

(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٢ ص ٢٢٠

٢ ــ يزيد بن أبى سفيان ويتجه لغزو دمشق .

٣ ــ عمرو بن العاص ويتجه لغزو فلسطين .

٤ ــ شُرَحْبِيل بن حَسَنَة ويتوجه لغز وادى الأردن[١] . (انظر الخريطة رقم ٥) وكان تعداد الجيوش التى سيرت إلى الشام اثنى عشر ألفا ولكنها زيدت إلى أربعة وعشرين ألفا[٢] .

وقد سارت هذه الجيوش كل فى الاتجاه الذى حدد له ؛ ولما علم الروم بخطة العرب قسموا جندهم إلى أربعة أقسام كبيرة ليقابلوا جيوش المسلمين الزاحفة ، وكانت حصون الروم قوية ساعدت على إضعاف تقدم المسلمين ، وقد استطاعت جيوش المسلمين أن تحرز نصرا ملحوظا كالنصر الباهر الذى ناله عمرو بن العاص فى المعارك التى قام بها على حدود فلسطين ، وهناك جيوش أخرى لم تستطع أن تحقق نصرا يذكر أمام الآلاف المحتشدة من جند الروم ، وأمام الحصون القوية التى تمطر وابلا من المقذوفات التى سببت كثيرا من الخسائر للمسلمين .

وهنا حصل تغيير فى خطة المسلمين إذ وجدوا أن جيوش الروم كثيرة العدة والعدد ، وأن جيوش المسلمين لن تنال منها ما تريد ما دامت متفرقة إلى فيالق أربعة ، وعرف الخليفة أبو بكر ذلك فانتهى الأمر إلى .

أولا : تتوحد جيوش المسلمين لمقابلة الروم .

ثانيا : يتجه خالد بن الوليد من العراق للشام ليساعد جيوش المسلمين ويتولى القيادة العامة .

وبدأت الجيوش تقترب وتتجمع ، وبدأ خالد يقوم برحلته التاريخية متخطيا المفاوز والصحارى ، وقد رأى خالد أنه إن اتخذ الطريق العادى من فارس إلى الروم فإن أخباره ستصل إلى الروم ، وربما اعترضته

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١١٦

(٢) المرجع السابق



(الخريطة رقم ٥)
اتجاهات الجيوش الإسلامية بالشام

جيوشهم وحالت بينه وبين جيوش المسلمين ، ولذلك كان عليه أن يقتحم الصعاب ، وأن يتخذ طريقا غير مأهول ، وهو بذلك يبعد عن الآبار ومنابع الماء ويعرض نفسه وجيشه لمجازفة لا يقوم بها إلا الأبطال الموهوبون .

واتخذ خالد عدته لهذا العمل ، وحمل معه ما استطاع حمله من الماء ، ثم أتى بجمال فعطشها ، ولما اشتد بها العطش أطلقها على الماء فملأت منه أكراشها ، ثم ربط أفواهها حتى لا تجتر ، وسار بجيشه الصغير الذى لم يصل إلى الألف ، وكان يعطى الماء لجنوده بقدر ، حتى إذا انتهى ما تحمله الإبل من الماء عمد إلى الأبل التى اكتنز الماء بكروشها فذبح واحداً فى كل مرحلة وأخذ ما فى كروشها من ماء فانتفع به ، ويروى أن الماء قد نفذ ولم يصل بعد إلى عين ماء فصاح خالد برائده واسمه رافع بن عمير . ولكن الرائد طمأنهم أنهم على وشك أن يصلوا ، ولم تطل عليهم الشقة بعد ذلك حتى نزلوا بمنابع الماء[1] ، وفجأة ظهر خالد ببلاد الشام والتقى بجيوش المسلمين واستغرقت رحلته ثمانية عشر يوما .

وقد دارت بين جيوش المسلمين والروم مجموعة كبيرة من المعارك ، ولكن تسجيل هذه المعارك وتسجيل سير الفتوح هو موضع خلاف كبير بين المؤرخين ، فقد اختلطت بعض الأسماء وبعض الأحـداث عليهم ، وسأحاول أن أختار أهم المعارك وأذكرها مسلسلة بقدر فهمى لها :

اجنادين :

وقعت موقعة اجنادين سـنة ١٣ هـ وكان خالد بن الوليد قائداً لجيوش المسلمين التى بلغت حوالى ثلاثين ألفا ، وكان تيودور أخو هرقل قائداً لجيوش الروم التى أربت عن مائة ألف ، وكان جيش الروم كثير الأسلحة والعتاد أما جيش المسلمين فكان قليل الأسلحة اللهم إلا الروح المعنوية القوية والثقة الهائلة فى نصر مبين ، ودارت رحى الحرب فخرّ من

---

(١) الواقدى : فتوح الشام ١ : ٤١ وانظر كذلك البلاذرى ص ١١٨

جيش الروم أكثر من نصفه وأسرع الباقون يولون الأدبار ، وكانت هزيمتهم صاعقة على هرقل الذى لم يتوقع مثل هذه الهزيمة الساحقة ، ولذلك ترك حمص وهرب منها إلى انطاكية(١) .

وهناك بيت من الشعر يجدر بى أن أقتبسه من البلاذرى فهو قوى الدلالة على الرعب الذى ملأ نفوس عرب الروم من بطش المسلمين ، وهذا البيت كان يردده بعض جند الروم وهم يشربون ويتغنون :

ألا عللانى قبل جيش أبى بكر　　لعلّ منايانا قريب ولا ندرى(٢)

دمشق : أما المعركة الثانية الحاسمة فى بلاد الشام فكانت حول دمشق ، وقد أحاط المسلمون بالمدينة الباسمة وبالقوطة الجميلة وتحصن أهل المدينة وأغلقوا أبوابها ، ووقف خالد بجنوده على الباب الشرقى ، ونزل أبو عبيدة على باب الجابية ، وعمرو بن العاص على باب توما ، وشرحبيل على باب الفراديس ، ويزيد بن أبى سفيان على الباب الصغير ، وقد دارت مناوشات بين المهاجمين والمدافعين ، كما دارت اتصالات بين المسلمين وبعض الأساقفة بالمدينة المحاصرة ، ودخل المسلمون دمشق من ناحيتين : دخلها خالد من الباب الشرقى قسرا ، ودخلها أبو عبيدة من باب الجابية سلما على أصح الروايات(٣) وكان ذلك سنة ١٤ هـ .

والذى نميل له أن أمير المسلمين وقت حصار دمشق كان أبا عبيدة ، أما خالد فكان قد عزله عمر قبل ذلك فى أذيال معركة اجنادين ، عقب وفاة أبى بكر وتولية عمر الخلافة ، ومما يذكر بالفخر والإعجاب لسيف الله المسلول خالد بن الوليد أنه تلقى خبر عزله وهو فى أوج النصر فى رضا

(١) البلاذرى ١٢٠ – ١٢١

(٢) المرجع السابق ص ١١٨

(٣) انظر البلاذرى ١٢٧ – ١٣٠ .

وقبول ، وأنه استمر يحارب فى جلد وإخلاص تحت إمْرَة القائد الجديد ، وقد سبق أن وقف أبو عبيدة نفس هذا الموقف الرائع عندما طلب منه أبو بكر أن يسلِّم القيادة العامة لخالد ، إنها فى الحقيقة مُثُلٌ إسلامية رائعة ستظل ذكراها عاطرة على مر السنين .

وقد وضَّح عمر سبب عزل خالد وعزل المثنى بن حارثة بقوله : إنى لم أعزلهما عن ريبة ، ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يفتتنوا بهما . ويرى ابن الأثير(١) أن غضب عمر سببه أن خالدا أيَّد إسناد الخلافة لعلى ابن أبى طالب عقب وفاة الرسول ، ويرى بعض المؤرخين أن عزل خالد وتولية أبى عبيدة كان براعة سياسية من عمر . فإن أبا عبيدة كان أكثر مقدرة على المسالمة والإدارة من خالد الذى كانت مقدرته أبرز فى شئون الحرب وميادين القتال .

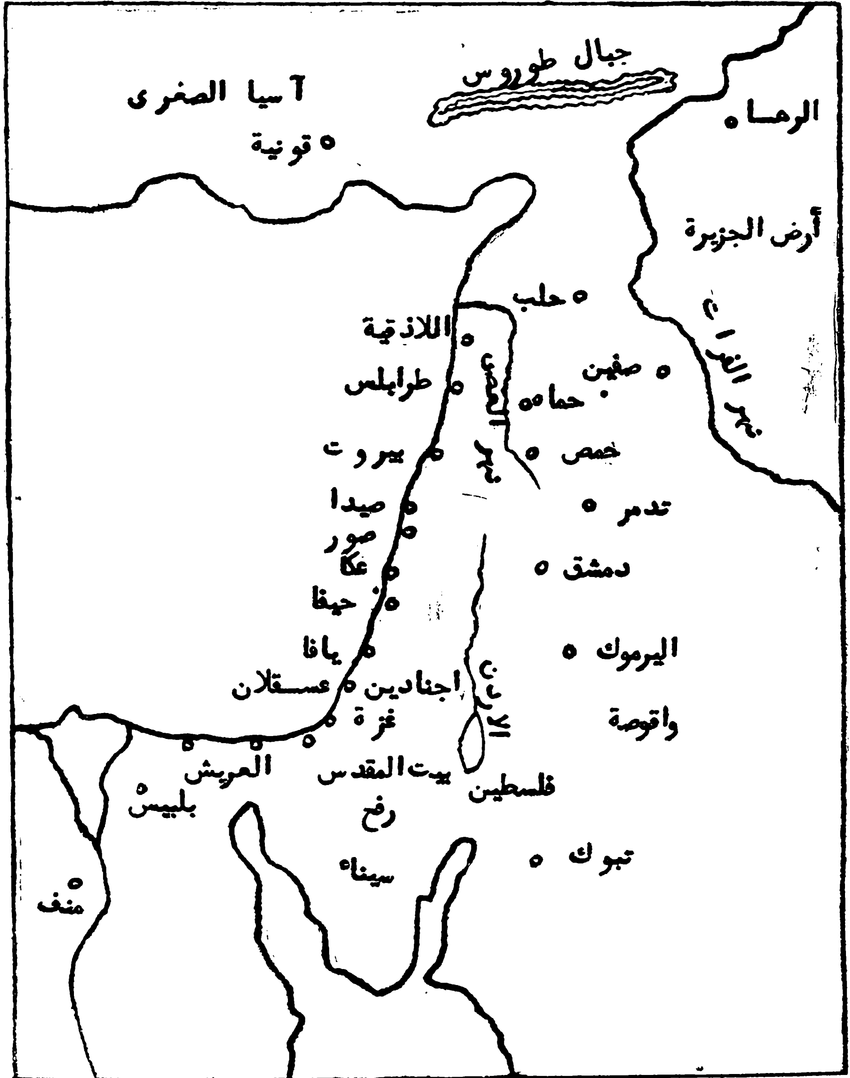
البرموك : وأعد هرقل العدة إلى لقاء فاصل جمع فيه كل قواه ، مصمما على الانتصار على المسلمين أو اليأس عند الهزيمة ، وقد بلغت جموعه مائتى ألف جندى ، وتبالغ بعض الروايات العربية فتصل بالرقم إلى مليون أو مليون ونصف ، وقاد الجيش جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة والقائد الأرمنى ماهان ، وكان جيش المسلمين حوالى أربعة وعشرين ألفاً يقوده أبو عبيدة ، ودارت معركة عنيفة بالقرب من نهر اليرموك وتسلسلت الروم وأتباعهم لئلا يطمعوا أنفسهم فى الهرب ، وقد دارت الدائرة عليهم وفر منهم حوالى سبعين ألفا ، وتشتت الباقون إلى مختلف النواحى ، وكانت نساء المسلمين تخضن المعركة مع الرجال .

ولما بلغ هرقل خبر هزيمة جنده فرَّ من أنطاكية إلى القسطنطينية ويروى أنه ودع سوريا وداعا حزينا فقال : السلام عليك يا سورية ، سلام مودع لا يرجو اللقاء(٢) .

---

(١) الكامل فى التاريخ ٢ : ٢٧٦

(٢) البلاذرى ١٤٠ – ١٤٢



(الخريطة رقم ٦)

الجيش الإسلامى بالشام

تلك هي المواقع الحاسمة التي حدثت في الشام بين المسلمين وبين الروم وخاضتها جيوش المسلمين مجتمعة تحت قيادة واحدة ، ويجدر بنا أن نوضح أن الجيوش الإسلامية كانت تفترق بعد كل انتصار فتتجه اتجاهات مختلفة ، وكانت كل منها تحرز انتصارات محلية[١] . ثم تجتمع كل الجيوش الإسلامية مرة أخرى لمقابلة الجيوش الكبيرة التي كان هرقل يعدها كما سبق .

وبعد موقعة اليرموك انقسم جيش المسلمين قسمين اتجه قسم إلى الشمال بقيادة أبي عبيدة ومعه خالد بن الوليد واتجه قسم آخر إلى الجنوب بقيادة عمرو بن العاص وشرحبيل وبقي يزيد بن أبي سفيان في منطقة دمشق التي كان قد أُرْسل لها من قبل ليحمي ما حققه المسلمون من انتصارات بها .

وقد استطاع أبو عبيدة وخالد أن يستوليا على حمص وحماة وقنسرين واللاذقية وحلب ، واستطاع ابن العاص وشرحبيل أن يستوليا على عكا وحيفا ويافا وغزة وغيرها .

ولم يبق أمام المسلمين إلا بيت المقدس ، وقد دافع عنه الروم والسكان دفاعا شديدا ، أنزل كثيرا من الخسائر بجنود المسلمين ، ولكن جنود المسلمين صبروا . ولعبت الحيلة دورها فقد اتصل المسلمون بالمسيحيين ببيت المقدس ، وكان المسيحيون يعانون المتاعب من حكم الروم ، كما كان المسلمون يعظمون بيت المقدس ولايريدون مواصلة الضحايا من الجانبين ، وأحس أرطيون قائد الروم بهذه المناورات تدور حوله فهرب إلى مصر ، وأدرك المسيحيون ألاّ أمل في انتصارهم على المسلمين فطلبوا الصلح على أن يحضر الخليفة بنفسه ليتسلم المدينة ويتعهد لسكانها بالحرية الدينية ، فكتب عمرو إلى عمر بذلك فحضر عمر وكتب بنفسه كتاب الأمان[٢] .

واتجه عمرو بعد ذلك لمقابلة قسطنطين بن هرقل عند قيسارية ولكن

---

(١) البلاذري ص ١٢٣

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٤٤

عوامل الذعر كانت قد استولت على الأمير الشاب فهرب تاركا جيشه ، وسافر إلى القسطنطينية فى ظلام الليل ، كما هرب أبوه من قبل من أنطاكية إلى القسطنطينية على أثر هزائم الروم .

لقد بذل المسلمون آلاف الضحايا فى حروبهم ضد الروم فى سوريا وفلسطين ، وكانت بذلك هذه الديار غالية عليهم ، فلكل منهم بها دم سال وروح أزهقت .

مصر : ليس بين مصر وبين فلسطين حدود طبيعية ، فإلى أين يقف عمرو ابن العاص فى زحفه نحو الجنوب ؟ وفى مصر كما كان فى فلسطين وسوريا جيش الروم ، ولن يحس المسلمون بالاستقرار فى سوريا وفلسطين ، وهناك جيش كبير على مقربة منهم يتبع عدوهم الحانق عليهم . ومن هنا كان الزحف إلى مصر طبيعيا ، وكانت مصر تعانى ما عانته سوريا وفلسطين من تعسف الروم وظلمهم وطغيانهم ، ثم كانت مصر كالعهد بها دائماً غنية ، درة الشرق ، وأرضها خصبة ؛ ونيلها الخالد ينساب بالخير ، وعلى جانبيه تمتد الرياض والمزارع الفينانة ؛ ولمصر سيرتها المجيدة التى تضرب آلاف السنين فى أعماق التاريخ ، والاستيلاء على مصر إنما هو ضمان لاستقرار الإسلام فى كل هذه البقاع بآسيا وأفريقية التى آذنت بالتحرر من سلطة دولة الروم .

ففتح مصر إذاً كان عملا طبيعيا ، وبدونه ما كانت جيوش المسلمين بفلسطين تنعم بأمن أو استقرار ، ومن هنا لا مجال — فيما أعتقد — لتصديق الروايات التى تشير خلافا بين الخليفة وبين قائده عمرو بن العاص حول الزحف لمصر(٢) ، وما كانت هذه المعارك الضخمة تنشب فى جو من التردد كالذى تُصوِّره هذه الروايات ، وما كان عمرو بن العاص بمستطيع أن يقف

---

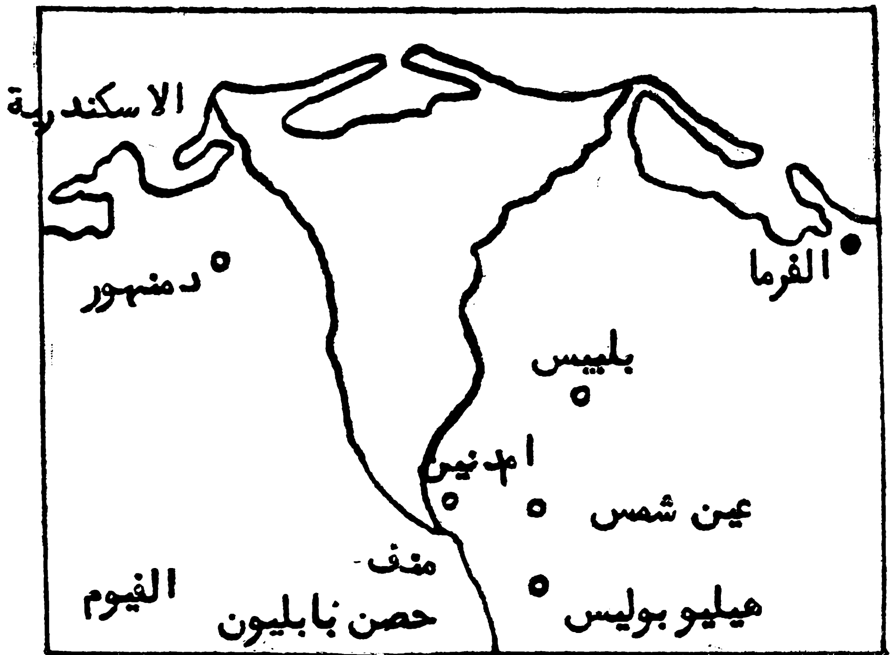
(١) انظر بعض هذه الروايات فى ابن عبد الحكم ص ٥٣ وما بعدها وفى البلاذرى ص ٢١٤ .

من الخليفة العظيم عمر بن الخطاب هذا الموقف الذى تحاول هذه الروايات أن تثبته .

وعلى هذا يبدو لى أن الرأى قد استقرّ بين الخليفة والقائد على فتح مصر ، فسار عمرو مخترقاً صحراء سيناء حتى وصل إلى العريش فاستولى عليها دون مقاومة تذكر ، ثم سار حتى وصل الفرما وكانت تعتبر مفتاح مصر ، وقد حاصرها المسلمون أكثر من شهر ، ولعب المصريون دوراً هاماً فى مساعدة المسلمين ضد الروم حتى سقطت الفرما فى يد المسلمين سنة ١٩ هـ . (انظر الخريطة رقم ٧)

وتقدم المسلمون إلى بلبيس ؛ وكان بها جيش كبير يقوده أرطيون الذى فر من بيت المقدس ، وقد دار قتال كبير حول بلبيس استمر مدة شهر قضى فيه المسلمون على قوة الروم وتسلموا المدينة ؛ ويقال إنه كان بها ابنة المقوقس وهو الحاكم المصرى الذى يعيّنه قيصر الروم ليحكم البلاد باسمه ؛ ولما استولى عمرو على بلبيس أكرم ابنة المقوقس وأرسلها معززة مكرمة إلى أبيها ؛ وكانت تلك سياسة رشيدة ساعدت على تقوية العلاقة بين العرب والمصريين .

وسار جيش المسلمين إلى أم دنين (المقس) ودار حولها قتال عنيف لم يستطع المسلمون الفوز فيه ، فأرسل عمرو يطلب عوناً من الخليفة فأرسل له الخليفة أربعة آلاف فيهم الزبير وعبادة بن الصامت والمقداد بن الأسود ؛ وكتب له يقول « قد أمددتك بأربعة آلاف فيهم رجال الواحد منهم بألف رجل » والتقى جيش المسلمين بجيش الروم وكان تعداده عشرين ألفاً يقوده قائد عظيم اسمه «تيودور» وجرت المعركة عند عين شمس وقد هُزِم فيها جيش الروم هزيمة منكرة كبيرة بسبب التقسيم الرائع الذى اقترحه عمرو إذ قسّم جيشه ثلاثة أقسام قابل الرومَ بقسم منها ، وفى أثناء المعركة هجم القسم الثانى من



(خريطة رقم ٧)

الجيش الإسلامي في مصر

جهة وهجم القسم الثالث من الجهة المقابلة فحوصر جيش الروم ، واختل نظامه وكثرت فيه الضحايا ، وفر منه من فر إلى حصن بابليون .

حصن بابليون : ودخلت سنة ٢٠ هـ ، وكانت أهم معركة يستعد لها الطرفان هى معركة حصن بابليون وقد حاصره المسلمون حصاراً طويلا امتد ستة شهور ؛ ثم بدأت المفاوضات للصلح فأرسل المقوقس وفداً يتحدث باسمه إلى عمرو فاستبقى عمرو الوفد يومين وخيرهم بين :

١ – الإسلام وبذلك يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين .

٢ – الجزية نظير الحماية ونظير الاستمتاع بجهاز الدولة من شرطة وقضاء وغيرهما . .

٣ – الحرب

وعاد رسل المقوقس إليه لا بهذه الثلاثة فقط ، بل بوصف حبّب الإسلام إلى المصريين ، قالوا : رأينا قوما الموت أحب إليهم من الحياة ؛ والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لأحد منهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة ؛ جلوسهم على التراب وأميرهم كواحد منهم ما يُعرف كبيرهم من وضيعهم ، ولا السيد فيهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم .

ورأى المقوقس ضرورة الصلح مع هؤلاء فعقده على الجزية ، فهى أقل كثيرا مما يأخذه الروم من المصريين ؛ ولم يوافق هرقل على هذا الصلح ولكن المقوقس أمضاه .

الإسكندرية : لم يبق أمام المسلمين بعد حصن بابليون من المواقع الهامة إلا الاسكندرية وكانت عاصمة الديار المصرية : وقد سار إليها المسلمون وفتحوا فى الطريق إليها ما قابلهم من حصون ؛ وكانت الاسكندرية منيعة متصلة بالبحر يأتى إليها المدد من القسطنطينية عن طريق البحر ، وبها أكبر حامية للروم بمصر . وقد كانت هذه الظروف سببا فى طول إقامة المسلمين حول

الإسكندرية بل فى ضعف الأمل فى فتحها ، وقد أحس الخليفة عمر بذلك فكتب لعمرو كتابا شديدا يلومه فيه ويلوم المسلمين على ترددهم ، ويذكرهم أنهم إن لم يفتحوا الاسكندرية فإن حياتهم معرضة لخطر هجوم قوى من الروم يقضى عليهم بعد أن تضعف روحهم المعنوية[1] ، ولما تسلم عمرو الكتاب قرأه على المسلمين ، فعقدوا العزم على العمل بإصرار وأمل ؛ وقاموا بحملة قوية على العاصمة أضعفت أمامهم قوى الروم ، وتمكنوا من التسلل إلى داخل الأسوار ، وأعملوا القتل والذعر فى نفوس الجنود فهربوا إلى سفنهم بالبحر وأسر منهم عدد كبير وتقدم المقوقس مرة أخرى فأجرى الصلح مع المسلمين سنة ٢١ هـ على شروط أهمها :

١ — الجزية

٢ — حرية العبادة

٣ — أن ترحل حامية الروم وأن يبقى مع المسلمين رهينة منهم حتى لا يهاجموا مصر مرة أخرى .

وأصبحت مصر تابعت للخلافة الإسلامية .

الغالبون والمغلوبون :

هل كان الفتح الإسلامى انتصارا للعرب وهزيمة للسوريين والمصريين ؟

لعل أدق إجابة هى تلك التى يذكرها الدكتور حتى فى كتابة تاريخ العرب[2] وهى : « كان السوريون والمصريون يعتبرون العرب الفاتحين قوما من بنى جنسهم يربطهم بهم ما لا يربطهم بأولئك الحكام السابقين

---

(١) هذا ما تذكره أكثر الروايات الإسلامية ، ولكن البلاذرى يرى أن القائد استأذن الخليفة فى الزحف إلى الاسكندرية بعد فراغه من حصن بابليون فوافق الخليفة (انظر فتوح البلدان ص ٢٢١) .

(٢) جـ ١ ص ١٩٤ و ١٩٨ .

الذين كانوا من الأجانب الغاصبين ، فالفتوحات الإسلامية من هذه الوجهة هى عند التحقيق انقلاب اجتماعى سياسى استرد به الشرق الأدنى مجده السامى الغابر ، فقد جاء الاسلام مُهيبا بالشرق إلى النهوض من كبوته بعد ألف سنة اجتاحته فيها سطوة الغريب ، فاستطاع الشرق بالإسلام أن يسترجع ماضيه المجيد لا فى ميدان السياسة فحسب بل فى ميدان الثقافة أيضاً حيث تسنى له أن يعيد سيادته الفكرية .

ويمكن القول أن الفرس والمصريين والسوريين رأوا فى الإسلام متنفساً وساحة أنقذتهم من الطغيان والاكراه والاستغلال التى عاشوا تحت ضغطها مدة طويلة ، لقد ضمن الإسلام لهم حرية الأديان وأعفاهم من الأعمال العسكرية نظير دفع جزية ضئيلة إلا من شاء أن يدخل صفوف المدافعين عن البلاد فله أن يدخل ويعفى من الجزية مع بقائه على دينه ، وترك المسلمون الأرض لأصحابها على أن يدفعوا خراجها وهو أقل بكثير مما كان يأخذه الأكاسرة والقياصرة الذين كانوا يعتبرون أنفسهم مُلاكاً للأرض ولرقيق الأرض ، وأمَّن المسلمون الأهلين على أموالهم ونسائهم وأولادهم ، ورأى الأهلون فى المسلمين المساواة التى كانوا لا يحلمون بها ، وقام المسلمون بكثير من الإصلاحات التى تتصل بالقضاء والشرطة والطرق والرى والهندسة والجسور وكان القانون الإسلامى يسرى على المسلمين فقط ، أما غير المسلمين فقد تُرِك الفصل فى شئونهم للقانون المدنى الذى كان معمولا به قبل الفتح ، ووضع أمر تنفيذه فى يد رؤسائهم الدينيين ، وهـــذا هو منشأ استقلال الطوائف الدينية بشئونها المالية ، ذلك النظام الذى ظل سائداً فى البلاد الإسلامية إلى وقت انهيار الدولة العثمانية والذى لا يزال معمولا به فى الشئون المدنية فى معظم ممالك الشرق الأوسط التى لم يوحد فيها القضاء بجعله مدنيا بحتا لا دخل فيه للشريعة(١) .

Kirk : A Short History of the Middle East p. 29. (١)

وفى الوقت نفسه قام الدعاة والفقهاء يتحدثون عن الإسلام وأخلاقه ومبادئه ؛ فلا عجب أن أقبل هؤلاء على الإسلام يعتنقونه ويدينون به ؛ فأخذ الإسلام ينتشر رويداً رويداً وأخذت اللغة العربية أيضا تنتشر ، ومما ساعد على انتشارها نزوح كثيرين من العرب الرحل من البادية وانخراطهم فى غمار حياة الاستقرار بالمدن الغنية[١] المفتوحة حتى كان رجال الكنيسة القبطية فى القرن العاشر يضعون كتاباتهم باللغة العربية لكى يفهمها أتباعهم[٢].

عمر بانى الدولة الإسلامية :

وكانت مهمة الرسول العظمى هى تبليغ الرسالة ، وتعليم المسلمين ما فيه خير دينهم ودنياهم ، أما تبليغ الرسالة فقد قام به صلوات الله عليه خير قيام ، وأما تعليم الناس صلاح أمور دينهم ودنياهم فقد أداه الرسول أداء كاملا ووضع للمسلمين أسس حياة سامية وحل كل المشكلات التى بدت لهم فى عهده .

ولكن الإسلام لم يتجاوز جزيرة العرب فى حياة الرسول ، وحياة العرب بطبيعتها سهلة بسيطة ، فلما امتد الإسلام إلى الشام ومصر والفرس ، ولما اتصل الإسلام بحضارة هذه البلاد قابل الإسلام ظروفاً جديدة : وظهرت مشكلات لم يكن للمسلمين بها عهد ولم تبد هذه المشكلات بطبيعة

---

(١) يرى الدكتور فيليب حتى (تاريخ العرب ١ : ١٠ - ١٤) أن الجزيرة العربية هى مهد الساميين وأن هذه الهجرة التى أشرنا إليها هى آخر هجرات الجنس السامى إلى الهلال الخصيب ومصر وشمال افريقية ، وقبل هذه الهجرة حصلت موجات من الهجرات من الجزيرة العربية حيث اختلط المهاجرون الساميون بالعناصر الأصلية بالبلاد المهاجر إليها وقد بدأت هذه الهجرة قبل الميلاد بعدة آلاف من السنين وتكررت كلما ضاقت الجزيرة العربية بسكانها ؛ وقد كان الفراعنة القدماء نتيجة الامتزاج بين الساميين والحاميين وكان البابليون نتيجة امتزاج الساميين بالسومريين وكان الفينيقيون نتيجة الامتزاج بين الساميين والسكان الأصليين بساحل الشام . هذا ويرجح من جهة أخرى أن هجرات كثيرة جاءت الجزيرة العربية من أواسط إفريقيا عند باب المندب .

(٢) **Kirk : A Short History of the Middle East p. 37 .**

الحال فى عهد أبى بكر ، فقد كان عهده قصيراً ومات رضى الله عنه والنصر لم يكتمل فى الحروب الدائرة بين المسلمين وبين الفرس والروم ، بل أنه قد مات والحروب مع هؤلاء فى مطلعها ومن ثم فعبء المشكلات الجديدة وقع على عاتق الخليفة العظيم عمر بن الخطاب .

وكان عمر ملهما فوُفق أجمل توفيق فى الاستجابة للحياة الجديدة وفى بناء الدولة الإسلامية ، فهو الذى دون الدواوين(١) ، وأنشأ بيت المال ، وصك النقود ، وكوّن جيشا دائما لحماية الحدود ، ونظم المرتبات ، وعين القضاة ، ورتب البريد ، وأنشأ نظام الحسبة ، ووضع التاريخ الهجرى(٢) ، ولم يكتف عمر باقتراح ما دعت له الضرورة من نظم ، بل عدّل فيما وُضِع من قبل عند ما ظهرت ضرورة التعديل ، فهو الذى قرر أن تبقى الأرض المفتوحة فى أيدى أصحابها واقترح لذلك نظام الخراج ، وكان المفروض أن يستولى المحاربون على ما فتحوه عنوة ، وهو الذى أعاد النظر فى نصيب المؤلفة قلوبهم ووضع شروطا لمن يستحق هـذا النصيب ، وغير ذلك من الأشياء .

لقد ملأ محمد الدنيا نورا بدين الإسلام ، وأوشك هذا النور أن يخبو بعد وفاته فى خضم الأحداث العاتية ، فحفظته همة أبى بكر ، ثم جاء عمر فزيّن البناء الشامخ وأمدّه بأروع النظم وأحسنها ، ولا زال العالم الإسلامى يعيش حتى اليوم وأعظم النور الذى يستمتع به مصدره الرسول الكريم وصاحباه العظيمان .

مقتل عمر :

قتل عمر بن الخطاب فى مؤامرة دبرها بعض أعداء الإسلام من الفرس واليهود ونفذها أبو لؤلؤة النصرانى ، وهو فارسى أُسِر فى نهاوند وأصبح مِلْكا للمغيرة بن شعبة ، ومن الواضح أن عمر أزال ملك الفرس وقضى

(١ و ٢) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٧٧

على سلطانهم ، ولهذا كانت الطبقة العليا من الفرس هى وأتباعها تحقد على عمر وتعمل على الإيقاع به ، وقد تسلل القاتل إلى المسجد وعمر يبدأ فى صلاة الفجر ولم ينتشر النور بعد ، فطعن الخليفة بخنجر عدة طعنات أحداها تحت سرته فخرقت أمعاءه ، وصاح عمر فأقبل المسلمون يقبضون على القاتل ، فانهال عليهم طعنا حتى قتل وجرح عددا منهم ، ثم استطاعوا القبض عليه فطعن نفسه وانتحر .

ومات الخليفة العظيم بعد ذلك ببضعة أيام تاركا أعظم الذكريات ومخلفا سيرة من أعظم السير التى يرويها التاريخ .

وكاد سر الجريمة ينطوى بموت القاتل ، ولكن شعاعا من الضوء ظهر فأوضح المؤامرة ، فقد ذكر عبد الرحمن بن أبى بكر أنه رأى فى اليوم السابق لطعن عمر ثلاثة يتهامسون هم الهرمزان وهو سيِّد من سادة الفرس ، فقد سلطانه ومكانته وأصبح يعيش بين عامة الناس بعد أن فقد الأمل فى استرجاع نفوذه ، وجُفَينة وكان نصرانيا من أهل الحيرة يعلم الكتابة بالمدينة وأبو لؤلؤة . ويقول عبدالرحمن أن المتآمرين فوجئوا به فارتبكوا وسقط منهم خنجر له رأسان ، ولما رأى عبد الرحمن الخنجر الذى طعن به عمر قرر أنه نفس الخنجر الذى رآه أمس . وكان ذلك سببا فى أن عبيد الله بن عمر حمل سيفه بعد موت أبيه وقتل الهرمزان وجفينة وابنة صغيرة لأبى لؤلؤة[1] .

---

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٣٠٣ .

عثمان بن عفان

٢٣ — ٣٥ هـ (٦٤٤ — ٦٥٦)

تعريف به :

هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية ، ولد بعد ميلاد الرسول بخمس سنين ، ودخل الإسلام على يد أبى بكر الصديق ، وكان من كبار الأثرياء قبل الإسلام وبعده ، وكان سخيا جدا فى بذل المال لخدمة الإسلام ، ففى جيش العسرة أمد المسلمين بمئات من الأبل بأقتابها وعدتها وعدد من الخيول وألف دينار كما سبق القول ، وفى مناسبات أخرى كثيرة كان يعطى من ماله بدون حساب لخدمة الإسلام ومساعدة المسلمين .

وعثمان من المبشَّرين بالجنة ، وقد أثر عن الرسول قوله . لكل نبى رفيق ورفيقى فى الجنة عثمان ، ولقوة صلته بالرسول زوَّجه الرسول من ابنته رقية فلما ماتت فى أثناء غزوة بدر زوجه الرسول بابنته الثانية أم كلثوم وقد بقيت معه حتى ماتت فى السنة التاسعة للهجرة ، ولذلك يسمى « ذا النورين » ، وقد أثر عن الرسول أنه قال له بعد موت أم كلثوم : لو أن لنا ثالثة لزوجناك .

وقد مر بنا أن عثمان كان سفير الرسول لقريش وقت الحديبية ، وهذا يدل على علوِّ مكانته ، وكانت سفارته ناجحة .

تولية الخلافة :

عند ما طعن عمر لم يكن فى نيته أن يولى خلفا له . فالظروف التى دعت أبا بكر أن يعين خلفا له قد زالت إذ انتصرت جيوش المسلمين واستقرت

الأحوال . ولكن المسلمين خافوا الفرقة بعد موت الخليفة فعرضوا على عمر أن يعين خلفه . وقد أثر عنه قوله : إن أستخلف فقد استخلف من هو خير منى (يقصد أبا بكر) ، وأن أترك فقد ترك من هو خير منى (يقصد الرسول صلوات الله عليه) . ويبدو لنا من دراسة هذه الفترة أن عمر كان مترددا ؛ فهو لا يريد أن يتحمل مسئوليات الناس بعد موته . ولا يريد فى الوقت نفسه للمسلمين الفرقة بعده ؛ ولذلك نجده يقترح طريقا وسطا بين التعيين وعدم التعيين فيعين الستة المبشرين بالجنة ، وهم خيرة المسلمين ، ولن يكون الخليفة بطبيعة الحال إلا منهم ؛ ويطلب من هؤلاء الستة أن يختاروا من بينهم الخليفة بعد استشارة المسلمين ؛ وهؤلاء الستة هم :

عثمان — على بن أبى طالب — طلحة بن عبيـد الله — الزبير بن العوام — سعد بن أبى وقاص — عبد الرحمن بن عوف .

ويضم عمر إليهم ابنه عبد الله ليكون له رأىٌ فى الاختيار على ألاّ يُختار هو للخلافة ، وحدد عمر ثلاثة أيام تنتهى المشاورة خلالها .

ومات عمر واجتمع هؤلاء للمشاورة فاقترح عليهم عبد الرحمن بن عوف أن يُخرج أحدهم نفسه ويتولى الذى يخرج مشاورة الناس واختيار الخليفة من بين الخمسة الآخرين ، فقبلوا ذلك المبدأ ، ثم عرض عليهم استعداده ليكون ذلك الشخص فقبلوا وعاهدوه على ذلك وعاهدهم على الحق والعدل ، واستشار عبد الرحمن الخاصة والعامة واستشار المرشحين ، فوجد أن الإجماع يكاد يكون منعقداً على عثمان أو على ، فانحصرت الخلافة فيهما فاختار عثمان لكبر سنه وسهولة طبعه .

وأول قضية بحثها عثمان هى قضية عبيدالله بن عمر الذى قتل الهرمزان وجفينة وابنة صغيرة لأبى لؤلؤة كما سبق ، وقد اختلف رأى المسلمين فى هذه القضية فقال بعضهم بوجوب قتل عبيد الله ، ورأى آخرون أن من الصعب قتل عمر أمس

وقتل ابنه اليوم ، وتخلص عثمان من هذه المشكلة بأن حكم بالدية لأهل القتلى وتحمل الدية من ماله(١)

الحركات العسكرية :

تتلخص الحركات العسكرية فى عهد عثمان فى ناحيتين :

١ – القضاء على التمرد والثورات التى قامت فى بعض النواحى التى دخلها الإسلام فى عهد عمر .

٢ – استمرار التوسع الإسلامى فى الميادين المختلفة التى انتهى عندها التوسع الإسلامى فى عهد عمر .

ونتكلم فيما يلى كلمة موجزة عن كل من هاتين الناحيتين :

١ – القضاء على التمرد والثورات : بعد موت عمر بن الخطاب تمردت بعض الولايات على الحكم الإسلامى بسبب وجود بعض أنصار الحكم السابق ، أو بسبب محاولات قام بها الحكام السابقون ليستردوا سلطانهم ، وكانت أهم الانتفاضات فى خراسان والإسكندرية ، وقد قام بثورة خراسان أنصار الحكم السابق ، وأما الإسكندرية فقد هاجمها الروم بجيش كثيف يقوده بطل أرمنى كبير اسمه مانويل ، وقد استطاع عثمان أن يقضى على الثورتين قضاء حاسما ، إذ أرسل لكلٍّ جيشا كبير العدد والعدة ، فأعاد البلاد إلى الطاعة وقضى على الثائرين أو المهاجمين .

٢ – التوسع الإسلامى : شمل التوسع الإسلامى تقريبا كل الميادين التى كانت الجيوش الإسلامية قد وصلت إليها فى عهد عمر . وزاد التوسع من الناحية البحرية إذ أصبح للمسلمين بحرية فى عهد عثمان ، وعلى ذلك فقد انضم إلى الدولة الإسلامية برقة وطرابلس غرب(٢) مصر ، وانضم لها

(١) الخضرى : تاريخ الأمم الإسلامية ٢ : ٢٥

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٢٥ – ٢٢٨

جزء من بلاد النوبة[١] فى الجنوب وانضمت لها بلاد أرمينية[٢] وأجزاء من بلاد طبرستان وهى المنطقة الجبلية جنوبى قزوين[٣]، وتخطت جيوش المسلمين نهر جيحون ودخلت بلادُ ما وراء النهر فى الدولة الإسلامية، فاستولى المسلمون على بلخ وهراة وكابول وغزنة من بلاد الأتراك[٤].

وعن طريق البحرية الإسلامية دخلت قبرص فى إطار الدولة الإسلامية وقد قام بغزوها معاوية أبى سفيان سنة ٢٨ هـ[٥]، ومن أهم المواقع البحرية موقعة ذات السوارى، وقد حدثت سنة ٣١ هـ فى البحر الأبيض المتوسط بالقرب من الإسكندرية بين جيش الروم يقوده ملكهم قسطنطين وبين عبد الله بن أبى سرح والى مصر، وسميت «ذات السوارى» نسبة إلى سوارى البواخر التى اشتركت فيها، ويقال إنه اشترك فيها ألف سفينة منها مائتان للمسلمين والباقى للروم، وقد كسب المسلمون النصر فى هذه الموقعة. (انظر الخريطة رقم ٨).

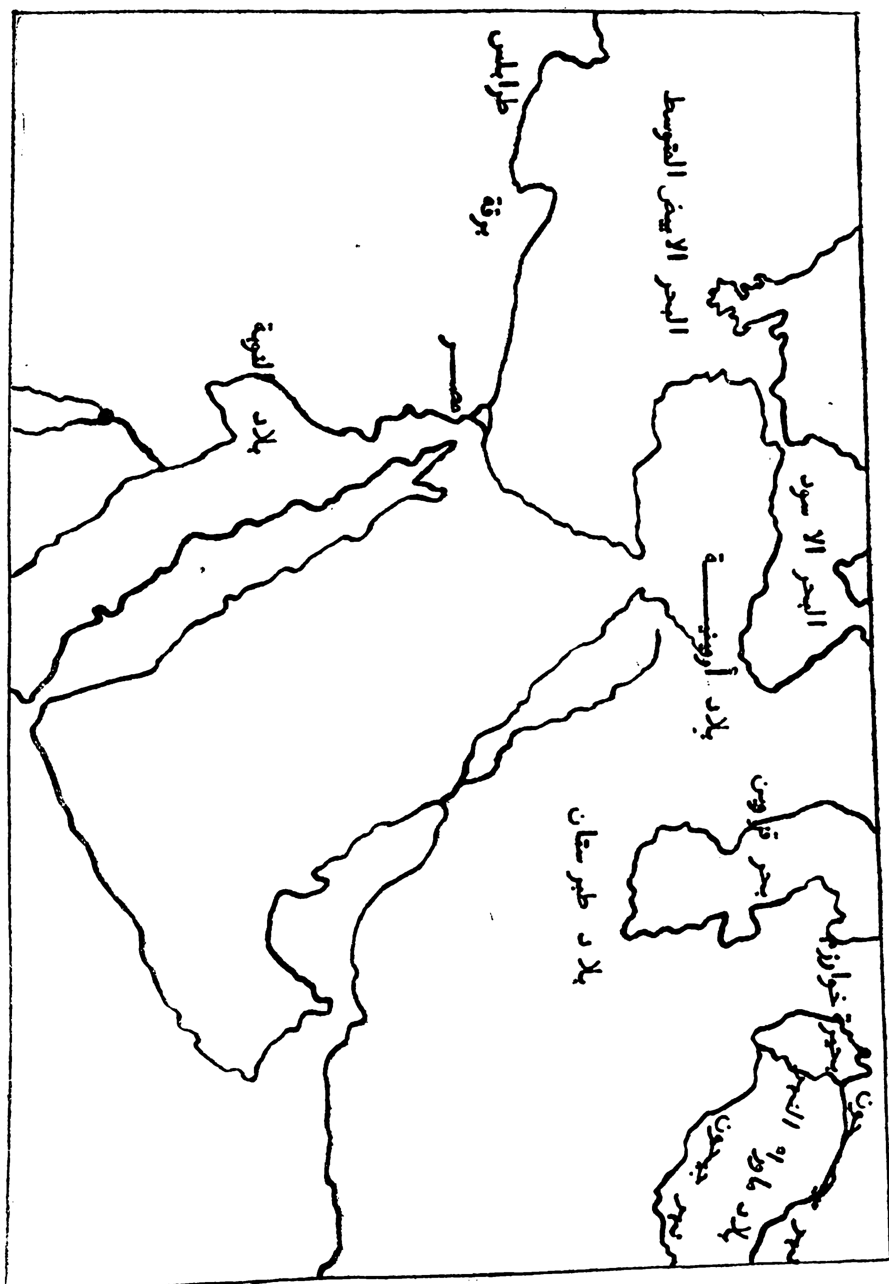
نهاية عثمان :

أن دراسة الفتنة التى أدت إلى قتل عثمان عمل واسع. خصصه كثير من الباحثين بدراسات مستقلة ممتازة، وسنحاول هنا إيجاز الموضوع فى غير إهمال.

من الواضح أن بنى أمية كانوا فى أول الأمر أعداء الإسلام، وهم الذين قادوا الجيوش عدة مرات للقضاء عليه، ثم استسلم بنوا أمية ودخلوا الإسلام عند فتح مكة ولما مات الرسول صلى الله عليه وسلم لم يطمع بنو أمية

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٣٨ — ٢٣٩
(٢) انظر فتوح أرمينية فى البلاذرى ص ١٩٧ وما بعدها
(٣) المرجع السابق ص ٣٣٠
(٤) المرجع السابق ٣٩٨
(٥) المرجع السابق ص ١٥٧ — ١٥٨



اتساع الدولة الإسلامية فى عهد عثمان

(خريطة رقم ٨)

فى الخلافة لقرب عهدهم بالإسـلام ولموقفهم العدائى منه مدة طويلة ، ولكن الأحداث التى مر بها الإسلام خلال خلافة أبى بكر وعمر أتاحت الفرصة لبنى أمية ليعوّضوا مافاتهم ، فلمعت أسماء قادة مغاوير منهم فى حروب الردة ، والمتنبئين ، وفى الحروب ضد الفرس والروم ، ومن هؤلاء يزيد بن أبى سفيان ومعاوية ، وهند أم معاوية التى كانت تخضوع مع الرجال موقعة اليرموك(١) ، وبهذا استعاد بنو أمية مكانتهم ، وبالتالى طمعوا فى الحصول على الخلافة .

وعندما مات عمر كانت هناك أسرتان كبيرتان تطمعان فى هذه الخلافة هما أسرة بنى هاشم وأسرة بنى أمية . وكان بنو هاشم أقدم طمعاً فى الخلافة من بنى أمية . فقد كان علىّ يراها حقا له عقب وفاة الرسول ، ولكن المسلمين لم يستجيبوا له حينذاك إذ رأت أغلبيتهم أن الخـلافة لو أسندت إلى هاشمى لأصبح من المتعذر إخراجها من بنى هاشم .

وانتهت المشورة بعد موت عمر كما قدمنا إلى واحد من اثنين : عثمان وعلى ، أو بعبارة أخرى إلى بنى أمية أو بنى هاشم ، وهنا أوشكت أن ترجح كفة بنى هاشم لكن عاملين كبيرين ظهرا فرجحا كفة بنى أمية ، وهذان العاملان هما :

أولا — أن الأمل فى إمكان إخراج الخلافة من بنى أمية كان أقوى من الأمل فى إخراجها من بنى هاشم .

ثانيا — شدة عمر وصرامته جعلت الناس يرغبون عن علىّ حتى لا تمتد الشدة والصرامة ، ويميلون إلى عثمان حيث الدعة واليسر والتسامح .

ولنترك بنى أمية الآن لنسير مع عثمان فى خلافته ، فنقرر أن عثمان تولى فى ظروف يمكن تلخيصها فى أن الناس كانوا فريقين ؛ فأحدهما لا يرضى عن عثمان ولا يزكيه ، والفريق الثانى يؤيده لا تقديرا له بل طمعا

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٤١

فيه . ومن هنا يبدو الوضع الحرج الذى وُضعَ فيه عثمان من أول الأمر .

ثم إن عثمان كان قد أتمَّ السبعين من عمره عند ما تولى الخلافة ، وتلك سن تؤذن بالزوال .

وجاء عثمان بعد عمر أو قل جاء اليسر بعد الصرامة ، والتردد بعد العزيمة القوية ، فانفلت المكبوت وانطلق السجين وأقدم الخائف .

ومن اجتهاد عمر أنه منع كبار الصحابة من مغادرة المدينة إلا بإذن ولأجل محدود ، فلما تولى عثمان لم ير ما رآه عمر أو عجز عن أن ينفذه ، وكان هذا مطلع تشتت أدركه عمر ببصيرته النافذة ، فإن كل واحد من كبار الصحابة سافر إلى جهة واتخذ له مستقراً فيها ، وراح يتحدث عن مواقفه مع الرسول وكفاحه من أجل الإسـلام ، والتف به معجبون كثيرون ، كما التف حوله أيضاً الطامعون ، وتفرقت الأمة وأصبح كل واحد من هؤلاء يمثل مَلِكاً له مظاهر العظمة وكثير من الأتباع .

وبدأ الغنى يظهر فى العالم الإسلامى فى أخريات عهد عمر ، والغنى وسيلة للبذخ والشيطان ، إن لم تكن هناك رقابة شديدة وتوجيه رشيد ، وبموت عمر ماتت الرقابة وتوقف التوجيه فظهرت الآثام وانتشرت الشرور .

وبدأ الخليفة نفسه يعمل أشياء لم يعملها سابقوه ، أشياء رآها بعض المسلمين أخطاء ورآها عثمان صواباً أو ضرورة وكانت هذه الأعمال هى الشرارة التى انطلقت منها الفتنة العارمة ، وأحب قبل أن أذكر هذه الأعمال أن أعيد أن عثمان لم يقم بها ارتجالا أو استهانة وإنما قام بها عن فلسفة وفِكْرٍ واجتهاد هداه إلى أن من حقه أن يقوم بما قام به ، وهذا يخفف من ذنب عثمان إن كان فى هذا العمل ذنب ، أو ربما جاز لنا أن نقول إن هذا ربما لا يلحق به ذنباً إن رأى سواه أن طبيعة ما قام به مما يستدعى الذنوب .

وفلسفة عثمان هذه يمكن أن نجعلها ذات شقين ، فشق منها يتصل بسياسته فى ناحية الحكم وشق يتصل بسياسته فى الناحية الاقتصادية .

أما فلسفة عثمان فيما يتعلق بالحكم فيمكن تلخيصها فى أن سن عثمان كانت متقدمة منذ تولى الخلافة كما سبق القول ، وهو لذلك كان أكثر من أبى بكر وعمر حاجة لمن يساعده فى حمل أعباء الحكم ، ثم أن عثمان من أسرة كبيرة كما قلنا آنفاً ولكثيرين من أفراد أسرته مكانة مرموقة فى الحياة العربية والإسلامية وكان منهم قادة وأمراء من قبل عهد عثمان .

وبمرور الزمن وتقدم عثمان فى السن أكثر من ذى قبل زادت حاجته إلى من يركن إليه ، ورأى عثمان أن يعتمد فى العاصمة وخارجها على أقاربه فهم موضع ثقته وهم أحرص على إعانته والإخلاص له ، ثم أن كفاءتهم لا ينكرها أحد ، ومكانة بنى أمية بين العرب ليست موضع شك ، ولذلك ولاهم عثمان واستكثر منهم ، فالكوفة كانت للمغيرة بن شعبة فنقل ولايتها إلى سعيد بن العاص ، وكانت حمص إلى عمير بن سعد فانضمت إلى معاوية والى دمشق ومصر كانت لعمرو بن العاص فنقلت إلى عبد الله بن أبى سرح أخى عثمان من الرضاعة وهكذا .

على أن هؤلاء الولاة الجدد فى الحقيقة غير مطعون فى كفاءتهم كما دافع بذلك عثمان عن نفسه ، ولكنى أحس على كل حال أن هؤلاء الولاة لم يعودوا يخافون الخليفة كما كان ولاة عمر يخافونه ، وبخاصة إذا كان الوالى من بنى أمية وفى دار الخلافة مروان بن الحكم وهو من بنى أمية أيضاً ، وكان عثمان قد اتخذه مشيره ومدبره وأعطاه خاتمه .

تلك هى فلسفة عثمان فى ناحية الحكم ، ميل لتولية أقاربه لثقته فيهم ، ولأمنه جانبهم ، واطمئنانه إلى مساعدتهم .

أما فلسفة عثمان فيما يتعلق بالاقتصاد فيمكن تلخيصها فى أن عثمان كان من قبل غنياً جداً وسمحا جداً ، كان يعيش فى رخاء ، وكان مبسوط اليد لا يعرف البخل طريقه إليه ، وكان يملك ما يوسع به على نفسه وما يعطيه للآخرين ، ثم أفنى ماله كله فى الإنفاق والعطاء وفى سبيل الله ، لكنه وجد

أمامه بيت المال فأخذ منه لنفسه وأعطى منه أقاربه وسائليه ، وأسرف أحياناً – كما تروى بعض الروايات – فى الإنفاق وفى العطاء ، ونسى أنه فى هذه المرة ينفق ويعطى مما لا يملك .

وحجة عثمان فى ذلك أنه كان قبل الإسلام ذا مال كثير وتجارة واسعة ولو أنه استمر يرعى ماله وتجارته لدام ثراؤه فاكتفى وأعطى ذويه ، وأن شئون المسلمين وشئون الخلافة هى التى ذهبت بهذا الثراء بين منح للمسلمين عند حاجتهم وبين انشغال عن توجيه التجارة وإدارة المال ، ورأى عثمان أن من حقه – والحالة كما وصفنا – أن يتسع له بيت المال حتى لا يعيش فى عسرة ، أو حتى لا يدع أقاربه فى عسرة ، وإذا كان أبو بكر وعمر لم يفعلا ذلك فقد تركا حقهما وهذا لا يرغمه أن يترك حقه ، أو قل إنهما لم يكونا فى السعة التى كان فيها عثمان ولم يتكفلا بأقاربهما كما تكفل عثمان(١) .

على أن عثمان عندما أعطى المسلمين فى غزوة تبوك أو فى غيرها كان مانحاً ولم يكن مُقْرِضاً ، فهل له الحق أن يسترد من بيت المال بدل ما منحه لإعلاء كلمة الله ؟ ويجيب عثمان بأنه لا يأخذ بدلا وإنما يأخذ حاجته نظير تفرُّغه للخلافة المسلمين . ولكن حاجة عثمان لنفسه ولذويه كانت أكثر مما تعوده المسلمون .

وبدأت الثورات همساً ، ثم ارتفع الهمس ، وأحس الخليفة أن الفتنة بدأت تظهر ولكن الخليفة أصرَّ على ألا يُشْعِل هذه الفتنة واتسع لها حلمه وحياؤه ، وفى ظل هذين الخلقين نمت الفتنة غير خائفة من بطش الخليفة أو من انتقامه ، وكان عثمان يثور أحياناً ولكنها ثورة الضعيف لا تلبث أن تموت ، وهى تضر فى فورتها وتضر فى هدوئها .

وسارت الأمور فى السنوات الست الأولى من خلافة عثمان مدفوعة بالقوة التى بذلها ابن الخطاب ، وظل الضوء الذى أشعله عمر ينير للناس ،

---

(١) انظر طه حسين : الفتنة الكبرى «عثمان» ١٩٠ – ١٩١

ولكن الخليفة الجديد لم يمد المصباح بالزيت ؛ فلما أوشك الزيت أن يجف بدأ الظلام يدخل ، وبدأت الدولة تهتز ، وليس معنى هذا أن أعمال عثمان التى سببت حنق الناس وغضبهم لم تظهر إلا بعد ست سنوات ؛ لا ، فقد ظهرت منذ اللحظات الأولى ، ولكنها كانت أشبه بالمرض يدب فى الجسم السليم فيقاومه الجسم ، ولا يبدو عليه الضرر ويظل المرض يشتد ما دام المريض لا يجد علاجاً حتى تضعف الصحة وينهار المريض ، وهكذا جاءت السنوات الست الثانية ، وقد بدأت الدولة تهتز وتنحدر إلى الهاوية ، وتقدم الناصحون للخليفة الشيخ يطلبون منه الاعتزال والراحة ولكن الخليفة صاح بهم قائلا : كيف أخلع لباسا ألبسنيه الله تعالى ؟

واشتعلت الثورة ضد عثمان ، وبدأ منظموها الكوفة والبصرة ومصر يعلنون ما كانوا من قبل يضمرون ، وظهر مع الثائرين أعلام من الصحابة أنكروا بعض تصرفات عثمان ، فأسرع ابن سبأ وهو الزعيم الحقيقى للثورة فاجتذبهم أواجتذب آراءهم إليه ، لتقوى بهم حجته ، وترجح كفته ، ومن هؤلاء الصحابة أبو ذر الغفارى وعمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود .

وعبد الله بن سبأ هو الشخص الذى نقل الثورة من الكلام إلى العمل ، ولم يكن ابن سبأ مخلصاً فى حركته ، فقد كان يهودياً ادّعى أنه دخل الإسلام ، ولم يكن يضمر للإسلام ولا للمسلمين خيراً ، فانتهز هذه الفرصة ليشعل الفتنة وينزل بالعالم الإسلامى نارا ظلت متأججة عشرات السنين .

من الممكن أن يخطئ شخص أو يزل ، ولكن لإصلاح الخطأ طرقاً كثيرة عندما تحسن النية ، وابن سبأ كان أبعد ما يكون عن حسن النية ؛ فقد طاب له أن يجد أخطاء عثمان ليجعلها سبباً لهوة ينزلق فيها الإسلام والمسلمون .

ونجح ابن سبأ فى الخطة التى وضعها ، ونجده — ليضمن النجاح —

يقوم بالدعوة لعلى ، ونشر مذهب الوصاية ، أى أن عليا وصىُّ محمد كما أن لكل نبى وصيا ، وأن علياً خاتم الأوصياء كما كان محمد خاتم الأنبياء ، وأيد رأيه بأحاديث وضعها ، كما أشاع نظرية الحق الإلهى ، وهى نظرية فارسية عبرت مع الفرس إلى اليمن موطن ابن سبأ إذ كان الفرس يحتلون اليمن قبل أن يدخلها الإسلام ، ومغزى هذه النظرية أن عليا هو صاحب الحق الأول فى الخلافة .

وأثار ابن سبأ الشبهات ، وجمع حوله أنصاره ، كما جمع الساخطين على عثمان ، وزحف الثائرون إلى المدينة من الكوفة والبصرة حيث كان ابن سبأ قد وجد مرعى خصباً لمبادئه بين أتباع على ومحبيه ، وزحف ثائرو مصر كذلك حيث كان ابن سبأ يعيش فى ذلك الوقت وحيث وجد الوسيلة لإثارة المصريين ضد عبد الله بن أبى سرج وإلى عثمان وأخيه من الرضاعة .

وفى المدينة التقت هذه الجموع الساخطة ، ولكن عليا تصدى لهم ، وشرح لهم أن أى اعتداء على الخليفة هو إضعاف للإسلام وتفريق للمسلمين كما أن عثمان دافع عن نفسه دفاعا مقبولا ، وظهرت الآمال بأن الأحوال ستصلح ، فقفل الثائرون راجعين .

وأدرك ابن سبأ أنه هزم وأن الفرصة التى عمل لها سنوات أوشكت أن تضيع ، ولذلك أعمل الحيلة ودبر أمره ، فيُرْوى أن الثائرين رأوا رجلا يمشى على بُعْدٍ منهم وأنه يحاول أن يختفى عنهم ، فشكُّوا فى أمره فلحقوا به وقبضوا عليه وفتشوه فوجدوا معه خطابا عليه خاتم عثمان ، وفى الخطاب أمر لوالى مصر أن يقتل هؤلاء الثائرين ويقتل معهم محمد بن أبى بكر(١) الذى كان من زعمائهم ويمثل بجثث الجميع وهكذا أصبحت المسألة فى نظر الثائرين دفاعا عن النفس لأنهم أدركوا أن دماءهم مباحة ، فعادوا أدراجهم

---

(١) يقول بركلمان أن محمدا هذا هو ابن أبى حذيفة وينسب إلى أبى بكر بالتبنى (تاريخ الشعوب الإسلامية ١ : ١٣٥) وقد كان محمد هذا من أشياع على لأنه تربى فى بيته إذ تزوج على بأمه بعد موت أبى بكر .

إلى المدينة ، وواجهوا عثمان بالأمر ، فأقسم أنه لم يكتب الكتاب ، ولا أمر به وليس له به علم ، فطلبوا منه أن يسلمهم حامل خاتمه أو يقتص منه ، فأبى ، وقال إن حامل الخاتم لا يعمل هذا أبداً ، وأن أبناء السوء قلدوا خاتمه وزوّروا عليه هذا الخطاب .

ولست أستبعد أن يكون هذا الخطاب حيلة دبرها ابن سبأ ليعيد إلى ثورته الحياة بعد أن أوشكت أن تموت .

ولم يعد للنقاش مجال ، ولم يعد فى طاقة على بن أبى طالب وأمثاله أن يقوموا بأى دور للوساطة ، ولم يعد الثائرون مستعدين لأية تسوية لا يكون فيها دم الخليفة أو اعتزاله ، وأحاط الثائرون ببيت عثمان وحاصروا الخليفة .

ما موقف كبار المسلمين من الدفاع عن عثمان ؟ وما موقف بنى أمية من ذلك ؟

يروى لنا التاريخ أن بعض كبار المسلمين هجروا المدينة فى الفتنة وأن بعضهم اعتزل الفتنة خوفا منها ولزم داره ، ولكن كثيرين من شباب المسلمين وقفوا بباب عثمان يحرسونه ويذودون عنه وكان فى هؤلاء الحسن والحسين وعبد الله بن الزبير .

أما بنو أمية فإن موقفهم يحيط به بعض الغموض ، لقد كان معاوية يدرك ما سوف ينزل بابن عمه الخليفة فعرض معاوية على عثمان أن يذهب معه للشام فامتنع وآثر أن يبقى فى صحبة الرسول وصاحبيه ، فعرض عليه أن يرسل له حرسا فأبى وقال لاأريد أن يشاركوا أهل المدينة زادهم وقوتهم ثم تأزمت الأمور بعد ذلك ولكن معاوية لم يسرع لنجدة الخليفة ، وقتل عثمان قبل أن تصل للمدينة القوة الصغيرة التى أرسلها معاوية فعادت أدراجها من منتصف الطريق[١] ، وأوضح تعليل لموقف بنى أمية أنهم ظنوا أن تدخلهم سينقل الخلاف من دائرة إلى دائرة ، سينقله من خلاف بين المسلمين

---

(١) بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ج ١ ص ١٣٧

وخليفة المسلمين إلى خلاف بين المسلمين وبنى أمية ولم يكن بنو أمية بطبيعة الحال يريدون ذلك .

على أن عثمان استطاع أن يرسل إلى الحُجاج فى موسم الحج الذى عُقد وهو محاصر يطلب عونهم فتحركت شهامة الكثيرين للدفاع عن الخليفة ، وكانت هناك جنود قد بدأت تزحف للمدينة لإرغام المحاصِرين على فك الحصار ، فأدرك الثائرون أن الفرصة أوشكت أن تفلت من أيديهم ، فتسوروا الدار بعد أن حاصروها اثنين وعشرين يوما وهجموا على الخليفة وهو يقرأ القرآن وضربه الغافقى بحديدة كانت فى يده وضربه آخر بالسيف ولما حاولت زوجته أن تدافع عنه قُطعت أصابعها وهى تتلقى عنه الضربات .

وخر الشيخ فكان مصرعه بابا لفتنة شعواء دفع المسلمون عنها آلافا من أرواح الشباب الذين لا ذنب لهم ولا جريرة .

علي بن أبي طالب

٣٥ — ٤٠ هـ (٦٥٦ — ٦٦١ م)

تعريف به :

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب ، ابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة ، وهي البنت الوحيدة من نسل الرسول التي أُعقبت وعن طريقها وُجدت ذرية محمد حتى العهد الحاضر .

وقد سبق لنا أن قلنا إن أبا طالب كفل محمدا بعد موت جده عبدالمطلب ، فلما كبر محمد أراد أن يسدد هذا الدين لعمه ، فأخذ عليا ليربيه ، وبخاصة إن أبا طالب كان كثير الأولاد ، وأن مكة أصابها جدب ، فمست الضائقة حياة أبي طالب .

ولما بُعث محمد كان علي صبيا فآمن به ، ولذلك يقال إن عليا أول من آمن من الصبيان ، وبات علي في فراش الرسول ليلة الهجرة مع علمه بأن الموت يطوف حول هذا الفراش ، ويوشك أن ينزل بمن ينام فيه .

وقد رضع علي آداب الإسلام منذ الصبا ، وكان في الفصاحة بالغا الغاية ، ولعله كان الراوية الأول لأحاديث الرسول ، وكان في العلم سباقا لا يشق له غبار ، أما شجاعته فكانت مضرب الأمثال ، وقد رأيناه في الطليعة دائما في جميع غزوات الرسول ، ولا تكاد تخلو غزوة من علي مصارعا ومبارزا غير هياب للموت ، ولا مقيما للحياة وزنا ، وطالما كسب بسيفه النصر للمسلمين ، ويبدو لي أن بطولة علي والدماء التي سفكها مدافعا عن الإسلام وراداً عنه مهاجميه ؛ أورثته كثيرا من الأعداء ؛ فقد كانت هناك جراح في قلوب الكثيرين من الطعنات القاتلة التي وجهها علي إلى أبطال منهم

تقدموا مزهوين ببطولتهم ؛ معارضين للإسلام فلاقوا مصرعهم على يده كرم الله وجهه .

وأخلاق على ؛ زهده ، ووفاؤه ، وعدله ، وسماحته ، وصفاء نفسه ، تجعله ثالث ثلاثة أخذوا عن الرسول العلم والخلق والروح ، فكان أبو بكر وعمر وعلى مشاعل ينبعث ضوؤها فى كل اتجاه .

بيعة على :

يمكننا من الدراسة السابقة أن نستنبط أن عليا لم يكن مرغوبا فيه ، فقد كان علىٌّ غُرَّةَ بنى هاشم ، وكان يطالب بالخلافة باسمِ القرابة من الرسول ، ومعنى هـذا أن إسناد الخلافة إليه يعنى أن تظل الخلافة فى بنيه ، وهذا مبدأ لا يقره الإسلام ولا تقبله العرب ولا يرتضيه الطامعون ، وكان لعلىّ ـ كما قلنا آنفا ـ أعداء كثيرون يكتمون العداوة أو يظهرونها ، لأنه الذى قتل بسيفه زهرات الشباب فى الغزوات المتعددة ، وكان حكم علىّ معناه العودة إلى حكم عمر فى صلابته وحزمه ، وقد وَجَدَ كثير من الناس الراحة فى سهولة عثمان ، فكيف لهم بالعودة إلى الدقة والصرامة والحساب ؟ وكان هناك كثيرون أَثْروا بالباطل ، وحصلوا ظلما على نفوذ كبير ، ومعنى حكم علىّ ضياع ثرواتهم وفقدان سلطانهم . لهذه الاعتبارات وغيرها لم يكن علىٌّ مرغوبا فيه . .

ولكن هل كان هناك حينذاك غير علىٍّ يطمع فى الخلافة مع وجود أبى الحسن ؟ لقد كان علىٌّ على وشك أن ينالها بعد عمر فكيف يمكن أن يُحْرَمَها بعد عثمان ؟ وإذا كانت السن قد لعبت دورها فى تأخير تولية علىّ ، فقد أصبح الآن فى العقد السادس بل قد تخطى نصفه فلم يَعُدْ هناك طعن فى مسألة السن .

ومن هنا ندرك أن تولية علىّ كانت طبيعية رضى الطامعون أو كرهوا ،

على أننا إذا لاحظنا الأسباب التى ذكرناها آنفا والتى جعلت عليا غير مرغوب فيه نجد أنها كانت متصلة بالطبقة العليا ، تلك التى أزهق علىّ أرواح شبابها فى حروبهم ضد الإسلام ، وتلك التى كانت تنافسه وتخشى على ثرواتها ونفوذها من عدالته ، أما الجماهير وأما الشعب فلم يكن لهم ملجأ سواه ، وكانوا يتطلعون إليه لينقذهم مما ألمّ بهم .

ومن هنا كانت بيعة على بيعة قامت بها الجماهير ، فهؤلاء الذين فتكوا بعثمان ومعهم من انضم إليهم هرعوا إلى على يبايعونه ، وقد أدرك على أن سيل الناس إليه سيل شعبى ، فصاح فيهم : إن هذا الأمر ليس لكم ، إنّه لأهل بدر ، أين طلحة والزبير وسعد ؟ ولم يكن أحد من هؤلاء الخاصة يستطيع أن يواجه العاصفة فيمتنع عن بيعة على فى ذلك الوقت ، فبايع هؤلاء راضين أو كارهين(١) ، وتبعهم كثير من المهاجرين ، والأنصار وتلاهم عامة الناس ، ولم تكن البيعة إجماعية بطبيعة الحال وكان بنو أمية قادة الممتنعين .

سياسة على :

سياسة الإنسان جزء منه ومرآة لأخلاقه ، وعلىّ مجبول على الصراحة ، لا يعرف فى الحق لومة لائم ، فكانت سياسته صدًى لهذه الأخلاق ، فقد بادر علىٌّ عقبَ بيعته فأصدر أمرين فى منتهى الصرامة ، وهذان الأمران هما :

١ – عزل ولاة عثمان ، وقد أرسل على ولاة بدلهم ، ولكن أكثر ولاته عادوا إليه ولم يستطيعوا أن يدخلوا الولايات التى حددها لهم(٢) .

٢ – استرداد القطائع التى أقطعها عثمان لأقاربه من بيت المال دون

---

(١) انظر الطبرى ج ٣ ص ٤٥٦ وما بعدها

(٢) تاريخ الطبرى ٣ : ٤٦٢ – ٤٦٣

حق ، وكذلك استرداد الهبات الكبيرة التى منحها عثمان بدون حق من بيت المال .

ولم يسمع على لنصح أتباعه وأقاربه الذين أشاروا عليه أن يؤجل هذا التصرف ريثما تستقر له الأمور(١) ، إذ توقعوا أن تصرفه هذا سينتج تمرد بنى أمية ، ويجعل معاوية يهب فى وجهه يناضله ويحاربه .

ويوشك المؤرخون والمستشرقون أن يجمعوا على لوم علىٍّ عَلَى هذا العمل ، وهم جميعا تقريبا يصرحون أن التوفيق أخطأ عليا ، وأن ذلك لم يكن من الحكمة ، والذى أعتقده أن ذلك الحكم على علىٍّ مبالغ فيه ، وأنه من الأقوال التى تشاع فيأخذها الناس دون دراسة وبغير تمحيص ، وللتدليل على ذلك نسأل الأسئلة التالية :

١ — هل كان من الممكن أن يحتج علىّ على الولاة الظالمين وأن يطلب من عثمان عزلهم ، حتى إذا تولى هو الخلافة تركهم ؟ .

٢ — وهل كان من الممكن أن يثور عَلَى القطائع التى أعطيت ظلما لأقارب الخليفة حتى إذا تولى هو الخلافة أقرها ؟ .

٣ — وهل كان التمرد الذى عاناه على ناشئا عن عزل الولاة واسترداد القطائع ؟ وإذا كان كذلك فلماذا تمرد طلحة والزبير وشنا على علىّ حرب الجمل ؟ .

٤ — وهل يتخيل المؤرخون أن معاوية كان سيبايع عليا ويسير فى ركابه لو لم يعزل ؟

٥ — وأخيرا هل يمكن أن نطلب من على أن يكون شخصا آخر غير على ؟ إن مطالبة على بترك وال ظالم فى الولاية ، أو الإغضاء عن مال نُهب من بيت مال المسلمين هو بمثابة أن نطلب من الأسد أن يصبح هِرًّا ، وهيهات أن يكون ذلك .

---

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٤٥٩ وما بعدها .

لعل من الأفضل للمؤرخين أن يقولوا أن ذلك الوقت لم يكن الوقت الملائم لعلىّ ليصبح خليفة ، وكان من الخير للمسلمين أن يتولى الخلافة فى ذلك الوقت شخص آخر غير على[١] ، شخص يستطيع أن يداور وأن يداهن ، شخص لم يشترك فى الأحداث السابقة أو اشترك فيها إلى حد ضئيل . ولكن يجب ألا ننسى أن أية محاولة لتولية شخص غير على حينذاك كان لابد من فشلها فتولية على كانت قد أصبحت أمراً طبيعيا كما سبق القول .

والخلاصة أن تولية على كانت طبيعية ، وأن التمرد الذى واجهه على كان طبيعيا أيضاً وكان نتيجة لسير الأحداث وكان صراعا على السلطة ، وإن اتُّخِذَ من أسبابه قتل عثمان ، أو المطالبة بثأره ، أو عزل الولاة ، أو استرداد ما سلبوه من بيت المال .

وأهم المواقع الحربية التى خاضها على موقعتان ، موقعة الجمل وموقعة صفين ، وسنتكلم عن كل منها فيما يلى :

موقعة الجمل :

أخذت هذه الموقعة اسمها من الجمل الذى كانت تركبه عائشة زوجة الرسول وبنت أبى بكر الصديق ، وخروج عائشة إلى المعركة لتحارب عليا كان حدثا غير عادى ، ومن ثم ارتبطت هذه الموقعة بعائشة وبجملها وإن كان دور عائشة فى الحقيقة ضئيلا جدا فى هذه المعركة .

وتحليل موقف عائشة يحتاج إلى شىء من الفراغ لن نضن به . كانت هناك عوامل تحثّ عائشة على عدم الاشتراك فى هذه المعمعة ، وهناك عوامل أخرى كانت تدفع عائشة إلى الاشتراك فيها ، وقبل أن نتكلم عن هذه العوامل وتلك نذكر أن عائشة — كأغلب المسلمين — كانت ثائرة على عثمان ، وكانت هى وطلحة من أشد الناس انتقادا له وإبرازاً لمساوئه ، ولما حوصر

---

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٤٥٩

عثمان تركت عائشة المدينة وذهبت إلى مكة ، فلما قتل عثمان خرجت من مكة تقصد المدينة ، فلما عرفت أن البيعة تمت لعلى غضبت[١] وقالت : والله ما يكون هذا الأمر أبدا ، قتل عثمان مظلوما ، والله لأطلبن بدمه ، وعادت إلى مكة وقدم عليها بمكة طلحة والزبير ، وقد استأذنا من على بحجة أنهما يريدان العمرة[٢] كما قدم يعلى بن أمية عامل عثمان على اليمن ومعه ما كان ببيت مال اليمن من الأموال ، وقدم كذلك عبد الله بن عامر من البصرة بمال كثير والتفّ حول عائشة بطبيعة الحال بنو أمية الذين كانوا بالحجاز وحثت عائشة الجميع على المطالبة بدم عثمان ، وخرجت ومعها أتباعها تريد البصرة لتستعين بأهلها فيما أقدمت عليه[٣] .

هل كان حزن عائشة على عثمان هو الذى دفعها إلى ارتكاب ذلك العمل الأحمق ؟ الحقيقة لا ، ولكن كانت هناك عوامل أبعد غورا ، نذكر أهمها فيما يلى :

١ – كانت هناك وحشة بين على وعائشة عبرت عنها عائشة بقولها :

إنه والله ما كان بينى وبين على إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها[٤] ، ولعل بعضها يرجع إلى موقف على من عائشة فى حادثة الإفك[٥] .

٢ – نفسَ علىّ على أبى بكر الخلافة وامتنع عن مبايعته زمنا ، فلماذا تسرع عائشة لمبايعة على ؟ ولماذا تتركه يهنأ بهذه الخلافة ؟

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ٦٠

(٢) الطبرى ٣ : ٤٦٥ وقد أَذِنَ لهما على مع انه لم يكن يخفى عليه غرضهما ، وقد روى أنه قال لهما : والله ما العمرة تريدان .

(٣) المرجع السابق ص ٤٦٩ – ٤٧٠

(٤) المرجع السابق ص ٥٤٧

(٥) حديث الإفك حديث معاد تعمدت عدم ذكر تفاصيله فى هذا الكتاب ، ورأبى أن رمى عائشة بالزنا كبيرة بشعة ، وليس فى تاريخ العرب ما يجعلهم هكذا يستسهلون رمى الحرائر بالعهْر ، وإنما المسألة كانت من الأشواك التى توضع حول الرسول والتى يقصد بها عرقلة الدعوة ، فتجلت لها آيات القرآن فمحتها ولمن شاء قراءة تفاصيلها فليقرأ البخارى وزاد المعاد ج ٢ ص ١١٣ – ١١٥ وغيرها

٣ ـ العامل الأكبر والمهم هو عبد الله بن الزبير ، فهو ابن أختها أسماء ، ولما لم يكن لعائشة أولاد فقد أخذته من أختها وربته فى بيتها وتبنته حتى كانت تسمى أم عبد الله ، وكان عبد الله طموحا يطمع فى الخلافة ، ولكن وجود على كان يحول بينه وبين تحقيق هذه الأمنية ، فدفع خالته عائشة لتخوض هذه المعركة ضد على ، لعل عليا يسقط فيها فيخلو له الجو ، وكثيرا ما ترددت عائشة فى مواصلة العمل لهذه المعركة ، ولكن عبد الله كان يأتيها ليزيل ترددها ويحملها هذا المحمل الصعب ، فمن الممكن أن نقول إنّ عائشة استُغِلَّتْ وأن الذى استغلها هو عبد الله ، والمرأة هى المرأة على كل حال ، تضعف أمام حيل الرجال ، وتنهار أمام وسائلهم ، ولعل عبد الله هو الذى دفع أباه أيضا ليشترك فى هذه الموقعة ، وهناك أدلة كثيرة تقود إلى هذه النتيجة ، فمن ذلك ما روى أن عليا قال للزبير : كنا نعدك من بنى عبد المطلب حتى بلغ ابنك ابن السوء ، ففرّق بيننا . ومن ذلك ما روى أن عليا ذكَّر الزبير بقول الرسول صلى الله عليه وسلم له : ستقاتل عليا وأنت له ظالم ؛ فتذكر الزبير ذلك وعزم على أن يدع الحرب ، وأعلن عزمه ، فجاءه ابنه عبد الله وحَمَّسَه بقوله : لعلك خشيت رايات ابن أبى طالب وعلمت أنها تحملها فتية أمجاد وأن تحتها الموت الأحمر ، فَجَبُنْتَ (١) .

ولعلنا نستطيع أن نسبق التاريخ فنقرر أن طموح عبد الله بن الزبير استمر يدفعه بعد فشل معركة الجمل لينتهز فرصة أخرى ليضع نفسه خليفة ، وقد واتته الفرصة بعد مقتل الحسين فى عهد يزيد بن معاوية ، فأعلن نفسه خليفة ؛ وظل يكافح عن ملكه المزعوم حتى دفع رأسه ورءوس الآلاف فداء لهذا الطموح .

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٥١٥ ، ٥١٩

أما العوامل التى كانت تعوق عائشة فهى :

١ ــ شهدت عائشة بكاء الآلاف يوم خرجت من مكة لهذه الرحلة المشئومة ، حتى سمى ذلك اليوم يوم النحيب ، ولكن ذلك لم يردعها .

٢ ــ تلقت عائشة خطاباً طويلا من أم سلمة تعظها وتذكرها أن خروجها للحرب هتكٌ للحجاب الذى ضربه عليها الرسول .

٣ ــ أهم من هذا كله الآية الكريمة « وقرن فى بيوتكن »[1] التى لم يغب عن عائشة مغزاها .

ولكنّ دَفْع عبد الله بن الزبير كان أقوى من كل شىء ، فإذا عائشة تفقد كل مقاومة ، وإذا بها توضع فى الهودج ويمشى بها الركب ، وكانت تتجدد فيها المقاومة ولكن ابن الزبير كان يسرع فيخمد هذا الخاطر ، روى أن كلاباً نبحتها فى الطريق فسألت : أين نحن ؟ فقيل لها : عند ماء الحوأب . فقالت : ما أرانى إلا راجعة لأنى سمعت الرسول يقول لنسائه كأنى بإحداكن تنبحها كلاب الحوأب . ولكن ابن الزبير سرعان ما جاءها يقسم أن ذلك ليس ماء الحوأب ، واستشهد لها ببعض الأعراب الذين اكتراهم لذلك[2] .

ووصلت عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة ، وانضم إليهم كثير ، كان فيهم مروان بن الحكم وبعض بنى أمية . وأيدها بعض أهل البصرة وعارضها آخرون ووقعت مناوشات بين الطرفين قتل فيها بضع مئات وبخاصة من معارضى عائشة[3] . ثم قدم على بجيشه الكبير ، وحاول على أن يثنى عائشة وأصحابها عن غيهم . ويذكّر الذين بايعوه منهم بيعتهم . وأوشكت هذه السفارات أن تنجح وأن يكفى الله المؤمنين شر القتال[4] .

---

(١) الاحزاب (٣٣) :

(٢) تاريخ الطبرى ٣ : ٤٨٥ ــ ٤٨٦

(٣) المرجع السابق ص ٥٠٣

(٤) المرجع السابق ص ٥٠٣ ــ ٥٠٤

ولكن السبئيين الذين قتلوا عثمان أدركوا أن الصلح بين الطائفتين سيكون على حساب رقابهم ، فعقدوا العزم على بدء الحرب ، مدركين أن الحرب وحدها هى التى يمكن أن تحميهم من المقصلة ، وهكذا بدءوا المعركة فى غفلة من على وأجابهم أتباع عائشة ، والتحم الفريقان(١) .

إنه يؤخذ على علىّ أن سلطانه على جيشه لم يكن كبيراً ، ولم يكن شاملا ، بل ربما أُخذ عليه أنه اصطحب هؤلاء الشياطين معه واستعان بهم ، ولكن هل كان يستطيع علىٌّ غير ذلك ؟ ومن معه غير هؤلاء بعد أن اعتزله طلحة والزبير وعائشة ، ووقف عن بيعته عبد الله بن عمر وسعد بن أبى وقاص ، واستعد لحربه معاوية وبنو أمية بالشام ؟ كل ذلك يجعل بعض الباحثين يخطِّئون علياً فى قبوله الخلافة فى ذلك الوقت وكان ابنه الحسن من أول من لامه على ذلك ، ولكن ألم يبايعه طلحة والزبير؟ وألم يجتمع عليه وجوه الناس بعد عثمان ؟ وهل كان هناك من يجرؤ على التقدم لها حينذاك وأبو الحسن هناك كما قلنا ؟ .

وكانت معركة عنيفة فر منها الزبير ولكنّ بعض الساخطين عليه تبعوه فقتلوه(٢) . وقُتِلَ فى مطلعها طلحة ، ولكنها استمرت تحت قيادة عائشة ، وسقط الآلاف فى حماية الجمل وحماية أم المؤمنين ، أو فى الهجوم على عائشة وعلى جملها كما قلنا ، ثم عقر الجمل وانتهت المعركة بنجاح علىّ ، ولكنه أكرم عائشة وأعادها إلى مكة معززة مكرمة .

من المسئول عن هذا الدم المراق وهذه الأرواح المزهقة ؟

لقد كانت هذه أول معركة تدور رحاها بين جيشين مسلمين ، وقد سقط فيها عدد من المسلمين يقدره بعض المؤرخين بعشرة آلاف ويقدره آخرون بأكثر من ذلك(٣) ، فمن المسئول عن هذه المعركة الخطيرة ؟ .

---

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٥١٨

(٢) المرجع السابق ص ٥١١ ، ٥٤٠

(٣) انظر الطبرى ج ٣ ص ٥٤٣

يجدر بى أن أبين رأيى بوضوح فى هذا الصراع ، وفى مسئولية الذى قاموا به ، وطوائفُ المسلمين تختلف اختلافاً بيّناً فى تحديد المسئول . ومن طوائف المسلمين من سكت عن الخوض فى هذا الموضوع ، أما السكوت فليس من المصلحة فى شىء ، لأن هذه كانت أول معركة — كما قلنا — تدور بين جيشين مسلمين ، ويقف فيها المسلم يواجه المسلم ، ويكدُّ ليريق دمه ، ويفخر بانتصاره فى إراقة دماء أخوته المسلمين ؛ ولم تكن هذه آخر المعارك بين المسلمين بل تلاها عشرات أو مئات مثلها ؛ ولا نزال حتى اليوم نرى فى كثير من الأحيان جيشا مسلما مستعدا للهجوم على جيش مسلم آخر ، فليس من المصلحة فى شىء أن نسكت ، بل لا بد أن نبين المسئولية ، ونلقيها على من يستحقها رجاء أن يرتدع الطامعون بعد ذلك ، فلا يضعوا أنفسهم فى هـــذا الموضع الشائك فيستحقوا لعنات الناس وعذاب الله وقسوة التاريخ .

وأما الاختلاف فى إثبات المسئولية فمرجعه — عندى — سببان :

أولا : أن أغلب الباحثين لا يدرسون هذه المشكلة دراسة موضوعية ، بل يتأثرون بأشخاصها ، فيدفعهم تأثرهم إلى هذا الجانب أو ذاك دون عمق وبدون إعمال فكر .

ثانيا : أن شيوخ الفرق الإسلامية أنفسهم متأثرون بمكانتهم فى هذه الفرق فيغلب أن يتبع الواحد منهم رأى الفرقة التى هو منها ولا يشذ عنها : فأهل السنة نراهم أسهل حكما « عدلوا الصحابة جميعا وتولوهم واعتقدوا نجاتهم » . وأحيانا يحاولون أن يحكموا على هذا أو ذاك بالخطأ ، وأحيانا أخرى يذكرون أن الأمر التبس عليهم فيلزمون أنفسهم السكوت ، والحقيقة أنه لم يلتبس وإنما أوشك أن يتضح وأن يقودهم إلى حكم قاس على المذنب ، وهم لا يطيقون أن يصرحوا بإدانة المذنب من هؤلاء ، فيؤثرون أن يغمضوا عيونهم .

وأما الشيعة فإنهم دون حاجة إلى دراسة ، وبادئ ذى بدء يلقون كل المسئولية على عائشة ، وربما كان الأمر كذلك ، ولكنهم لا يأخذون للنتيجة سبلها بل يَصلون لها دون عناء ، ومثل الشيعة الخوارج فى هذا الموضوع ، ومنهم من لا يكتفون بتأثيم أصحابها بل يقولون بتكفيرهم .

والمعتزلة وهم زعماء الحركة العقلية فى التفكير الإسلامى يتأثرون أيضا ، ولذلك نرى زعماءهم الأفذاذ أمثال واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وأبى هزيل العلاف يقولون إن فريقا من الفريقين مخطئ خطأ يفسق به ، ولكن أى الفريقين ذلك ؟ لا يُعيِّنُون(١) . وربما جاز لى أن أتهمهم بأنهم يستطيعون التعيين ولكنهم لا يريدون .

هل نستطيع أن ننظر إلى هذه المسألة نظرة موضوعية بصرف النظر عن أشخاصها ، بل مع كامل التقدير والإجلال لماضى كل من هؤلاء الأشخاص ؟ أرجو هذا . وقبل كل شىء نحب أن نستبعد الكفر ، فليس لإنسان أن يكفر من قال : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » معتقدا لها . وزعماء هذه المعركة من هذا الجانب أو ذاك من خيرة من قالها مؤمنا بها . وإنما الذى نتكلم عنه هو المسئولية ، والإثم لهذه الدماء البريئة التى استُغِلَّت أسوأ استغلال ، ولنعد لتحديد المسئولية فنسأل سؤالا هاما هو :

هل كانت هذه الحرب حرب مبادئ ؟ وهل حقيقة ثارت عائشة لدم عثمان ؟ وثار طلحة والزبير لذلك ؟ .

لو كانت الحال كذلك لهان الأمر ، ولما عدَا اجتهاداً أخطأ فيه المجتهد ، ولكن الذى نستطيع أن نقطع به فى الأجابة عن هذا السؤال هو أن هذه الحرب لم تكن حرب مبادئ ولم تكن من أجل دم عثمان ، وليست اجتهادا أخطأ فيه صاحبه ، وقد سئل مروان بن الحكم — وكان فى جيش عائشة — : إلى أن تسيرون ؟ .

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ٢٥ - ٢٦ .

فأجاب : لقتل قتلة عثمان . فقال السائل : فاقتلوا قادة جيشكم فهم قتلة عثمان . وقد فرّ الزبير من المعركة كما قلنا لأنه لم يكن يعتقد أنه على حق ولم يكن يدافع عن عقيدة . وضَرَبَ مروانُ طلحة بسهم فأرداه . ولم تنج إلا عائشة . نجت لأنها امرأة ، ولأنها أم المؤمنين . وقد ظلت – كما يقول المؤرخون – طول عمرها حزينة تتمنى لو كانت ماتت قبل معركة الجمل بعشرين عاما[1] .

إن هذه المعركة كانت لأطماع شخصية ، وكانت تنفيسا عن كراهية شخصية . والأطماع الشخصية تتمثل فى عبد الله بن الزبير[2] وطلحة . والكراهية الشخصية تتمثل فى عائشة . وذنب طلحة أهون من ذنب عبد الله لشىء واحد هو أن طلحة ما كان يطمع فى أن تستجيب له الجماهير . ولم يكن له سلطان على عائشة يدفعها لتخدع الناس لأنها أم المؤمنين . أما عبد الله فقد حمل أكبر الإثم لأنه دفع خالته لتحقق له أحلامه . وأما الكراهية الشخصية فقد كانت تتمثل فى عائشة فإنها لم تكن على وفاق مع علىّ واستغلت مكانتها للتأليب عليه . ويبوء الزبير بقسط من المسئولية لأنه اشترك فى دفع الناس إلى هذا الأتون ، فلمّا أوشك أن يشتعل ويلتهب فرَّ ، ومن أجل هذا قتله أحد العرب بسبب الفرار من المعركة بعد أن دفع الناس للموت فيها .

وخطأ علىّ ينحصر – كما قلنا سابقا – فى أنه لم يكن له سلطان كامل على جيشه . فكان هو يسعى للصلح . وبين أتباعه من يُعِدُّ المؤامرات لإشعال النار . ولو كان له سلطان كامل على جيشه لكان من الممكن ألا تقوم الحرب .

فعبد الله بن الزبير وعائشة هما المسئولان عن هذه الحرب الضروس ،

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٥٤١

(٢) أوردنا فى الصفحات السابقة مزيدا من القول عن الدور الذى لعبه ابن الزبير لإشعال الحرب ، والذى استحق به أن يتحمل المسئولية

وأقرر أننى لم أجد من المؤرخين من ألقى التبعة على عبد الله بن الزبير ، ومن ذلك أيضاً الكتب التى خُصصت لهذا البحث مثل « عائشة والسياسة » للأستاذ سعيد الأفغانى و « على وعائشة » للأستاذ عمر أبو النصر ، والباحثون القدامى والمحدثون أيا كانت ميولهم يلقون التبعة على طلحة أو الزبير أو عائشة أو على ، ونسوا ابن الزبير وهو عندى مشعل هذه النار وإن استتر خلف الثلاثة الكبار .

وهناك شىء آخر نحب أن نبرزه عند الحديث عن القتلى ، وهو أن التاريخ يروى أن الآلاف الذين سقطوا فى هذه المعركة سقطوا باسم النخوة والمروءة مدافعين عن أم المؤمنين وجملها ، فأم المؤمنين وجملها كلفا المسلمين آلاف الأنفس من المدافعين والمهاجمين ، فلما خرَّ الجمل وقفت المعركة .

رباه ، إن تكن قد غفرت للآثمين فى هذه المعركة فَأَلْهِمِ المسلمين التوفيق حتى لا يقف مسلم مرة أخرى يقتل أخاه ويجد الفخر فى إزهاق أرواح إخوته المسلمين .

موقعة صفين :

حدثت موقعة صفين بين على ومعاوية ، وقبل الحديث عنها يجدر بنا أن نستعرض حالة القوى العسكرية والامدادات الحربية فى العالم الإسلامى قبل بدء المعركة .

كان على وأتباعه يعتقدون أن معركتهم الأولى والأخيرة يجب أن تكون ضد الأمويين الذين يقودهم معاوية بن أبى سفيان مُؤَيَّداً من أهل الشام ؛ فمعاوية هو ابن عم عثمان ، وهو زعيم بنى أمية ، وله جاه عريض بين جنده وأتباعه بالشام ، ولم يكن طلحة والزبير — بعد بيعتهما — محسوبين من الأعداء الألداء : وكذلك لم يظن ظان أن الحماسة أو الكراهية بين عائشة وعلى ستدفع بأم المؤمنين أن تقود الجيوش وتخوض معارك الحرب ، وعلى هذا فاستعداد على اتجه لمقاومة معاوية من أول الأمر ،

ولكن الأحداث تطورت ورأى علىّ أنه لا بد من الاطمئنان إلى ظهره حتى يفرغ لأهل الشام ، فخاض معركة الجمل .

• ما نتيجة معركة الجمل ؟

نتيجتها الساذجة أن علياً انتصر ، ولكن نتائجها الحقيقية كانت أعمق من ذلك ، لقد خر من جيش على عدة آلاف يقدرها المؤرخون بخمسة آلاف أو أكثر ، وهذا أضعف جيش على ، وخر من أهل مكة والمدينة والبصرة ممن تبعوا عائشة وأصحابها عدد مثل ذلك تقريباً ؛ وخلّف هؤلاء القتلى جراحاً بالغة تُثير الحقد على علىّ ؛ ثم إن جيوش علىّ كانت حديثة الصلة به فليس له عليها يد ، وليس معه مال يغدق على الأبطال وينعم على الشجعان ، وإن كان معه مال فليس علىٌّ بالذى يعطى من مال الله فى غير وجهه . وعلى هذا كان مع علىٍّ أشتات من الناس أكلت منهم الحروب وليس هناك ما يكلم جراحهم .

وفى الجانب الآخر من العالم الإسلامى كان يقف معاوية متخذاً من دمشق عاصمة لإمارته التى تولاها منذ عهد عمر بن الخطاب ، وقد أضاف علىَ أمارته التى تولاها منذ عهد عمر بلداناً أخرى ضمها إليه عثمان ، وهكذا امتدت السنون بابن أبى سفيان فى الشام وهو سياسى ضليع ، يعرف طريقه إلى قلوب الناس عن طريق الدهاء أو العطاء ، والشام بلاد غنية فتية لم يعرف سكانها منذ دخلوا الإسلام أو دخل الإسلام بلادهم حكما أزهى ولا أطول من حكم معاوية ، وانضم حول معاوية آلهة الدهاء فى الجزيرة العربية وعلى رأسهم عمرو بن العاص ، كما هرب إليه بنو أمية أو أكثرهم وكثير غيرهم من بطون العرب وقبائلها . وتجمع حول معاوية جيش لا يعرف غيره ولا يطيع سواه ، وزاد نفوذ معاوية إبان حكم عثمان فأصبح فى الواقع الحاكم الأعلى والمرجع النهائى لكل الأمور ، وبينما كان علىٌّ يخوض معركة الجمل ويفقد من جيشه عناصر صالحة كان

معاوية يقوى جيشه ويدعمه ، ويفرق على أتباعه المال ويثيرهم ضد قتلة عثمان . وينصب لهم على المنبر قميص الخليفة ملوثاً بدمه وقد علقت به أصابع زوجته التي قطعها الثائرون وهى تتلقى عن زوجها الضربات ، ويتخذ من ذلك أساساً لفيض من الكراهية ينميه ضد علىّ الذى — كما قال — كان يحمى القتلة ويستعين بهم ، وكان أهل الشام كما لا يزالون دائماً يحملون فكرة هامة هى أن إسناد الخلافة إلى على معناه ثبوت الأمر لبنى هاشم ، وكانوا يرون كما يرى أغلب المسلمين وجميع الباحثين أن الخلافة من حق المسلمين كافة لا يختص بها بنو هاشم ، كما أن حياتهم قد طالت وطابت فى ظل معاوية ، فلماذا لا يحرصون عليه ، ويشدون أزره ، لتدوم لهم هذه الحياة ؟

فى مثل هذه الجو زحف علىٌّ لمقابلة جيوش معاوية ، والتقى الجيشان فى موضع سهل على الفرات يقال له صفين ، والحق يقال إن علياً كان كالعهد به دائماً يميل إلى السلم والموادعة ، فقد تغلب أول الأمر أتباع معاوية على الماء ومنعوا عنه أتباع على ، فناهضهم علىٌّ حتى أجلاهم عن الماء ثم لم يمنعهم عنه[1] ، وكتب عدة كتب وأرسل عدة رسل لدعوة معاوية إلى البيعة وإلى الاتفاق ، ولكن هل كان سهلا على معاوية أن يترك ملكاً شامخاً ، ويستجيب لدعوة على ؟

والتقى الجيشان ، ووقعت المعارك عدة أيام ، وكان من أبرز أنصار على ، القائدُ العظيم مالك الأشتر واستطاع على ببطولته الشخصية وبحماسة بعض أتباعه أن يكوِّن من جيشه قوة غالبة كسبت له النصر ، لو لا صياح معاوية بعمرو بن العاص : هلم مخبأتك يا ابن العاص فقد هلكنا . فهتف عمرو بجنده : من كان معه مصحف فليرفعه على رمحه . فرفعوا المصاحف وقالوا : كتاب الله بيننا وبينكم . وكأنما صادف هذا الهتاف هوى فى نفوس أتباع علىّ الذين كانت الحرب قد أرهقتهم فاستجاب أكثرهم ؛ وحاول

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٥٦٦

على أن يحثهم على مواصلة الحرب حتى ينالوا النصر الكامل ولكنهم لم يستجيبوا له وأرغموه على إعلان إيقافها ، ففعل[١] ويُروَى أن بعض أتباع على ثاروا فى وجهه قائلين : القوم يدعوننا لكتاب الله وأنت تدعونا للسيف ؛ وهددوه بأنهم سيقاتلونه إن لم يتوقف عن قتال المسلمين[٢] .

إن المؤرخ يستعرض حياة علىّ العسكرية فيجده قد انتصر فى المعارك التى خاضها كلها ؛ انتصر فى موقعة صفّين ، وفى مواقعه ضد الخوارج ، ولكنه كان يهزم فى مواقف الدهاء ، لأنه ، فيما أعتقد ، لم يؤثر الدنيا على الدين ، ولأن أتباعه أشتات كما وصفنا آنفا ، ليس له عليهم يد قوية . ولعل ذلك ليس من أخطائه ، بل من فعل الظروف التى لم يخلقها على .

التحكيم :

اتفق الرأى على أن يولى أهل العراق حَكَماً وأن يولى أهل الشام حكما ، وأن يجتمع الرجلان ليبحثا أسباب الخلاف رجاء الوصول إلى حل ، وقد ارتضى أهل الشام عمرو بن للعاص بإجماع بينهم ، واختلف أتباع على ، وقدم أغلبهم أبا موسى الأشعرى على غير رغبة من على ، واجتمع الحكمان فى شهر رمضان سنة ٣٧ هـ ولم يكن هناك تكافؤ فى هذا التحكيم ، فعمرو بن العاص أستاذ الدهاء فى الجزيرة العربية ؛ وأبو موسى فيه طيبة ويُسْر ، وعمرو يرتبط مصيره بمصير معاوية وليس كذلك أبو موسى ، وخلْفَ عمرو قوة موحدة إن كانت قد هُزِمَت فى المعركة فإن الهزيمة لم تتم ، وقد أصلح أصحابه أحوالهم واستعدوا من جديد ، وخلْفَ أبى موسى أشتاتٌ متفرقو الكلمة مختلفو الرأى .

وفى الاجتماع دار نقاش طويل يرويه الطبرى[٣] . والمسعودى[٤] . وقد لعب فيه دهاء عمرو دوراً كبيراً وانتهى فيه إلى أن عثمان قتل مظلوماً ، وأن

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٣٤ وما بعدها

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل ٦٥ — ٦٦

(٣) انظر تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٤٩ وما بعدها

(٤) انظر مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤ وما بعدها .

من قتل مظلوما فإن لوليه سلطانا ، وأن معاوية هو أولى الناس بالمطالبة بدم عثمان . . . . ثم تحول النقاش إلى اقتراح عزل علىّ ومعاوية وترك الأمر للمسلمين ليولوا أمرهم من يشاءون ، وقَدَّمَ أبو موسى الاقتراح فوافق عليه عمرو ، وتقدم أبو موسى فأعلن الاقتراح ، وتبعه عمرو فأعلن موافقته على عزل على وأعلن تثبيته لمعاوية(١) .

وعلى أى حال فإن خبر التحكيم على هذا الوضع يقبله بعض المؤرخين ويرده بعضهم ، وليس هذا الخبر بكبير الأهمية عندى لأنه لم تُرَدْ به قط نتيجة مرضية ، وإنما لجأ له معاوية لينجو من هزيمة بدأت تظهر ، وقد نجا فعلا من الهزيمة ، وهَبْ أن عمرا قرر فعلا عزل معاوية فهل كان عزل معاوية موضوعا يستطيعه عمرو بن العاص أو أبو موسى الأشعرى ؟

بعد التحكيم :

كانت نتيجة التحكيم فى صالح معاوية لا لإعلان عزل على وتثبيت معاوية ، ولكن لأن الانقسام بعد التحكيم قد ظهر واضحاً فى جيش على ، وبدأ الخوارج يثورون على علىّ ويعتزلونه لأنه قَبِل التحكيم(٢) ، والعجيب أنه كان بين الخوارج كثيرون ممن أرغموا علياً على قبول التحكيم ، وكانوا يعترفون بذلك ويقولون : أخطأنا فلماذا تتبعنا فى خطئنا ، وأنت الخليفة يجب أن تكون أبعد نظراً وأعمق رأياً ؟ ولم يكتف الخوارج باعتزال على ، بل أخذوا يرتكبون الآثام ويعتدون على الناس فى العراق ، وحاول علىّ أن يرشدهم للحق بمختلف الطرق فلم يستطع ، فلم يجد بداً من محاربتهم ، وكان كلما انتصر على جيش منهم ظهر جيش آخر ، وبدأ كبار الصحابة كسعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر يذهبون إلى الشام وينضمون إلى معاوية لثبوت أمره ولتوفر الاستقرار عنده ، واستطاع معاوية بدهائه

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ٦٦

(٢) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٤٦ وما بعدها

أن يضم مصر إليه بعد معركة قادها عمرو بن العاص ، وتبعاً لما يرويه المؤرخون فإن الطريقة التى اتبعها معاوية حتى ضم مصر إليه كانت لوناً من ألوان دهائه وحذقه السياسى ، ولا شك أنها تحسب من غفلات أمير المؤمنين ، فقد روى المؤرخون أن قيس بن سعد الأنصارى كان والياً على مصر من قِبَل على بن أبى طالب ، وكان ضابطاً لها ، ولم يستطع معاوية أن يأتيه من أية ناحية من نواحيه ، فأعمل الحيلة ، وانتهى إلى أن أشاع أن قيساً من أنصاره وأنه يعاونه سراً ، وجازت هذه الحيلة على علىّ وبخاصة أنه كان بمصر جماعة من أنصار عثمان ولكن قيساً وادعهم ، وهم وادعوه ، وهدأت البلاد ، ففهم علىٌّ من موادعة قيس لهم أنه حقيقة على اتصال بمعاوية وأنه يميل إلى أنصار عثمان ، فعزله ، وعين بدله محمد ابن أبى بكر ، ولم يكن محمد فى كياسة قيس ، فاشتبك فى حرب مع أنصار عثمان ، وزحفت جيوش معاوية بقيادة عمرو بن العاص ومعه معاوية بن خديج ألد أعداء محمد بن أبى بكر ، وانضم جيش عمرو لأعداء محمد ، وكان النصر لعمرو وقتل محمد بن أبِى بكر(١) ، وهكذا كان أمر على فى نقصان ، فى حين كان أمر معاوية فى ازدياد متصل .

نهاية على :

لم يستقر الأمر لعلى يوماً واحداً طيلة مدة خلافته ، وكان يرقع خرقاً فتظهر له ألوان أخرى من البلى ، ويظهر الثوب متهلهلا ، ومن هنا يبدو النصيب والحظ فيما يعرض من أمور ، وبينما كان علىٌّ يعد العدة لحملة جديدة على معاوية كانت هناك مؤامرة ثلاثية تدبر للقضاء على علىّ ومعاوية وعمرو بن العاص ، ومدبرو هذه المؤامرة هم ثلاثة من الخوارج اتفقوا على التخلص من الزعماء الثلاثة فى ليلة واحدة ، فاتجه عبد الرحمن بن ملجم لقتل على بالكوفة ، واتجه البرك بن عبد الله

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٥٥٤ — ٥٥٥ .

التميمى إلى الشام لقتل معاوية ، واتجه عمرو بن بكر التميمى إلى مصر لقتل عمرو بن العاص ، وقد نجح ابن ملجم من بين هؤلاء الثلاثة ، فطعن علياً بسيفه طعنة قاتلة وهو ينادى للصلاة ؛ وأمسك به المصلون ، فلما مات على قتل ابن ملجم فيه ، أما البرك فقد طعن معاوية طعنة غير قاتلة ، وأما عمرو بن بكر فقد جلس يرقب عمرا بن العاص ليخرج لصلاة الفجر ، ولكن هذا لم يخرج لمرض ألمَّ به ، وأناب عنه خارجة بن حبيب السهمى ليصلى بالناس فطعن عمرو بن بكر خارجة وهو يحسبه عمراً ابن العاص(١) .

وانتهى بذلك علىٌّ صاحب أفصح لسان ، وأقوى حسام ، وأعمق عرفان ، بين أتباع الرسول صلوات الله عليه ، وانتهى بعلى عهد الخلفاء الراشدين .

علىٌّ فى الميزان :

تحدثنا فى مطلع الكلام عن على عن الصفات النادرة التى امتاز بها كرَّم الله وجهه على أنداده ومعاصريه ، وتحدثنا عن مواقفه الخالدة مدافعاً عن الإسلام وراداً عنه أعداءه ، وكذلك تحدثنا عن سابقته وفضله وعلمه وفصاحته ، والحديث عن على فى هذا المجال طويل ، وربما كان من الحديث المعاد ، فلن تستطيع هذه العجالة أن تلمَّ بما له من فضل ، وأن تحوى ما امتاز به من مكانة سامية فى شتى النواحى .

ولاستكمال البحث نورد هنا بعض ما أُخِذَ عليه ؛ وأهم ما أخذ عليه اعتقاده أنه صاحب الحق الأول فى الخلافة بعد الرسول ، وأنه أولى بها دون سائر الناس ؛ وأن منحها لسواه قبله كان تخطيا له غير مشروع ، ومما أخذ عليه عدم استشارته شيوخ عصره فى الأمور ، وإهماله لمشورتهم إن تقدموا بها ، ولمَّا عاتبه طلحة والزبير فى ذلك قال لهما : أى شىء جهلته

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٧٢ – ٧٣ .

حتى أستشير فيه ؟ وفى قضية عبيد الله بن عمر وقتله الهرمزان (وقد سبق إيرادها) نجد عليا يريد أن يعيد محاكمته وقتله مع أن عثمان قضى فيها منذ اثنى عشر عاما وتحمل مسئوليتها ، ولذلك نجد عبيد الله يهرب إلى الشام ويصير من خيرة القادة فى جيش معاوية ، وكان علىٌّ كثير التشكك فى عماله وربما تأثر بالشك فاتهمهم ، ولم يسلم من ذلك عبد الله بن العباس مما جعله يترك البصرة مقر ولايته ويعتزل بمكة ، ويقول أستاذنا الخضرى : إن من أكبر الأسباب فى عدم استقامة الأمر لعلى يرجع إلى عقيدته فى نفسه وثقته المتناهية بما يراه واستغنائه عن رأى الأشياخ من قريش ، وشدته عليهم ، ويقارن أستاذنا الخضرى بين عمر وعلى فى الشدة فيقول : إن عمر كان يشتد والأمة كلها معه ولكن عليا كان يشتد ومعظم الأمة عليه[1] .

---

(١) تاريخ الأمم الإسلامية جـ ٢ ص ٨٤

ختام عهـــد

يميل أكثر المؤرخين عند كتابتهم للتاريخ الإسلامى إلى الربط بين عهد الخلفاء الراشدين وعهد الدولة الأموية ، وقد جمعهما الأستاذ الدكتور حسن إبراهيم فى جزء واحد من مؤلفه « تاريخ الإسلام » وأسماه الدولة العربية ، وسار على ذلك النهج أستاذنا الخضرى وآخرون ، ولعل الدافع لذلك هو أن الطابع العربى كان واضحا حتى سقوط الأمويين ، أو أن انتشار الإسلام واتساع رقعته كان مستمراً فى العهد الأموى وتوقف فى العهد العباسى .

وسواء كان هذا أو سواه فإنى أميل إلى أن أجعل وقفتى عقب نهاية الخلفاء الراشدين ، لأننى أعتقد أنه بنهاية الخلفاء الراشدين انتهى عهد وبدأ عهد جديد ، والفرق بين العهدين كبير .

إن الخلفاء الراشدين ساروا دائما أو فى أغلب الأحوال سيرة الرسول ، فأتموا العمل الضخم الذى بدأه صلوات الله عليه ، ثم جاء من بعدهم خلفاء ، منهم من اتبع وأكثرهم ابتدع ، ومن هنا أرى أن أربط عهد الخلفاء الراشدين بعهد الرسول ، وأن أفصل هذا العهد عما يليه من عهود .

وكان الخلفاء الراشدون يُختارون بالمشورة ، وتوقفت المشورة بعد الخلفاء الراشدين وأصبحت الخلافة كالمُلْك يتوارثه أعضاء أسرة واحدة ، وكان لابد أن تتوافر صفات معينة فيمن يُختار للخلافة أو يتطلع لها ، واختفت هذه الصفات فيما تلا عهد الخلفاء الراشدين من عهود ، وكان الخليفة لا يستبد عند ما تمر بالدولة مشكلة من المشكلات بل كان يستشير ذوى الرأى والفقه كما كان الرسول يفعل مع أصحابه ، فلما انقضى عهد الخلفاء الراشدين ظهرت ألوان من الاستبداد واعتداد

الواحد برأيه كأن الأمر كله له ، وكان الخلفاء الراشدون يعتبرون أنفسهم خدماً للدولة الإسلامية ثم ظهر بعدهم خلفاء عنوا بالملك والنعيم واعتبروا أنفسهم السادة وسواهم المسودين .

ويتصـــل بذلك موضوع آخر هام هو تأصل الإسلام فى الجزيرة العربية وغيرها من البلاد التى فُتحت فى صدر الإسلام (عهد الرسول وعهد الخلفاء الراشدين) وتزعزعه فى كثير من البلدان التى دخلها الإسلام بعد ذلك ، فإننا نرى الجزيرة العربية ونرى مصر وسوريا والعراق وفارس تلك التى دخلها الإسلام فى الصدر الأول لا تزال فى الطليعة بين أتباع الدين الحنيف ، ولا يزال الإسلام فيها عزيز الجانب قوى السلطان عميق الجذور نامى الفروع ، فإذ تركنا ذلك ونظرنا إلى الجهات التى امتد لها الإسلام فى العهود التالية نجد نتيجة مناقضة للنتيجة التى أوضحناها آنفا ، فقد دخل الإسلام الهند فى العهد الأموى ، وحكمت الهند حكومة إسلامية عدة قرون ولكن الإسلام لم يتمكن فى الهند ولم يستقر إلا فى بقعة لا تصل إلى خمس القارة الهندية وهى الباكستان ، ودخل الإسلام اسبانيا فى هذا العهد أيضاً ولكن الدين الجديد لم يتعمق فى نفوس السكان على الرغم من القرون التى بقيها الإسلام فى تلك البقاع والتى امتدت فى بعضها إلى ثمانية ، وفى العهد العباسى توقف الزحف الإسلامى ولكن كثيرين دخلوا أرض الإسلام واختلطوا بالمسلمين ولعبوا دورا هاماً فى حياة الدولة الإسلامية ومن هؤلاء الأتراك الذين جلبهم المعتصم ، ولكن الإسلام لم يعرف طريقه إلى قلوبهم وإن نطقت به ألسنتهم ، وزحف الأتراك العثمانيون وهم خلفاء الإسلام حتى سيطروا على كثير من دول أوربا ، ولكنهم عند ما انهزموا وتقهقروا تقهقر معهم الإسلام الذى أخذوه إلى تلك البقاع حتى أوشك أن يختفى أو حتى بقى منه ظل شاحب لا يمكن أن يُحسب له أى حساب .

لماذا كل ذلك ؟

هناك دراسة جميلة تتصل أولا بالتعرف على طبيعة الشعوب ،وتتصل ثانيا بما كان لهذه الشعوب من عقائد قبل اتصالها بالإسلام ، وهذان السببان لهما أثر كبير فى الاقبال على الإسلام أو عدم الإقبال عليه ، ولكن هناك سببا ثالثا أعظم منهما أثراً وذلك لا يرتبط بالمدعو وإنما يرتبط بالداعى ؛ ويتصل بالدعوة الجديدة ومن يحملها ، فهذا السبب يشبه البذرة ، أما السببان الأولان فيشبهان الأرض التى تغرس فيها هذه البذور ، وقد اصطلح العلماء على أن الأرض السبخة يمكن أن تعالج ، وأن تؤتى أكلها ولو ضعيفا . ولكن البذور غير الصالحة لا علاج لها ألبتة ، وهذه البذور هى التى نريد أن نتحدث عنها ، وهى الموضوع الهام الذى أشرنا إليه وهى التى نسميها فلسفة الدعوة الإسلامية . ولهذه الفلسفة شعبتان تتصل إحداهما بالدعوة الإسلامية بين من يعرفون اللغة العربية ، وتعمّ الأخرى من يعرفون اللغة العربية ومن لا يعرفونها ، أو قل إن دعوة الإسلام اتخذت سبيلها إلى قلوب الناس بطريق من اثنين أو بهما معا ، وهذان الطريقان هما :

١ ـ إعجاز القرآن .

٢ ـ سمو المبادئ الإسلامية .

وسنتحدث عن كل من هذين الموضوعين بشىء من التفصيل :

القرآن الكريم وأثره فى انتشار الإسلام :

نريد هنا أن نتحدث عن القرآن الكريم ، ثم عن أثره فى انتشار الإسلام . وحديثنا عن القرآن الكريم يتضمن الكلام عن الوحى وطرقه وعن المحتويات الإجمالية لهذا الكتاب المقدس الذى يُعَدُّ المصدر الأول للتشريع الإسلامى ،

أما عن الوحى فقد ذكر ابن القيم مراتبه وعدها ثمانية ، وأشار إلى أن أهمها ذلك الطريق الذى قصدته الآية الكريمة « وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين »(١)

---

(١) الشعراء ١٩٢ – ١٩٤

ومعنى الآيات أن جبريل ينزل فيتصل بالرسول اتصالا كاملا حتى كأنهما شخص واحد ، ويلقى جبريل إلى الرسول الآيات التى أُمِرَ بتبليغها ، وقد روى أن الرسول كان يتفصد عرقا عند ما كان يأتيه جبريل على هذه الحالة ، كما كانت راحلته تبرك لثقل حملها إذا جاءه جبريل كذلك وهو راكب ، وبجانب هذه الحالة ذكر ابن القيم حالات أخرى منها أن جبريل كان يأتى أحيانا فى صورته كملَك ، ويلقى للرسول ما يريد أن يلقيه ، وأحيانا كان جبريل يلقى ما جاء به فى روع الرسول دون أن يظهر ودون أن يتصل بالرسول وقد روى أن الرسول قال : إن روح القدس نفث فى روعى . . . . ومن الحالات التى ذكرها ابن القيم أن الله سبحانه وتعالى قد يكلم الرسول بلا واسطة ملَك(١) .

أما محتويات القرآن فيمكن القول بإيجاز أنها نُظُمُ الإسلام وقوانينه الخاصة بالدين والدنيا ، وقد ورد عن القرآن قوله تعالى « ما فرطنا فى الكتاب من شىء »(٢) والمقصود أنه لا يوجد أمر ذو بال إلا وقد كشف القرآن عنه النقاب إجمالا أو تفصيلا حسب أهميته ، وقد كان القرآن كما سنرى مصدر إعجاز ، كما كان مصدر تشريع ومصدر أخلاق ، وسيمدنا القرآن الكريم فى الدراسة التى سنعقدها عن الحضارة الأسلامية بمادة غزيرة تكون بمثابة الباب الذى نلج منه لنشرح هذا الموضوع الخطير ويمكن أن نقول هنا بإيجاز إن بعض القرآن نزل فى مكة وأن بعضه الآخر نزل فى المدينة وما نزل فى مكة حوالى الثلثين وما نزل فى المدينة حوالى الثلث ، وقد اتجه الجانب المكى من القرآن إلى تعليم توحيد الله وإقامة الدليل على ذلك « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا »(٣) كما

---

(١) زاد المعاد جـ ١ ص ١٨

(٢) الأنعام ٣٨

(٣) الأنبياء ٢٢

اهتم هذا الجانب بالدعوة لمكارم الأخلاق وضرب الأمثال بالأمم الماضية وما حصل لها عند ما كذّبت الرسل ، أما الجانب المدنى من القرآن فقد ظهر فيه التشريع الأسلامى بتفصيله وإحاطته كنظم الميراث ونظم الدَّيْن ونظم الزواج والمحرمات من النساء على الرجال ونظم الطلاق وغيرها[١]

والقرآن الكريم هو معجزة الرسول الأولى ، وهو كذلك معجزة خالدة ، تشهد على مرّ السنين وتعاقب الأجيال على صدق محمد وسمو رسالته ، وأكثر الذين يجيدون اللغة العربية يعترفون دون تردد سواء دخلوا الإسلام أو لم يدخلوه ، أن القرآن لا يمكن أن يكون من قول البشر ، لأنه أسمى بأفكاره وأسلوبه من كل ما استطاعه البلغاء وما توصل له الفصحاء ، أما الأقلية من العرب التى لم تعترف بإعجاز القرآن فقد كانت متأثرة بمؤثرات أخرى قوية حملتهم هذا المحمل الصعب من تحدى القرآن ومحاولة الإتيان بمثله .

وعلى هذا كان العرب بالنسبة للقرآن ثلاث طوائف :

١ ــ طائفة عُرفت بالقوة والشجاعة فاعترفت بإعجاز القرآن ، واتبعت الرسول الذى جاء به .

٢ ــ طائفة اعترفت بإعجاز القرآن ولكن صدتها أسباب أخرى عن اتّباع محمد .

٣ ــ طائفة قليلة ــ أشرنا إليها آنفا ــ آثرت المكابرة وتحدت القرآن بدافع من عصبية أو حسد ، ولكنها على كل حال انهزمت فى تحدّيها هزيمة منكرة . وسنعطى بعض التفاصيل عن كل من هذه الطوائف .

١ ــ وتمتاز الطائفة الأولى بأنها جماعة آثرت العدالة وكان فى نفوس أصحابها طهارة من الأحقاد والأدناس كما كانت فيهم شجاعة وصراحة ، فما إن أدركوا إعجاز القرآن وأحسوا بالمعجزة قوية غلابة حتى انضموا

---

(١) انظر كتاب تاريخ التشريع الإسلامى للمؤلف

لمحمد واعتنقوا الإسلام وتمسكوا به ، ولعل زعيم هذه الجماعة هو الخليفة طيب الذكر عمر بن الخطاب فقد كان قبل إسلامه شديدا على المسلمين ؛ وقد روى ابن هشام(١) أنه خرج متوشحا بسيفه ، فلقيه نعيم بن عبد الله فسأله : إلى أين ؟ قال عمر : أريد أن أقتل محمدا ذلك الذى فرق أمر قريش وسب آلهتها : قال نُعيم : خير لك أن ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؛ فقد التحقت أختك فاطمة وزوجها سعيد بن زيد بمحمد ، فثار عمر وقصد دار أخته وزوجها فلما قرب من الدار سمع صوت تلاوة إذ كان عندهما خباب بن الأرت يقرئهما سورة « طه » فأيقن عمر بصدق ما سمعه عن أخته ، واندفع إلى الدار غاضبا فلما أحس به خباب اختفى ؛ وأخفت فاطمة الصحيفة ، فصاح عمر بأخته : ماذا كنتم تقرءون ؟ فاضطربت أخته ، فلطمها ولطم زوجها ، وصاحت به أخته إنه ليس من حقك أن تلطمنا . وسال منها الدم فأدرك عمر خطأه وهدأ ، ثم طلب أن يرى هذه الصحيفة فقرأ فيها « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، إلا تذكرة لمن يخشى ، تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوات العلا ، الرحمن على العرش استوى ؛ له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ؛ وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ، الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى . . . . » وكان عمر مثالا فى البلاغة والفصاحة ووزن الكلام ، فأدرك ما فى هذا الكلام من روعة وجلال وإعجاز ، فقصد محمدا وأعلن إسلامه .

وهناك رواية أخرى عن إسلام عمر يرويها ابن هشام أيضاً ، عن ابن إسحق عن عمر نفسه ، قال عمر : كنت للإسلام مباعدا ، وكنت صاحب خمر فى الجاهلية ، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش ، فخرجت يوما أريد جلسائى فجئت مجلسهم فلم أجد أحدا منهم ؛ فذهبت إلى خمّار لأشرب عنده بعض الخمر فلم أجده، فتحولت إلى الكعبة لأطوف

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٦٤ وما بعدها

بها قبل عودتى للبيت ، فلما جئت المسجد رأيت رسول الله قائما يصلى ويقرأ القرآن فى صلاته ، فقلت والله لو أنى استمعت من محمد الليلة حتى أرى ما يقول ، فدنوت منه ولكنى لم أُرِد أن أروِّعه ، فدخلت قبل أن يرانى تحت أستار الكعبة وجعلت أمشى رويدا رويدا حتى قمت مواجها الرسول وليس بينى وبينه إلا ثياب الكعبة ، وجلست أستمع له ، وطالت قراءته وعمقت نبراته وطال استماعى وعمق تأثرى ، ورق قلبى فبكيت ودخلنى الإسلام ، ولم أزل قائما فى مكانى ذلك حتى قضى رسول الله صلى الله عليه صلاته ثم انصرف ، فلحقت به وأعلنت له إسلامى فكبَّر وحمد الله(١) .

وابن هشام بعد أن يروى عن ابن اسحق هذه الروايات يروى عنه أيضاً خاتمته التى تعود أن يقولها وهى : والله أعلم أى ذلك كان . والذى نراه احتمال حدوث هذه الأسباب جميعا . واحتمال وقوع القصتين كلتيهما ، وقد تكون القصة الأخيرة وقعت له فرقّ قلبه للإسلام ثم دخل الإسلام بعد قصته مع أخته وختنه

ونهج هذا النهج كثير من الفصحاء الشجعان ولحق بهم كثيرون من الفصحاء الذين كانت تنقصهم الشجاعة ، وظل هؤلاء يتغنون بجمال القرآن ويشيدون بما فيه من إعجاز وإبداع ، فقد روى أن لبيد بن ربيعة أحد شعراء المعلقات توقف عن قول الشعر بعد أن أسلم ، ولم يُرْوَ عنه أنه قال شعرا فى الأربعين سنة التى أمضاها فى ظل الإسلام إلاّ قوله .

الحمد لله إذ لم يأتنى أجلى حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

وكان إذا سئل عن شعره تلا سورة من القرآن ، وقال : أبدلنى الله خيراً منه .

ويروى أن عربيا مرَّ بفتاة تنشد من شعرها : .

---

(١) ابن هشام حـ ١ ص ٢١٨

أستغفر الله لذنبي كله
قتلت إنسانا بغير حله
مثل غزال ناعم فى دَلِّه
وانتصف الليل ولم أصله

فقال لها العربى . يا فتاة ، أرْجُوزَتُكِ أبلغ ما سمعت من القول .

قالت الفتاة : وهل ترك القرآن لنا بلاغة يا عماه ؟ لو قرأت القرآن لوجدت أن أقوالنا هباء .

قال العربى : ماذا تقصدين ؟

قالت الفتاة : هذه يا عماه آية واحدة من قصار الآيات ، بها أمران ، ونهيان ، ووعدان ، مع جزالة وروعة أسلوب : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ، ولا تخافى ولا تحزنى ، إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين »[1] .

فأخذ العربى يكرر الآية ويقول : نعم هذا نوع آخر من القول لا عهد لنا به .

* * *

٢ — ونجىء الآن للطائفة الثانية ، هؤلاء الذين لم يتبعوا محمدا لسبب أو لآخر ، ولكنهم خضعوا للقرآن واعترفوا اعترافات جازمة بما للقرآن من حلاوة ، وما لأسلوبه من سحر وروعة ، وما به من إعجاز ، ومن هؤلاء الوليد بن المغيرة الذى كما يقول البيضاوى[2] سمع محمدا وهو يقرأ سورة السجدة فجاء قومه وقال لهم : لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الإنس والجن ، إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو ولا يُعْلَى عليه . وكان كثيرون من قريش يحسون بإحساس الوليد ، ولكن قلّ فيهم من كان مثل الوليد

(١) سورة القصص الآية رقم ٧

(٢) تفسير البيضاوى ج ٢ ص ٥٧٨

شجاعة وجاها يستطيع أن يصرِّح بما فى نفسه ، ولقد كان تصريح الوليد ذلك فاجعة لقريش لأن مثل ذلك دليل على ميل الوليد للإسلام ، ولذلك صاحت قريش : صبأ الوليد . قال ابن أخيه أبو جهل : أنا أكفيكموه ، وقام فقعد إليه حزينا وكلمه بما أحماه فقام الوليد إلى قريش وهتف فيهم : تقولون إن محمدا مجنون فهل رأيتموه يخنق ؟ وتقولون إنه كاهن فهل رأيتموه يتكهن ؟ وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعرا ؟ فقالوا فى كل منها : لا . فقال : ما هو إلا ساحر ، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه . ففرحت قريش بذلك بعد أن ظنت أن الوليد مال للإسلام ، وقد روى القرآن الكريم هذه القصة مهددا الوليد بالويل والثبور ، قال . « ذرنى ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا ، إنه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا ، إنه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر ، سأصليهُ سقر ، وما أدراك ما سقر ، لا تبقى ولا تذر لواحة للبشر »[1] وسمع الوليد هـذا الكلام الملتهب فى معناه الرائع فى نهجه وأسلوبه . سمعه ولسان حاله يقول : يتوعدنى ولكنه جميل الأسلوب حتى فى توعده وتهديده .

وهناك قصة أخرى من هذا النوع ترويها كتب الأدب والتاريخ عن ثلاثة من كبار قريش هم أبو سفيان وأبو جهل والأخْنس بن شَرِيق ، فهؤلاء لم يتبعوا محمدا وكانوا من أقسى أعدائه ، ولكنهم كانوا يتسللون فُرادى إلى جدار بيت الأرقم ليتسمعوا إلى محمد وهو يتلو القرآن ، وكان كل منهم يظن أنه وحده الذى يفعل ذلك ولا يدرى شيئاً عن صاحبيه ، وكان كل منهم يتخذ مجلسه فى مكان مظلم بحيث لا تراه العيون ، وحدث مرة بعد أن انتهى محمد من تلاوته للقرآن أن التقى الثلاثة بالقرب

---

(١) المدثر ١١ — ٢٩

من دار الأرقم وهم يتخذون طريقهم عائدين إلى بيوتهم . وسأل كل منهم صاحبيه : من أين جئتما ؟ وفى غمرة الدهشة لم يحر أحد منهم جوابا . واتهم كل منهم الآخرين بالذهاب لسماع محمد ، واعترفوا بأنهم فى الذنب سواء ، ولكنهم أضافوا إلى ذلك اعترافهم بخطورة العمل الذى عملوه ، فإقبالهم على سماع القرآن قد يقودهم لاتباع محمد وهذا مالا يحبونه ، ولذلك أقسموا ألا يعودوا إلى ذلك مرة أخرى . وعادوا إلى بيوتهم.

وفى الليلة التالية تحدث أحدهم إلى نفسه : إن أحدا من هذين لن يذهب الليلة لسماع القرآن فما علىَّ إن حنثت فى يمينى وذهبت لأسمع هذا الكلام العذب ؟ وذهب. ولكن كلا من الرفيقين كان قد حدث نفسه بمثل ذلك وانتهى إلى نفس النتيجة ، ولما فرغ محمد من التلاوة أراد كل منهم أن يتأكد أنه وحده الذى جاء ، فأخذ يطوف حول دار الأرقم فتقابل الثلاثة ودار عتاب وشجار وأسف ممزوج بالضعف ، وأقسموا مرة أخرى ولكنهم حنثوا أيضاً مرة أخرى ، واقترح أحدهم أن يجتمعوا فى المساء فى بيت أحدهم ليرقب بعضهم بعضاً إذ أن الواحد منهم وحده لا يستطيع أن يتغلب على دوافع الرغبة فى نفسه ، وبذلك استطاعوا أن يتوقفوا عن استمرار ذهابهم لسماع القرآن(١) .

٣ ـ أما الطائفة الثالثة فتشمل هؤلاء العرب الذين أعماهم الضلال فأرادوا أن يجحدوا ضوء الشمس الساطعة ، فأنكروا إعجاز القرآن وادعوا استطاعتهم أن يأتوا بمثله . وبدءوا ذلك ، وإذا بالإعجاز يأتيهم من ناحية أخرى ، هى أنهم تهافتوا ، وأُغلِق عليهم ، فقالوا سخفا أقل بكثير من كلامهم الذى تعودوا أن يقولوه فى مناسبات غير مناسبات تحديهم القرآن ومحاولتهم تقليده والإتيان بمثله .

---

(١) انظر حياة محمد للدكتور هيكل ص ١٧٣

وقد تحدى الله سبحانه وتعالى هؤلاء الذين تحدوا القرآن : فدعاهم إلى الإتيان بمثله إن استطاعوا ، وأكد لهم أنهم لن يستطيعوا – ولو تعاونوا بحماس – أن يبلغوا هذه الغاية ، قال تعالى « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »(١) . ثم تحداهم الله بأن يأتوا بعشر سور فقط ، قال تعالى : « أم يقولون افتراه ، قل : فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين »(٢) فلما عجزوا تحداهم الله أن يأتوا بسورة واحدة « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين »(٣) .

ولا شك أن السخف الذى قالوه لم يكن يستحق أن يُروَى ولكنا نثبت منه نموذجا واحدا مصداقا لما قلناه :

سورة الضفدع

يا ضفدع ابنة ضفدع ، نِقِّى ما تَنِقِّين ، أعلاك فى الماء وأسفلك فى الطين ، لا الشارب تمنعين ولا الماء تكدِّرين(٤) .

ومن الواضح أن محاولة هؤلاء المعاندين أن يأتوا بمثل القرآن تحمل فى طياتها تقديرهم للقرآن الكريم وإعجابهم به ، ولو كان القرآن لم ينل إجلالهم وإعجابهم لما حاولوا تقليده ، ولما بذلوا الجهد لتحقيق ذلك .

وقد روى لنا التاريخ أنه عندما زالت مؤثرات العصبية والحسد عن هؤلاء عاد أكثرهم يعترفون بجلال القرآن ، وكثيرون منهم عادوا لاعتناق الإسلام وأصبحوا من خيرة تابعيه ، ومن هؤلاء سجاح التي ادعت النبوة يوما فى بنى تميم وذكرت أنه أوحى إليها بقرآن ، ثم فشلت فى إقناع الناس

(١) الاسراء ؛ الآية ٨٨

(٢) هود : الآية رقم ١٣

(٣) البقرة : الآية رقم ٢٣

(٤) عبد المتعال الصعيدى : دراسات إسلامية ص ١٠٤

وربما فشلت فى إقناع نفسها وعند ما خفَّ داعى العصبية فى التأثير عليها اعتنقت الإسلام ورجعت ترتل القرآن الكريم ، ومسحت من قلبها تلك الخرافات التى توهمت حينا أنها تنافس آى الذكر الحكيم ، ومن هؤلاء كذلك طليحة بن خويلد الذى ادعى النبوة وادعى الوحى والقرآن ثم لم تساعده بضاعته على إطالة الوقوف فى وجه الحق فعاد يؤمن بإعجاز القرآن ويعتنق الإسلام بحماسة ظهر أثرها فى مواقفه الحربية مناضلا مع المسلمين فى حروبهم ضد الفرس ، وقد سبقت الإشارة لذلك ، ولم يَجْنِ طليحة من التنبؤ الذى زعمه إلا تصغير شأنه بتصغير اسمه واسم أبيه فأصبح اسمه طليحة بن خويلد وكان فى الأصل طلحة بن خالد ، وظل الاسم المصغر علما على الرجل حتى بعد أن تاب وأناب كأن العرب لم يستطيعوا أن يغفروا له غفرانا تاما محاولته خديعتهم بما أسماه قرآنا .

ومن تقدير العرب للقرآن وإعجازه أن جميع من ادعوا النبوة منهم أحسوا بسطوة القرآن وأثره فى نفوس الناس وكيف جعل الكثيرين يدينون بالإسلام ، ولهذا اتخذوا فصيح القول معجزة لهم فادعوا جميعا نزول الوحى عليهم ، وادعوا جميعا أنه جاءهم بقرآن ، وهذا دليل واضح على ما لفصيح القول من أثر عند العرب . ولسنا فى حاجة إلى مزيد من القول عن قيمة الأسلوب الرائع عند العرب ، فطالما كانت جموعهم تلتف حول الشعراء يسمعون قصائدهم ويطربون لها ، وقد دعاهم تقديس الفصيح من القول أن يعلقوا خير قصائد الجاهلية فى الكعبة لتكون فى مكان واحد مع معبوداتهم ، ولتوضع فى المكان الذى يحجون إليه ويتبركون به .

٢ — أثر المبادئ الإسلامية فى انتشار الإسلام :

كان القرآن الكريم — كما قلنا آنفا — من أهم الأسباب التى دعت العرب إلى الدخول فى الإسلام ، ولكن كيف دخل غير العرب من المصريين والسوريين والعراقيين والفرس وغيرهم فى ذلك الدين ؟ هذا ما سنتحدث عنه هنا :

لقد قلت فى كتابى « الحكومة والدولة فى الإسلام » إن عمل الحكومة الإسلامية هو أن تعيش للمحكومين وأن تعمل على إسعادهم[١] ، فالحكومة الإسلامية تتعب ليستريح المحكومون ، والحكومة الإسلامية تسهر لينام المحكومون فى هدوء وأمن ، ومثل هذا أو أبعد من هذا كانت الحكومة الإسلامية فى عهد الرسول وعهد الخلفاء الراشدين .

فقد طلع الإسلام على الناس بمبادئ كانت أكثر مما يأملون ، وأبعد مما يتصورون ، وطبق الرسول والخلفاء الراشدون هذه المبادئ ، أو قُلْ إنهم تحمسوا لها ، واختلطت بدمائهم ، ووجدوا فيها لذة ونعيما ، فساروا فيها بل ربما بالغوا فى تطبيقها باسم هذه اللذة وذلك النعيم .

ما هذه المبادئ ؟

وما فلسفة الدعوة التى سببت تدفق الناس على الدين الجديد فى صدر الإسلام ؟

إنها كلمات قليلة ولكنها تعنى ثورة كبيرة .

إنها ألفاظ معدودة ولكنها تحقق أحلاماً أو ما هو أبعد من الأحلام .

إنها :

المساواة .

العدالة .

الحاكم الفقير .

إنها هذه الكلمات أو هذه الصواعق التى قلبت الأوضاع وغيرت الاتجاهات .

لقد نادى الإسلام بالمساواة فى وقت كان النظام الطبقى متأصلا فى جميع النواحى ومختلف الأقطار فى العالم كله .

ونادى الإسلام بالعدالة فى عهد كانت العدالة تعتبر ضعفا وخزيا ، وهذا

---

(١) ص ٣٥

شاعر عربى يعيِّر رجلا بأنه من قبيلة ضعيفة لا تغدر بالعهد ولا تستطيع أن أن تظلم ، قال ذلك الشاعر :

قبيلته لا يغــدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

وأهاب الإسلام بالحاكم أن يعمل للناس لا أن يعمل لنفسه ، فخلق بذلك حاكما من نوع جديد . حاكما فقيراً يوجد بين رعاياه من يفوقه غنى ويملك أضعاف ما يملك ، وقد حصل هذا فى وقت كان الحاكم يعتبر نفسه مالكا للناس ولما يملكه الناس ، كان سيداً يملك الأرض ورقيق الأرض ، كان يرتع فى الملاذ ويعمل النــاس ليحققوا له دوام هذه المتع وتلك الملاذ .

ودهش الناس حينما رأوا الرسول والخلفاء الراشدين يتبعون هذه المبادئ بحماسة وإيمان ، حينما رأوا محمداً – كان بعض العرب يسمونه ملك الملوك – يرقع ثوبه ويخصف نعله ، ويبيت على الطوى ، وكان له مال وغنى بعد أن تزوج خديجة « ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى »[١] ، ولكنــه لم يضف شيئاً إلى هذا المال ، ولم يحتفظ به ، بل فقده حتى إذا مات مات مدينا ، وكان أبو بكر غنيا قبل الإسلام ثم أنفق أكثر ماله فى سبيل الله ، ولما ولى الخلافة حمل تجارته على كتفه واتجه للسوق يريد أن يربح رزقه ورزق أولاده ، وكان عمر وتحت سلطانه فارس وسوريا ومصر يعيش فى بيت صغير وينام فى المسجد ويرتدى لباس الفقراء ، وفقد عثمان ماله مع أنه كان من أغنى تجار العرب ، وكان علىّ يقدم ما عنده من الطعام إلى المحتاجين مع أنه فى حاجة إلى ذلك الطعام حتى استحق أن تنزل فيه الآية الكريمة « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة »[٢] .

---

(١) الضحى ٦ – ٨

(٢) الحشر ٩

وأدرك الفرس والسوريون والمصريون هذه الأحوال المثالية وقارنوا هؤلاء الحكام بالحكام الذين عرفوهم من قبل هؤلاء الذين كان لا همّ لهم إلا جمع المال وحرمان الرعية .

ولم يكن الحاكم فقط هو الذى انتبه من غفلته وعرف ربه ، ولكن المحكوم أيضا انتبه من غفوته وعرف حقه ، وكان من قبل يؤمن بأنه وما يملك ملك لكسرى أو قيصر .

وانهال الناس يدخلون فى هـــذا الدين الذى حقق لهم ما هو أبعد من الأحلام .

وقبل الإسلام كان بالفرس ملوك يدعون أن دماء إلهية تجرى فى عروقهم ، وأنهم من طبيعة غير طبيعة البشر ، أسمى درجة وأعز شأنا ! وجاء الإسلام فحقق المساواة بين محمد أو الخليفة من بعده وبين كل فرد من أفراد الرعية ، فهذا زيد بن سفنة اليهودى دان الرسول صلى الله عليه وسلم بدين ، وتأخر الرسول صلى الله عليه وسلم فى أداء الدين لعسرة ألمت به ، وجاء زيد فأمسك بتلابيبه وجذبه بقسوة وقال له : أما آن لك يا محمد أن تسدد ما عليك من دين ؟ وارتاع عمر لقسوة زيد ، فأخرج سيفه وهم بضربه ، فصاح به الرسول : ضع يا عمر سيفك فى جرابه ! لقد كان خيراً لك أن تنصحنى بحسن الأداء وتنصحه بحسن الطلب ، وذهل اليهودى مما رآه من خلق رائع ومساواة تامة مع اختلاف المكانة والدين فأعلن إسلامه .

وهناك يهودى آخر له حادثة أخرى مع عمر ، فقد روى أن سيف عمر ضاع ثم رآه عمر مع يهودى فادعاه ، وادعى اليهودى أن السيف سيفه ، فقاضاه عمر إلى قاضيه ، فلما ذهبا للقاضى جلس عمر واليهودى بين يدى القاضى ، وسأل القاضى عمر ؛ فادعى السيف ، وسأل اليهودىّ فأنكر وطالب القاضى عمر بالبينة فلم تكن له بينة ، فحكم بالسيف إلى

اليهودى ، وعجب اليهودى كيف يحقق الإسلام المساواة بين الخليفة عظيم الشأن وبين فرد عادى من أتباع ديانة أخرى ، وكيف يجلس معه عمر بين يدى القاضى ، ثم كيف يكون الحكم لصالح اليهودى ولا يقبل القاضى قول عمر ولم يستطع اليهودى المقاومة فاعترف بأن السيف سـيف عمر ودخل الإسلام .

وهناك قصة أخرى ترويها كتب الأدب والتاريخ عن عمر وجبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة ، فقد دخل جبلة الإسلام وكان عمر يكرمه ويجله ، ولكن حدث مرة أن وطئ أحد العامة ذيل إزار جبلة وجبلة يطوف بالبيت ، فاستدار جبلة وضرب الرجل بقوة ضربة هشمت أنفه ، فذهب الرجل وشكا إلى عمر ، فاستدعى عمر جبلة وأجلسه بجوار خصمه للقضاء ، فاعترف جبلة بأنه ضرب الرجل فحكم عمر بالقصاص . قال جبلة : أنا ملك وهذا سوقة تجلسه بجوارى وتقتص له منى ؟ قال عمر : إن الإسلام قد سوى بينكما(١) .

ولم يستطع جبلة أن يفهم هذه الفلسفة الجديدة التى جاء بها الإسلام ، فاستمهل عمر حتى يرضى خصمه ويطيب خاطره ، فأمهله عمر ، فهرب جبلة وارتد عن الإسلام . لقد خسر الإسلام جبلة ، ولكن كم ألفا من الناس دخلوا الإسلام على أثر هذه الحادثة ؟ إنهم آلاف وآلاف دخلوا الإسلام حبا فى هذه المساواة التى لم يكن لهم بها عهد .

تلك كانت فلسفة الإسلام ، تلك كانت النافذة التى هب منها عطر الإسلام فجذب الناس إليه من كل جانب ، فاعتنقته الملايين بإخلاص وإيمان(٢) .

---

(١) انظر البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٤١-١٤٢ والعقد الفريد ج ١ ص ١٤٠-١٤١

(٢) قد يخطر ببال القارئ أن العدالة والمساواة أصبحتا من الأخلاق العالمية ولا يمتاز بهما الإسلام ، ونجيب بأن أوربا التى يظن أن العدالة والمساواة تسودان بها الآن كانت بعيدة كل =

ودار الزمان وجاء خلفاءهم بالملوك أشبه ، لم يفهم الكثيرون منهم فلسفة الإسلام ، ولم يسيروا فى ضوئها ، لم يعرفوا خلق المساواة ولم يدينوا به ، ولم تتعمق العدالة فى نفوسهم ، وحرصوا على النعيم ومتع الحياة فعندما دخل الإسلام اسبانيا وعندما دخل الإسلام الهند ، وعندما دخل الإسلام شرق أوربا كان حاملوه من نوع آخر غير الذين حملوه إلى فارس والعراق وسوريا ومصر ، كان الخلفاء إلى الملوك أقرب منهم إلى الخلفاء الراشدين ، بل كان من الحكام من يحول بين الناس وبين الإسلام خوفا على الجزية أن تقل ، ومن هؤلاء والى عمر بن عبد العزيز الذى كتب إلى الخليفة بذلك فأجابه الخليفة صارخا فيه : قبح الله رأيك ، إن الله بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا ، وسنرى فيما بعد كيف تعثر انتشار الإسلام فى الهند وإسبانيا وخراسان بسبب سلوك سليمان ابن عبد الملك وتصرفاته ، وهكذا فقد الإسلام جاذبيته فى تلك العصور فقل من انضموا إليه ، ولما جاء الأتراك إلى العالم الإسلامى فى عهد الدولة العباسية ، كان هؤلاء من جهتهم غلاظ القلوب ، ووجدوا فى عاصمة الخلافة الإسلامية خلفاء يذكرون الدنيا أكثر مما يعرفون الآخرة همهم الكأس واللذة والمتاع ، فلم تتطرق المثل الإسلامية العليا إلى قلوب الأتراك لأنهم قساة القلوب من جهة ولأنهم لم يروا هذه المثل من جهة أخرى .

أما الأتراك العثمانيون الذين أخذوا الإسلام إلى شرق أوربا فقد كان أغلبهم فى واد وفلسفة الدعوة الإسلامية فى واد آخر ، لقد كانوا أسوأ مثل لا للحاكم المسلم فقط بل للحاكم أيا كان دينه ، جمعوا بين الجهل والنذق والطيش وسوء السيرة وكل ما هو قبيح بقدر ما بعدوا عن كل ما هو إسلامى وكل ما هو كريم ،

= البعد عنهما فى العصور الماضية وفى ظلال الإقطاع ، ثم إن ما يوجد من عدالة الآن إنما هى عدالة محلية ، بين البيض فقط ، وليس هناك من يطمع فى عدالة الإنجليز فى السودان أو افريقية أو مصر أيام احتلالها لهذه البلاد ولا من يطمع فى عدالة من الهولنديين نحو الاندونيسيين ، بل ليس هناك من يطمع فى عدالة ومساواة بين الأمريكيين البيض والأمريكيين الملونين ، إن العدالة فى الإسلام عامة وعالمية وهى منحة السماء لسكان الأرض أما عدالة المدنيات الحديثة فحلية وقد أخذتها الشعوب من الحكام قسرا وبعد صراع طويل .

ولا نزاع أن مثل هؤلاء يجعلون الناس يفرون من الإسلام معتقدين خطأ أن هذه هى مبادئه وتلك تعاليمه ، لقد جذبت المساواة والعدالة وقناعة الحاكم وفقره الملايين إلى الإسلام ، والآن يتمثل فى الأتراك العثمانيين نظام الطبقات بأقبح صورة وأقسى أساليب الظلم وشره الحاكم وانفساح أطماعه ، فلا عجب أن كره ضعاف الثقافة من المسلمين الإسلام وأن أحجم عنه من لم يكونوا قد دخلوا فيه .

وكان الإسلام أوسع انتشارا فى إندونيسيا وفى أفريقية حيث جاء به التجار والعلماء يتحدثون عن السلف الصالح ويشرحون مُثل الإسلام الكريمة ، واعتقادى أن الإسلام لو جاء إلى إندونيسيا أو إفريقية على يد جيش إسلامى من جيوش العهود الأخيرة ، ولو كانت إندونيسيا أو إفريقية على صلة بخلفاء المسلمين فى تلك العصور المظلمة لكان من المحتمل أن يكون انتشار الإسلام باندونيسيا أو إفريقية ضعيفا على نحو ما حدث فى الهند ، ولكن الذى جاء إلى إندونيسيا والذى سار إلى إفريقية هو عطر الإسلام السمح ، ومُثُلُ الإسلام العليا مقتبسة من أسس الإسلام الصحيحة ومن مصادره الأولى ومن أعمال السلف الصالح التى كان يتكلم بها الدعاة ويتخذون منها مادة لأحاديثهم .

*

وبعد ، لعل القارئ يتفق معى على أن هذا عهد ، وذلك عهد وأن الفرق بين العهدين كبير ، ولعله بذلك يوافقنى على أن نقف بالجزء الأول عند هذا الحد ، ثم نبدأ جزءا تاليا مع ابتداء العهد الأموى إن شاء الله .

- فى الأجزاء التالية :

الدولة الأموية

الدولة العباسية

الدول الإسلامية التى خرجت على الخلافة العباسية

الدول الإسلامية بعد سقوط بغداد

الإسلام فى إندونيسيا

الحضارة الإسلامية من النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعسكرية .

ثبت المراجع

١ القرآن الكريم

٢ مجموعة من كتب التفسير

٣ كتب الأحاديث الستة

٤ مجموعة من كتب الفقه

٥ Encyclopaedia of Islam

٦ بعض المجلات العلمية

٧ ابن الأثير — الكامل فى التاريخ

٨ أحمد أمين — ضحى الإسلام

٩ أحمد أمين — يوم الإسلام

١٠ دكتور أحمد شلبى — المجتمع الإسلامى

١١ دكتور أحمد شلبى — تاريخ التربية الإسلامية

١٢ الأزدى — فتوح الشام

١٣ الاصفهانى — الأغانى

١٤ Browne — A Literary History of Persia

١٥ البلاذرى — فتوح البلدان

١٦ البغدادى (عبد القاهر) الفرق بين الفرق

١٧ البغدادى (محمد أمين) سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب

١٨ Thomas Arnold — The Caliphate

١٩ Thomas Arnold — The Preaching of Islam

٢٠ الجاحظ — كتاب التاج فى أخلاق الملوك

٢١ « — البيان والتبيين

٢٢ Gibb Muhammadanism
٢٣ Goldziher مذاهب التفسير الإسلامى (ترجمة الدكتور النجار)
٢٤ الجهشيارى كتاب الوزراء والكتاب
٢٥ جورجى زيدان تاريخ التمدن الإسلامى
٢٦ حاجى خليفة كشف الظنون
٢٧ ابن حزم الفصل فى الملل والنحل
٢٨ دكتور حسن ابراهيم تاريخ الإسلام السياسى
٢٩ الخضرى تاريخ الأمم الإسلامية
٣٠ ابن خلدون المقدمة
٣١ « « العبر
٣٢ الذهبى تاريخ الإسلام
٣٣ السبكى طبقات الشافعية
٣٤ سعيد الأفغانى عائشة والسياسة
٣٥ سيديو تاريخ العرب العام (ترجمة عادل زعيتر)
٣٦ ابن سعد الطبقات
٣٧ A Short History of the Saracens : Sayid Ameer Ali
٣٨ السيد ماضى أبو العزائم أسرار القرآن
٣٩ الشهرستانى الملل والنحل
٤٠ صادق عرجون خالد بن الوليد
٤١ صلاح الدين المنجد خطط دمشق
٤٢ ابن طباطبا الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية
٤٣ الطبرى تاريخ الأمم والملوك
٤٤ دكتور طه حسين الفتنة الكبرى « عثمان »
٤٥ دكتور طه حسين الفتنة الكبرى « على وبنوه »

٤٦ عباس العقاد — مبادئ الإسلام وأباطيل خصومه
٤٧ ابن عبد ربه — العقد الفريد
٤٨ ابن عبد الحكم — فتوح مصر
٤٩ دكتور عبد المنعم ماجد — التاريخ السياسى للدولة العربية
٥٠ عبد المتعال الصعيدى — السياسية الإسلامية فى عهد النبوة
٥١ عبد المتعال الصعيدى — دراسات إسلامية
٥٢ ابن العربى — أحكام القرآن
٥٣ ابن العربى — تاريخ مختصر الدول
٥٤ ابن عساكر — تاريخ دمشق
٥٥ العقاد — عبقرية محمد
٥٦ » — عبقرية الصديق
٥٧ » — عبقرية عمر
٥٨ » — الصديقة بنت الصديق
٥٩ دكتور على النشار — شهداء الإسلام فى عهد النبوة
٦٠ الغزالى — الإحياء
٦١ أبو الفدا — المختصر فى أخبار البشر
٦٢ Philip Hitti — History of the Arabs
٦٣ ابن قتيبة — عيون الأخبار
٦٤ ابن قتيبة — الإمامة والسياسة
٦٥ ابن قتيبة — المعارف
٦٦ القزوينى — آثار البلاد وأخبار العباد
٦٧ ابن القيم — زاد المعاد
٦٨ كيرك — موجز تاريخ الشرق الأوسط (ترجمة عمر الإسكندرى)
٦٩ كارل بروكلمان — تاريخ الشعوب الإسلامية

٧٠	ابن الكلبى	الأصنام
٧١	Lane Poole	Muhamadan dynasties
٧٢	الماوردى	الأحكام السلطانية
٧٣	محمد صادق الصدر	الشيعة
٧٤	محمد عبد الله عنان	مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام
٧٥	المسعودى	مروج الذهب
٧٦	محمد أحمد جاد المولى	أيام العرب فى الجاهلية
٧٧	محمد هاشم عطية	الأدب العربى وتاريخه
٧٨	محمد عبد الله عنان	تاريخ المؤامرات السياسية
٧٩	محمد كرد على	خطط الشام
٨٠	محمد كرد على	الإسلام والحضارة العربية
٨١	مصطفى الرافعى	إعجاز القرآن
٨٢	Macdonald	Muslim Theology
٨٣	النووى	تهذيب الأسماء
٨٤	Nicholson	A Literary History of the Arabs
٨٥	ابن هشام	السيرة
٨٦	دكتور هيكل	حياة محمد
٨٧	دكتور هيكل	الصديق أبو بكر
٨٨	دكتور هيكل	الفاروق عمر
٨٩	Wells	A Short History of the World
٩٠	الواقدى	فتوح الشام
٩١	ياقوت	معجم البلدان
٩٢	يوسف عبد الرازق	معالم الهجرة